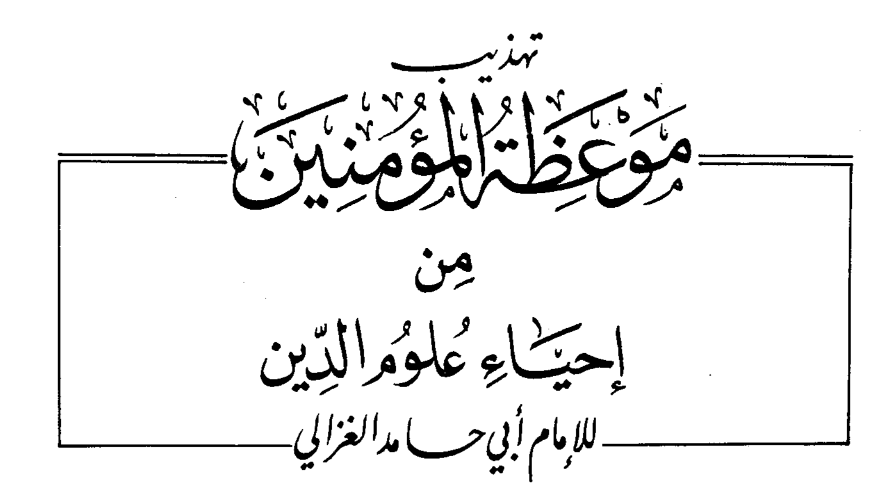



تأليف


العلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

راجعه وحقق أحاديثه
طائفة من الجامعيين


كتاب الاحياء اعظم ما الفه المصنفون في الوعظ والارشاد في قوة تأثيره، وعجيب سره وسرعة فعله في توجيه النفوس واصلاحها لولا ما فيه من بعض المجازفات والاحاديث غير الصحيحة ولاول مرة في هذه الطبعة نقدمه محققاً موجزاً، اشتمل على المزايا، وخلا من العثرات.

## الجزء الاول


دار ابن القيم
للنشر والتوزيع

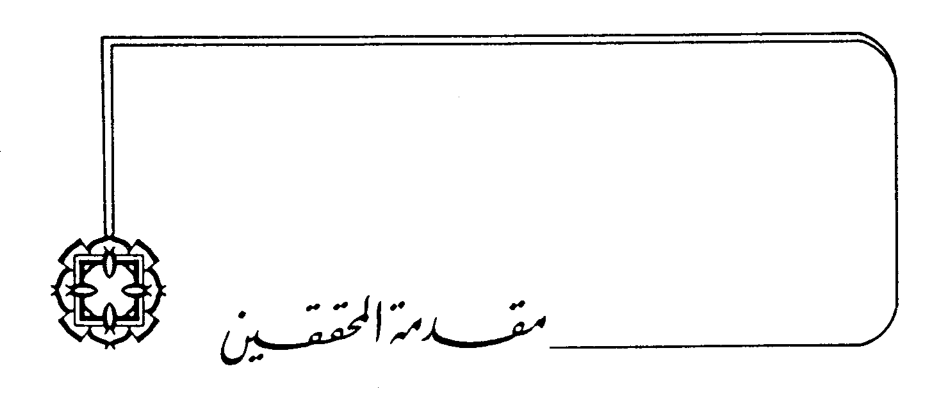
بسم الله الرحمن الرحيم

من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين

حديث شريف

# تهذيب
# موعظة المؤمنين
من
## إحياء علوم الدين

دار ابن القيم
للنشر والتوزيع
الدمام
ص.ب. ١٨٦٥ ـ هاتف ٨٢٦٨٣١٣
١٣٩٤هـ. ١٩٧٤م.
١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.



# مقدمة المحققين

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله، أما بعد فإن من أهم الكتب التي ينبغي أن تكون بأيدي الجماهير: كتاباً في الوعظ والإرشاد يشجع القراء على مطالعته، فيدلهم على موضع الداء ويصف الدواء، ويجمع إلى الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة تحليلاً وإيضاحاً مع بعض آثار العلماء الصالحين وأحوالهم. ورقائقهم، ونفحات الشعراء، وما اشتملت عليه من روحانية تهز مشاعر القراء، وترضي عواطفهم. كل ذلك في سبيل تحقيق غايتنا الأولى بغية تكوين شخصية المسلم ليحمل راية الإسلام، ويتصف بمبادئه بقوة وحماسة وتضحية من أجل كسب رضاء الله تعالى، ثم السير في طريق الجمال والحق والخير، نحو الحياة الفاضلة القوية الكريمة...

ومثل هذا الكتاب ضروري أيضاً حتى للعالم المرشد، فيسهل مهمته في اجتذاب الجماهير ونصهم وتوجههم ووعظهم في مساجد الله، سواء في الدروس العامة، أو في خطب الجمعة وغيرها.

وقد بحثنا عن كتاب يحقق الأهداف السابقة ويجمع إلى الصحة، القدرة على معالجة النفوس واصلاحها، بدراسة أمراضها وعيوبها، بالدخول إلى بواطنها واقتلاع جذور الشر، وتنمية بذور الخير فيها، عن طريق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، بالإضافة إلى الشروح التي تثير النفوس

وتلين القلوب، وتشحذ الهمم، وتبدد الأنانيات أساس جميع المفاسد والجرائم. . .

أجل بحثنا عن كل ذلك، فلم نجد كتاباً يجمع المزايا ويخلو من الآفات.

وهذا فراغ مؤلم ينبغي أن يزول. . .

وقد حاول العلماء والدعاة والوعاظ من قبلنا تحقيق هذا الأمر، فاختاروا كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي بعد تنقيته من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ومن العثرات العديدة. . .

فإن الحق يقال إن هذا الكتاب إذا اختصر وحُقق وهذب، كان أعظم كتاب وضع للوعظ والإرشاد وسرعة التأثير في النفوس. . .

وأول من قام بهذا الصنيع الإمام أبو الفرج ابن الجوزي، وهو العالم الذي طبقت شهرته الآفاق في قوة تأثيره في هداية الناس، فاختصر هذا «الإحياء» في كتاب أسماه: «منهاج القاصدين» ونقاه من الهفوات قدر المستطاع، فكان مما قاله:

«فاعلم أن في كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء، وأقلها الأحاديث الباطلة والموضوعة، والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة. وإنما نقلها كما اقتراها، لا أنه اقتراها. ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع، والاغترار بلفظ مصنوع. . .

وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قال رسول الله ﷺ. .

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام (بعض) المتصوفة الذي جمعه وندب إلى العمل به، ما لا حاصل له من الكلام في الفناء، والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة في غير حاجة، والدخول في الفلاة بغير

زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره[1] في كتابي المسمى (بتلبيس ابليس)[2] اهـ باختصار. . .

ثم قام العلامة أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي بدوره في اختصاره مرة أخرى وسماه: «مختصر منهاج القاصدين»، وقد طبع عدة طبعات، اطلعنا على إحداها، فوجدناها على الرغم من فائدته، لا يزال يشتمل على كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والعديد من العثرات والهفوات، فنبهنا أحد القائمين على طبعه بوجوب تحقيقه وتنقيحه في طبعة جديدة، فلم يعبأ بذلك. . فاضطررنا للقيام بهذا المشروع نصرة للإسلام وتسهيلاً لمهمة الخطباء والمدرسين ورغبة في إرشاد المسلمين، وسعياً لتثقيف أنفسهم بأنفسهم، وباشرنا العمل. .

غير أننا بعد ذلك، وجدنا تلخيص علامة الشام جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه لهذا «الإحياء» في كتابه «موعظة المؤمنين» أقرب إلى روح هذا العصر الذي عاش حوادثه ومشكلاته، وعالجها قدر الطاقة صابراً ومرابطاً ومحتسباً، فآثرناه على غيره. . وإن كنا اقتبسنا أيضاً أهم ما في مختصر الإمامين ابن الجوزي والمقدسي.

## عملنا في هذا الكتاب

١ ـ لقد اعتمدنا هذا المختصر في دراستنا وتحقيقنا، وهو مع علو شأن مختصرة، احتوى على العديد من الأحاديث غير الصحيحة، فحذفناها على الغالب لعدم الفائدة من ذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولو بالتعليق عليها، خشية من بلبلة المبتدئين، وحققنا الصحيح من هذه الأحاديث كما هو واجب على كل باحث. وقد اعتمدنا في ذلك غالباً على تحقيق الحافظ

---

(١) العوار بالفتح: العيب.

(٢) وهو كتاب مفيد جداً ينبغي لكل مسلم مطالعته ليكون على علم يقيني بدينه وقد طبعته مكتبة «دار البيان» بدمشق طبعة جيدة محققة.

زين الدين العراقي في كتابه القيم «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» كما اعتمدنا أيضاً على المحدث محقق «مشكاة المصابيح» ومحقق «الترغيب والترهيب»[1] واستدركنا على الحافظ العراقي في الأحاديث التي اكتفى بعزوها إلى كتب «السنن» فقط، مع أن فيها العديد من الأحاديث غير الصحيحة. .

٢ ـ وكذلك حذفنا العثرات التي أشار إليها الإمام ابن الجوزي، وقد ذكرنا كلامه في أول هذه المقدمة. مع أنه أبقى على بعضها في «مختصره»!

٣ ـ وحذفنا أيضاً من كتاب «موعظة المؤمنين» المسائل المتعلقة بأحكام فقهية عن الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج، كما حذف أكثرها الإمام ابن الجوزي أو المقدسي لأنها مستفيضة في كتب مخصصة لها، وهي موضع خلاف بين المذاهب.

٤ ـ وأثبتنا بعض مباحث وأحاديث وأشعار، رأيناها مفيدة، وقد حذفها الشيخ القاسمي، منها ما نقلناه من «الإحياء» نفسه ومنها ما نقلناه من مختصر الإمامين ابن الجوزي وابن قدامة. فجاء هذا الكتاب مشتملاً على مزايا الكتابين المختصرين.

٥ ـ ومن أهم ما قمنا به، أننا ذكرنا بحثاً في الجهاد، ليأتي الكتاب كاملاً فإن الإمام الغزالي لم يتطرق إلى موضوعه على الرغم من خطورته وعظمته، فهو من أهم أركان الإسلام بعد الإيمان بالله تعالى، وقد لام الغزالي خصومه على هذا الإهمال، وخاصة أنه قد عاش إلى العصر الذي غزا فيه الصليبيون والتتار بلاد المسلمين واحتلوا بعضها وقتلوا وذبحوا الألوف الكثيرة من أهلها. . .

---

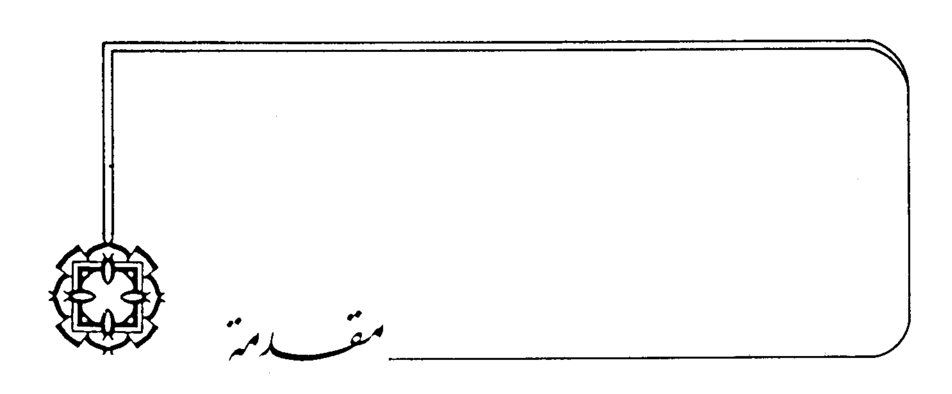
(١) رمز: (مم) في هذا الكتاب يشير إلى محقق مشكاة المصابيح. و «مت» إلى محقق الترغيب والترهيب. و (مج) إلى محقق الجامع الصغير للإمام السيوطي.

٦ ـ في الطبعة المتداولة كثير من التصحيف والخطأ صححناه في هذه الطبعة.

ولقد جاء هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه محققاً للغاية، مؤدياً للغرض، ميسراً للتعليم والتعلم، مشتملاً على المزايا خالياً من الشوائب لأول مرة، فنسأله سبحانه أن يفيد به ويدخر لنا ثوابه: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





# مقدمة

نحمدك ياذا الجلال والإكرام، على ما أكملت لنا من دين الإسلام، ونصلي ونسلم على نبي الهدى والرحمة، المبعوث بالكتاب والحكمة، خاتم النبيين، وإمام المرشدين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين.

أما بعد، فإن موعظة الناس، والتصدي لإرشادهم في الدروس العامة، من الأمور المهمة، المنوطة بخاصة الأمة، إذ هم أمناء الشرع ونور سراجه، ومصابيح علومه وحفاظ سياجه. وكان السلف يملون مما وقر في صدورهم ما يرونه أمس بحالهم وزمانهم ومكانهم، ولما امتدت الفتوح في الإسلام، ابتدىء بجمع الهدي النبوي للأنام. ثم اتسع العمران وعظمت الحضارة، فأخذ ينمو التفريع والتخريج والانبساط في الفنون على نسبتها في الغزارة، واستبحرت في فنون العلم الأسفار، ودنت لقطف مباحثه الكبار. وصار المعول في بثه عليها، والملجأ في تعرف حقائقه عليها، وتنوعت في كل فن مصنفاته، وزخرت من كل بحث مؤلفاته، حتى حار طالبه في انتقاء الأحسن، واستوقف كثرتها نظره في تخير الأتقن، وأصبح التبصر في أجودها عنوان الذكاء، والوقوف على أنفعها آية النباهة والارتقاء. ولما كانت عظة الناس، بإيقافهم على جواهر دين الإسلام، وإعلامهم محاسنه، وما يأمر به من الأخلاق الكريمة، ويزجر عنه من المساوىء الذميمة، ليرتقوا إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم فيفوزوا بما في الاعتصام به سعادتهم وفلاحهم، من

أوجب الواجبات، وآكد المفروضات، لما أخذ الله على العلماء من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقف المدعوون على شرائعه تعالى فيما أمر وزجر، ووعد وأوعد، وبشر وأنذر، فلزم الداعي إلى الله تعالى أن يجتهد بفطنته لما يعينه في دعوته، فيجد من المدونات أنفعها، وينتقي من لباب لبابها أرفعها. إذ كثير مما اعتمد في المحافل تدريسه لم يكن على بناء إفادة الجمهور تأسيسه ولا برهان بعد عيان.

موضوع ذكرى الناس موضوع جليل، لا يصلح له إلا كل حكيم نبيل. أتدري من المذكر، أو الواعظ، أو المرشد؟ هو إنسان حافظ لحدود الله، قائم على إرشاد العقول، وتهذيب النفوس، وتثقيف الأذهان، وتنوير المدارك وتصحيح المعتقدات، وإبانة سر العبادات، وإماطة ما غشى الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة، وتراث الضلالة.

المذكر وارث محمدي، واقف على مقاصد التشريع وحكمته، عالم بمواضع الخلاف والوفاق، سائس لسامعيه بما يلائمهم من الأحكام. لا يصعد بهم قمم الشدة والتعسير، ولا يهبط بهم إلى حضيض الترخيص غلواً في التيسير، بل يسير بهم على جادة الحق وسواء الطريق.

المذكر ينشر العلم النافع بين الناس، ويحثهم على العمل به، ويخاطبهم على قدر عقولهم، ويتنزل لإرشادهم إلى لغتهم، يعاشرهم بالنصح، ويخالطهم لتأليف قلوبهم.

المذكر هو العامل الأكبر في إخراج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وتحريرهم من رق الخرافات والوهم. وهو كالسراج، فإذا لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده. وحق ما قيل: «لا يكون العالم عالماً حتى يظهر أثر علمه في قومه، إذ هو ليس مسؤولاً عن نفسه وحدها بل عنها وعن عشيرته وأمته. فمن الواجب عليه أن يعلم ويعظ كما فعل رسول الله ﷺ.

وعلى الجملة فالمذكر لا بد أن يكون كاملاً في علمه، كاملاً في تعليمه،

كاملاً في إرشاده، كاملاً في أخلاقه[1].

وغير خاف أن مذكر الناس على قوة ملكته وسعة مداركه، يضطر إلى مادة تعينه على ذكراه، وتمد ذاكرته إذا أم مبتغاه. ولكن أين تلك المادة الممدة، فإني لم أر بين المصنفات على كثرتها ما ألف لذكرى الجماهير مستوفياً للشروط التامة، بان يفقهوا معناه، ويدركوا منطوقه ومغزاه، ويكون وافياً بحاجاتهم[2] آتياً على جميع كمالياتهم، مجرداً عن دقائق المسائل، قريب الأخذ للمتناول. فيستعين به المذكر، ويهتدي به المستبصر. ولم أزل أترقب من نفحات التوفيق ما يهدىء البال، إلى أن رأيت بعدما بلورت في عالم التدريس، كل كتاب نفيس، الأعوام الطوال: أن أنفع ما يقتبس منه عظة المؤمنين مواضيع تنتخب (من إحياء علوم الدين) للإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي عليه الرحمة والرضوان. ثم اتفق أن تذاكرت مع إمام حكيم[3] واستطلعت رأيه الصائب في هذا المرام، فقال متأسفاً: «إن هذا الموضوع لم يصنف فيه؛ إلا أن أحسن ما لدينا لذلك هو «الإحياء» بعد تجريده» فعددت ذلك من بدائع الموافقات، وأتذكر الآن أن أحد الأعلام في دمشق أشار على من استشاره من المدرسين «بالاحياء» فأخذ المدرس في قراءته بالحرف، عملاً بالأمر الصرف، ثم شكا له ضيق صدره من مباحث لا تفقهها العوام، فأجابه بأن أمره كان لفصول تنتخب منه. وقد تحققت بذلك كمال حذقه رحمه الله ورضي عنه. لذلك عزمت سنة ١٣١٣ على اختصاره في جزأين على الشريطة السالفة، أساير فيهما ترتيب أصله بلا مخالفة. والمأمول أن نحظى بالغاية المتوخاة، والضالة المنشودة. وبالله المستعان، وعليه التكلان.

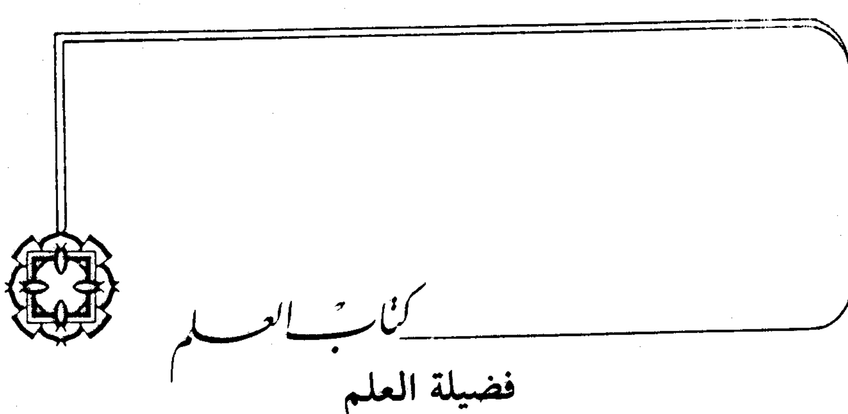
---

(١) هذا الشرط ليس بالمتيسر غالباً، واشتراطه يبعد العلماء عن الوعظ ويحرم الناس منهم وهو لم يتوفر إلّا في المعصوم صلوات الله عليه وسلامه. قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

(٢) في الأصل حاجياتهم.

(٣) هو الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أيام كنا في ضيافته بمصر عام ١٣٢١ واستشرناه فأشار به، عليه الرحمة (القاسمي).





# كتاب العلم

## فضيلة العلم

شواهده من القرآن آيات كثيرة، منها قوله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَاۢ بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً. وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ (المجادلة: ١١) وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) رد حكمة في الواقع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى.

وأما الأخبار فقال رسول الله ﷺ: «من يراد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده»[١]، وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[٢] ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة، وقال ﷺ في تفضيل العلم على العبادة والشهادة: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى

---

(١) ولفظ الحديث كما في البخاري ومسلم: «من يرد الله به خيراً يفقه في الدين» دون زيادة «ويلهمه رشده» ومعنى يفقه في الدين: أي يعلمه القرآن والسنة.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء، وإسناده حسن (مم).

رجل من أصحابي»[1] فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم؛ وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة، وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[2] ومن وصايا لقمان لابنه: (يابني! جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء).

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد: ياكميل! العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالانفاق. وقال نظماً:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

## فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ (التوبة ١٢٢) وقوله عز وجل ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣). وأما الأخبار فقوله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[3].

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[4] وقال أبو الدرداء:

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة، قال: حسن صحيح وهو حسن (مم).

(٢) من حديث طويل رواه أبو الدرداء رضي الله عنه وإسناده حسن (مم).

(٣) من حديث رواه أبو الدرداء وإسناده حسن (مم).

(٤) حكى الحافظ العراقي صحته عن بعض الأئمة وحسنه غير واحد.

لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة، وقال أيضاً: العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم، وقال الشافعي رضي اللّه عنه: «طلب العلم أفضل من النافلة» وقال فتح الموصلي رحمه اللّه: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى، قال: كذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة يموت. ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة؛ وبهما حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم، ولكنه لا يشعر به، إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه. فنعوذ باللّه من يوم كشف الغطاء، فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، رفعه موت رواته وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم.

## فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله عز وجل: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢) والمراد هو التعليم والإرشاد، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٨٧) وهو إيجاب للتعليم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦) وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (البقرة ٢٨٣) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ (فصلت: ٣٣)، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥) وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ٤٨) وأما الأخبار فقوله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا

وما فيها»[1] وقال ﷺ: «من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نـار»[2] وقال ﷺ: «إن الله سبحـانه وملائكته وأهـل سمواتـه وأرضـه حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[3] وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صـدقة جـارية، أو علم ينتفـع به، أو ولـد صالـح يدعـو له»[4] وقـال ﷺ: «الـدال عـلى الخـير كفاعله»[5].

ومن الآثار ما جاء عن معاذ أنه قال: تعلموا العلم، فإن في تعلمـه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمـه من لا يعلمه صدقـة، وبذلـه لأهله قربـة، وهو الأنيس في الـوحدة، والصـاحب في الخلوة، والـدليل عـلى الدين، والصبـر على البـأساء والضـراء، يرفـع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سـادة هداة يقتـدي بهم، أدلة في الخـير، تقتص آثـارهم، وترمق أفعـالهم، يبلغ العبد بـه منازل الأبـرار والـدرجـات العـلى، والتفكير فيه يعدل بالصيام، ومدراسته بالقيـام، به يـطاع الله عز وجـل، وبه يعبد، وبه يوحد ويمجد، وبه يتورع وبه توصل الأرحـام، وبه يعـرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمـه السعداء، ويحـرمه الأشقيـاء. وقال

---

(١) ولفظ الحديث كما جاء في البخاري ومسلم: «لأن يهدي اللّه بك رجلاً خير لك من حمر النعم» قال ذلك لعلي رضي اللّه عنه.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) الحـديث طويـل رواه أبو الـدرداء رضي اللّه عنه بلفظ: «... وإن المـلائكة لتضـع أجنحتها رضى لطالب العلم، وأن العلم يستغفر لـه من في الأرض، والحيتان في جوف الماء» وإسنـاده حسن (مم).

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم بلفظ: «من دل على خير، فله مثل أجر فاعله».

الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم. أي إنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

## آداب المعلم والمتعلم

أما المتعلم فينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات. إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة. فإن الفكرة مهما توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، وأهديت إلى أبي بكر بن الأنباري جارية. فلما أدخلت عليه تفكر في استخراج مسألة، فغربت عنه. فقال: أخرجوها إلى النخاس! فقالت: هل لي من ذنب؟ قال: لا. إلا أن قلبي اشتغل بك. وما قدر مثلك أن يمنعني علمي.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء. ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من موصوف بالتقدم فهو جاهل. لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها.

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس. فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه. وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه. لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم. ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم. وهو العلم المتعلق بالآخرة الذي به يكتسب اليقين.

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً:

ذلك أنه من علم وعمل ـ أي بعلمه ـ فإنه كالشمس تضيء لغيرها، وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب غيره، وهو طيب. والذي يعلم ولا يعمل بعلمه، كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع. والابرة التي تكسو غيرها وهي عارية. وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كما مثل:

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيء للناس وهي تحترق

وعلى المعلم أن يكون عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعله، وقد قيل في المعنى:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ومن ذلك الشفقة على المتعلمين. وأن يجريهم مجرى بنيه. ولا يطلب على افاضة العلم أجراً. ولا يطلب به جزاء ولا شكراً. بل يعلم لوجه الله تعالى. ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين. بل يرى الفضل لهم إذ هيأوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها. فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها. فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم!

ومنها: أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً. وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن. لا على وجه التوبيخ بهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله. فلا يلقي إليه ما لا

يدركه فهمه ولا يحيط به عقله. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»[1].

ومنها: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه. ولا يكذب قوله فعله. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (البقرة: ٤٤) وقال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك. وجاهل متنسك.

## بيان العلم الذي هو فرض عين

قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2] فمنه ما يدرك به التوحيد ويعلم به ذات الله تعالى وصفاته، ومنه ما تعرف به العبادات والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل، ومنه ما تعلم به أحوال القلب: ما يحمد منها كالصبر والشكر والسخاء وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص، وما تذم كالحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والعداوة والبغضاء والبخل. فمعرفة ما تكتسب به الأولى وما تجتنب به الثانية فرض عين كتصحيح المعتقدات والعبادات والمعاملات.

فأما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا،

---

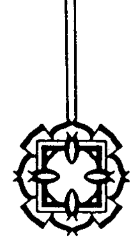
(١) له طرق كلها ضعيفة كما جاء في أسنى المطالب بل هو من كلام علي رضي اللّٰه عنه. ومثله: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب اللّٰه ورسوله، وهو موقوف على علي أيضاً كما جاء في ضعيف الجامع. وفي مقدمة مسلم عن ابن مسعود قال: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة.

(٢) حسنه العراقي وغيره.

كالطب! وهو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة. والحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها[1] وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها خرج أهل البلد، وإذا قام بها البعض لكفى وسقط الفرض عن الآخرين.

---

(١) ومثلها بل وفي مقدمتها تعلم صناعة الأسلحة والفنون الحربية. وقد أهمل المسلمون هذا الفرض، فوقعوا في خطر رهيب.



# كتاب عقيدة أهل السنة

## في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

عقيدتهم في ذاته تعالى وتقدس أنه إله واحد لا شريك له، لا أول له مستمر الوجود، لا آخر له، أبدي لا نهاية له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضي عليه بالانقضاء والانفصال، بتصرم الآباد وانقراض الآجال؛ بل هو الأول والآخر، والظاهر[1] والباطن[2] وهو بكل شيء عليم. وأنه ليس بجسم مصور، ولا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات.

وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله. وبالمعنى الذي أراده، وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل شيء ألى تخوم الثرى، رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته الأجسام، وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان[3] كما تقدس عن أن يحده زمان. بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان.

---

(١) الظاهر: العالي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف: ٩٧).

(٢) والباطن: الذي لا تدركه الحواس.

(٣) قال أحد كبار شيوخ حماة الشيخ محمد الحامد في تعليقه على رسالة «الرد على الزنادقة =

وأنـه في ذاته معلوم الـوجود في العقـول مرئي الـذات بالأبصـار في دار القرار نعمة منه ولطفاً بالأبرار واتماماً منه للنعيم، بـالنظر إلى وجهـه الكريم، وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنـة ولا نـوم ولا يعارضـه فناء ولا مـوت، وأنه المنفـرد بـالخلق والاختـراع، المتـوحـد بـالإيجاد والإبـداع وأنـه عـالم بجمـع المعلومـات، محيط بمـا يجري من تخـوم الأرضين إلى أعلى السموات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركـة الذر في جـو الهواء ويعلم السر وأخفى، ويـطلع على هـواجس الضمـائر وحـركات الخـواطر وخفيـات السـرائـر، بعلم قـديم أزلي، لم يـزل موصوفاً به في أزل الآزال.

وأنـه تعالى مـريد للكـائنات، مـدبر للحـادثات، فـلا يجـري في الملك والملكوت أمر إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئتـه، ما شـاء كان ومـا لم يشأ لم يكن، لأراد لأمره، ولا معقب لحكمه، وأنه تعالى سميع بصير، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيتـه مرضي وإن دق، ولا يحجب سمعـه بعد، ولا يـدفع رؤيتـه ظلام، لا يشبـه سمعـه وبصـره سمـع وبصر الخلق، كـما لا تشبه ذاتـه ذات الخلق، متكلم آمرنـاه، واعـد متـوعـد، وأن القرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام بكـلامه الذي هو صفـة ذاته لا خلق من خلقـه، وأن القرآن كـلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سـواه إلا وهو حـادث بفعله، فائض من عدله، عـلى أحسن الوجـوه وأكملها، وأتمهـا وأعدلهـا. وأنه حكيم في أفعـاله

---

= والجهمية»: «القول بأن الله ـ تعالى ـ حال في كل مكان قول باطل عاطل لا يقول به إلاّ أهـل الحلول الكافرون، وهو والقول بوحدة الوجود من بـاب واحد كـلاهما كفـر وزندقـة، والعلماء برآء منهما جميعاً (٧٧).

عـادل في أقضيته. فكـل مـا سواه إنس وجن وملك، وسماء وأرض وحيـوان ونبات وجماد، ومدرك ومحسوس حادث اخترعـه بقدرته بعد العـدم اختراعـاً، وأنشأه انشاء بعـد أن لم يكن شيئاً، إذ كـان في الأزل موجـوداً وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك أظهاراً لقدرته، وتحقيقاً لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته، لا لافتقاره إليه وحاجته.

وأنـه متفضل بـالخلق والاختـراع والتكليف لا عن وجـوب، ومتـطول بالأنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان، والنعمـة والامتنان، وأنـه عز وجـل يثيب عباده المؤمنـين على الـطاعات بحكم الكـرم والـوعـد لا بحكم اللزوم لـه، إذ لا يجب عليه لأحـد فعـل، ولا يتصـور منـه ظلم، ولا يجب لأحد عليه حق، وأن حقـه في الطاعـات واجب على الخلق بـإيجابـه على ألسنـة أنبيائـه عليهم السلام، لا بمجـرد العقل، ولكنـه بعث الرسـل وأظهـر صـدقهم بالمعجـزات الظاهـرة فبلغوا أمـره ونهيه ووعيـده فـوجب عـلى الخلق تصديقهم فيما جاؤوا به.

وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً ﷺ برسـالته إلى العـرب والعجم والجن والإنس، وأنه ختم الرسالة والنبوة ببعثه، فجعله آخـر المرسلين بشيـراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح بـه دينه القـويم، وهدى بـه ألى الصراط المستقيم، وألـزم الخلق تصديقـه في جميع ما أخبر به، وأن السـاعة آتيـة لا ريب فيها، وأنـه تعالى قـد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكـريم، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر بـه وألحد في آيـاته وكتبـه ورسله وجعلهم محجوبـين عن رؤيته[1].

ونـدين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كـالزنـا والسرقـة وشـرب الخمور، ونـدين بأن لا ننـزل أحداً من أهـل التـوحيـد والمتمسكـين

---

(١) إلى هنا من كلام الغزالي وما بعده من كتاب «ألابانة» للإمام الأشعري (القاسمي).

بـالإيمان جنـة ولا ناراً إلا من شهـد له رسـول الله ﷺ بالجنـة! ونرجـو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبـين، ونقول إن الله عـز وجل يخرج قوماً من النار بعـد أن امتحشوا[1] بشفـاعة رسـول الله ﷺ تصديقـاً لما جـاءت به الـروايـات عن رسـول الله ﷺ، ونؤمن بعـذاب القبـر، وأن الله عـز وجل يـوقف العباد في المـوقف ويحـاسب المؤمنـين، ونـدين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام، ونثني عليهم بمـا أثنى الله عليهم ونتولاهم أجمعين.

ونقـول: إن الإمام الفـاضـل بعـد رسـول الله ﷺ أبـو بكـر الصـديق رضـوان الله عليه، وأن الله أعـز به الـدين وأظهره عـلى المرتـدين، وقـدمـه المسلمون للإمامة كما قدمـه رسول الله ﷺ للصـلاة، وسموه بـأجمعهم خليفة رسـول الله ﷺ، ثم عمر بن الخـطاب رضي الله عنه. ثم عثمـان بن عفـان رضي الله عنه، وأن الذين قاتلوه قاتلوه ظلماً وعدواناً. ثم عـلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة، ونتولى سائر أصحاب رسول ﷺ ونكف عما شجر بينهم[2]، ونعـول فيما اختلفنـا فيه عـلى كتاب ربنا وسنة نبينا وإجمـاع المسلمين ومـا كان في معنـاه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونرى الصدقة[3] عن موتى

---

(١) أي احترقوا والمحش احتراق الجلد وظهر العظم، ويروى امتحشـوا لما لم يسم فـاعله اهـ نهاية (ج).

(٢) ننصح القاريء بضرورة دراسة كتاب: «العواصم من القـواصم» للإمـام القاضي أبي بكـر بن العربي بتحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب ومراجعتنا، فهو كتاب جليل يدافـع عن الصحابـة ويبرئهم مما نسبه إليهم المفترون والشعوبيون.

(٣) الذين نعلمه أن الصدقة تنفـع من الفروع إلى الأصـول أي من الأولاد إلى أبويهم قـال تعالى: ﴿ونكتب ما قدمـوا وآثارهم﴾ وأمـا الصدقـة من غير هؤلاء الفـروع فلا تصـل لقولـه ﷺ في حديث رواه مسلم: «إذا مات الإنسـان انقطع عمله إلاّ من ثـلاث: صدقـة جاريـة، أو علم =

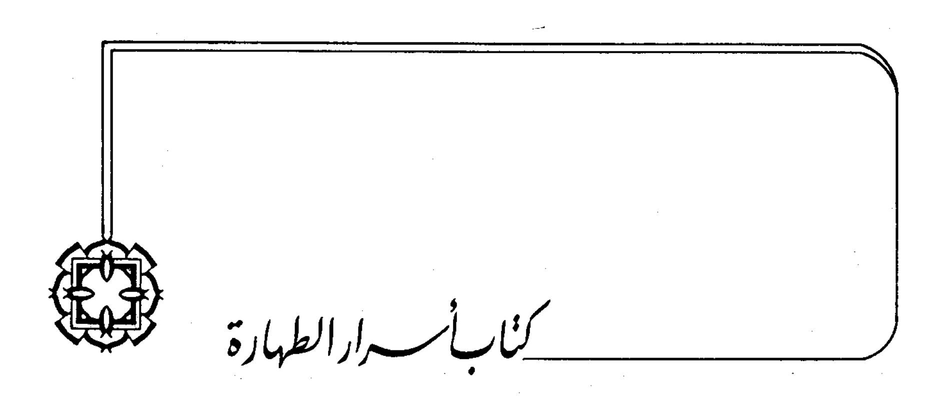
المسلمين والدعاء لهم نافعاً، ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآيات[1] يظهرها عليهم.

---

= ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» وجاءت الآية تدل على وصول الدعاء أيضاً من المسلمين إلى المسلمين والله تعالى أعلم.

(١) أي كرامات، وهي ثابتة في القرآن والسنة للأولياء الصالحين، وليست لغيرهم!.





# كتاب أسرار الطهارة

قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (المائدة: ٦) وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨) وقال ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور»[١] ففطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «الطهور نصف الإيمان»[٢] عمارة الظاهر بالتنظيف بإضافة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار، هيهات هيهات. والطهارة لها أربع مراتب: (المرتبة الأولى) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (المرتبة الثانية) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (المرتبة الثالثة) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عما سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين. ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق

---

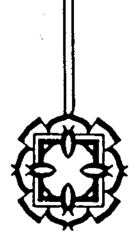
(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» وإسناده حسن (مم) وقال الترمذي: وهذا الحديث أصح شيء في هذا الباب.

(٢) من حديث رواه مسلم بلفظ: «الطهور شطر الإيمان».

المحمـود، ولن يصل إلى ذلـك من لم يفرغ من طهـارة الجـوارح عن المنـاهي وعمارتها بالطاعات.

كلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وكثـرت عقباتـه، فلا تـظن أن هذا الأمر ..رك بالمنى وينال بالهوينا. نعم من عميت بصيرته عن تفـاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجـة الأخيرة التي هي كـالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يمعن فيها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل: إن الطهارة المطلوبة الشريفـة هي هذه فقط وجهـالة بسيـرة الأولين واستغـراقهم جميع الهم والفكـر في تطهـير القلب وتساهلهم في أمر الظاهر حتى أن عمـر رضي الله عنه مـع علو منصبه تـوضأ من ماء جرة نصرانية. ولقد كانوا يصلون على أرض المسجد وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء فكانت عنايتهم كلهـم بنظافـة الباطن ولم ينقـل عن أحد منهم سؤال عن دقائق النجاسات.

وقد انتهت النوبة إلى طائفة يسمون الـرعونـة نظافـة، فأكـثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعـروسها، والبـاطن خراب مشحـون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه، ولو اقتصر مقصر على الاستنجاء بالحجر أو صلى على الأرض من غير سجـادة مفروشة أو توضأ من آنية كافر أقاموا عليه القيامة وشـددوا عليه النكير ولقبوه بالقذر، فانظر كيف صـار المنكر معـروفاً والمعـروف منكراً وكيف انـدرس من الدين رسمه كما اندرست حقيقته وعلمه.



# كتاب أسرار الصلاة

## اشتراط الخشوع وحضور القلب فيها

أعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤) وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) نهي وظاهره التحريم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣) تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا. والتحقيق أن المصلي مناج ربه عز وجل ـ كما ورد به الخبر ـ والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة، ولو حلف الإنسان وقال لأشكرن فلاناً وأثني عليه وسأله حاجة، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ولو جرت على لسانه في ظلمة، وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه، ما لم يكن هو حاضراً في قلبه. فلو كان تجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد بوجه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه، ولا في أن المقصود من القراءة والأذكار الحم والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عز وجل، والقلب بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشهده بل هو غافل عن المخاطب واللسان يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب

وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان، وبالجملة فحضور القلب هو روح الصلاة ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها.

## بيان المعاني الباطنة التي بها تتميز حياة الصلاة

يجميع تلك المعاني على كثرتها ست جمل: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء. فلنذكر تفاصيلها، ثم أسبابها، ثم العلاج في اكتسابها.

أما التفاصيل، فالأول: حضور القلب، ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل، والقلب مقروناً بهما ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، والتفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب وهو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في اثناء الصلاة تمنعه عن الفحشاء والمنكر، والتعظيم وراء الحضور والفهم زائد عليهما، والهيبة زائدة على التعظيم وهي عبارة عن خوف منشوءة التعظيم والإجلال، والرجاء: الطمع بمثوبته تعالى ويقابله الخوف من عقابه تعالى بتقصيره، والحياء استشعار تقصيره وتوهم ذنب.

**(وأما أسباب هذه المعاني الستة)** فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك، ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة، ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن القلب المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها.

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما تقدم مع الاقبال على الفكر، والتشمير لدفع الخواطر

وعلاج دفعها قطع مواردها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها.

**(وأما التعظيم)** فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين (إحداهما) معرفة جلال الله عز وجل وعظمته، وهو من أصول الإيمان (الثانية) معرفته كون النفس عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم.

**(وأما الهيبة والخوف)** فحالة للنفس تولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، وكلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

**(وأما الرجاء)** فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة فذًا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة.

**(وأما الحياء)** فباستشعاره النقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظم حق الله عز وجل، ويقوي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وميلها ألى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء، فهذه أسباب هذه الصفات، وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع الأسباب الإيمان واليقين.

## بيان الدواء النافع في حضور القلب

أعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظماً لله عز وجل وخائفاً وراجياً له ومستحيياً من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كان قوتها

بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكـر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجـاة والغفلة عن الصلاة، ولا يلهي عن الصـلاة إلا الخـواطـر الـواردة الشـاغلة، فـالـدواء في إحضـار القلب هـو دفـع تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه.

وسبب موارد الخواطر: إما أن يكون أمراً خـارجاً، أو أمـراً باطنـاً. أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه وينصـرف فيه ثم تنجـر منه الفكـرة إلى غيره ويتسلل ويكـون الإبصـار سببـاً للافتكار، ومن قويت نيته وعلت همتـه لم يلهه مـا جرى عـلى حواسـه، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكرة، وعـلاجه قـطع هذه الأسبـاب بأن يغض بصره أولاً، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسـع مسافـة بصره، ويحتـرز من الصلاة عـلى الشوارع وفي المـواضع المنقوشة وعلى الفرش المصبوغة.

وأما الأسباب الباطنة فهي أشـد، فإن من تشعبت بـه الهموم في أوديـة الدنيا لم ينحصر فكـره في فن واحد بـل لا يزال يـطير من جانب إلى جـانب، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقـرؤه في الصلاة ويشغلهـا به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبـل التحريم بـأن يجدد عـلى نفسه ذكـر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وتعالى وهو المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسـه شغلاً يلتفت إليـه خاطره.

فـإن كان لا يسكن هـائج أفكـاره بهذا الـدواء المسكن، فلا ينجـه إلا المسهـل الذي يقمـع مـادة الـداء من أعمق العـروق، وهـو أن ينـظر الأمـور الصـارفة عن إحضـار القلب، ولا شك أنها إنمـا صارت مهمـات بشهواتـه، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهـوات وقطع تلك العـلائق، كما ورد أنـه ﷺ لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نـزعها بعـد

صلاته، وقال ﷺ: «اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي وائتوني بانبجانية أبي جهم»[1].

وقد روى عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امريء تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله[2]. وله في حديث أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»[3].

وكان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط، وصلى يوماً في الحجر[4]. فجاء حجر قذافة[5]. فذهب ببعض ثوبه فما انفتل.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن بشار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدمها، وإنه لفي المسجد يصلي فما التفت. ولما هنىء بسلامته عجب وقال: ما شعرت بها. وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!

وقال ابن عباس: ركعتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

---

(١) بكسر الباء وقيل بفتحها كساء منسوب إلى منبج بكسر الباء مدينة من أعمال حلب بسورية رواه البخاري ومسلم.

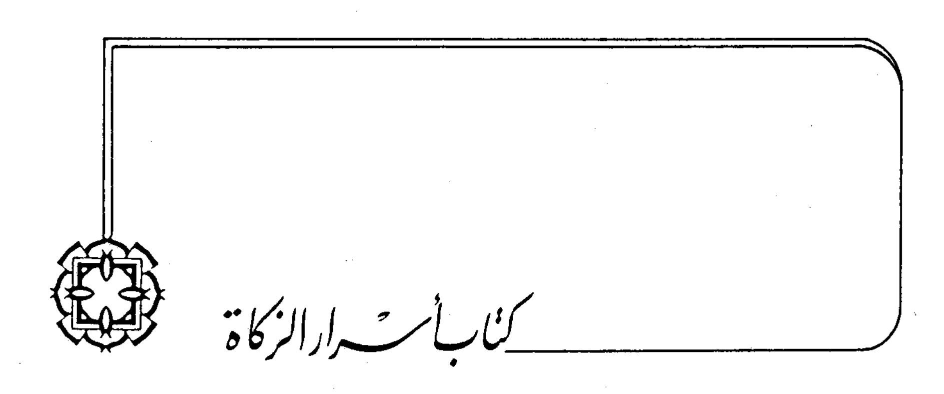
(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه بنحوه أحمد وسنده صحيح (مم).

(٤) الحجر: حطيم الكعبة.

(٥) القذافة: المنجنيق.





# كتاب أسرار الزكاة

جعل الله تعالى الزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ (النور: ٥٦) وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤) لإنفاق في سبيل الله إخراج لزكاة، قال الأحنف بن قيس: كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر فقال: بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكي في أقفائهم يخرج من جباههم. ولهذا التشديد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة ومعانيها الظاهرة والباطنة.

## سر كون الزكاة من مباني الإسلام

في ذلك معانٍ (**الأول**) أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم،

ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١) وذلك بالجهاد، وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمسامحة بالمال أهون.

ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم نزلوا عن جميع أموالهم، فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً، كما جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بجميع أمواله. وقسم دون هؤلاء، وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة.

وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد. قال الشعبي بعد أن قيل له: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله عز وجل: ﴿وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ الآية﴾ (البقرة: ١٧٧) واستدلوا بقوله عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣) وبقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ (البقرة: ٢٥٤) فهو في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة.

والقسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينتقصون منه وهي أقل المراتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة.

(المعنى الثاني) التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتياداً، والزكاة بهذا المعنى طهرة، أي تطهر صاحبها من

خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر إخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

**(المعنى الثالث)** شكر النعمة فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال، وما أخس من ينظر إلى الفقير، وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

## وظائف المزكي

**(الأولى)** التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوق عن الخيرات، وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب. ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغتنم، فإن ذلك لمة الملك وما أسرع تقلب المؤمن، والشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والمنكر وله لمة عقيب لمة، فليغتنم الفرصة فيه.

**(الوظيفة الثانية)** الإسرار، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة. قال تعالى: ﴿**وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾(البقرة: ٢٧١) وقد بلغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي، فكان بعضهم يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي، وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه، كل ذلك توصلاً إلى رضاء الرب واحترازاً من الرياء والسمعة، ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله.

**(الثالثة)** أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء، ويحرس سره من داعية الرياء. فقد قال تعالى: ﴿**إِنْ تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا**

هِيَ﴾ (البقرة: ٢٧١) حيث يقتضي الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق، ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾ (فاطر: ٢٩) ندب إلى العلانية أيضاً لما فيه من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال.

**(الرابعة)** أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤) والمن أن يذكرها ويتحدث بها أو يستخدمه بالعطاء أو يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن يظهرها أو يعيره بالفقر أو ينتهره أو يوبخه بالمسألة، وأصل المن أن يرى نفسه محسناً إلى الفقير ومنعماً عليه، وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عزوجل منه الذي هو طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهناً به، فحقه أن يتقلد منه الفقير، ومهما عرف المعاني الثلاثة التي مر ذكرها في الفصل قبل، لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد.

وأما الأذى فمنبعه رؤيته أنه خير من الفقير، وهذا جهل لأنه لو عرف فضل الفقراء العاملين الصابرين وخطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تمنى درجته، كيف وقد جعله الله متجرة له حتى يخلصه من عهدته بقبوله منه.

**(الخامسة)** أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها، والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال، قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره.

**(السادسة)** أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه، فإن الله تعالى طيب لا يتقبل إلا طيباً، وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب، إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو أهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أراداً طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، وقد قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ**﴾ (البقرة: ٢٦٧) أي لا تأخذونه إلا مع كراهية وحياء، وهو معنى الإغماض.

**(السابعة)** أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة، ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوصها، وهي ستة.

**(الأولى)** أن يطلب الأتقياء لأنهم يستعينون بالمال على التقوى فيكون شريكاً لهم في طاعتهم بإعانته إياهم.

**(الثانية)** أن يكون من أهل العلم خاصة، فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية، وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم، فقيل له: لو عممت، فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعم أفضل.

**(الثالثة)** أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه وأن الواسطة مسخر بتسخير الله إذ سلط عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى، ومن لم يصف باطنه من رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي، فليتق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه.

(الرابعة) أن يكون مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التحمل قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ أي لا يلحفون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم. وهذا ينبغي أن يطلب بالبحث عن أهل الدين في كل محلة، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

(الخامسة) أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو سبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٣) أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة، أو إصلاح قلب ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف. فبهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها، وكان ﷺ يعطي العطاء على مقدار العيلة. وسئل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال، وقلة المال.

(السادة) أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى. قال علي رضي الله عنه: «لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهماً» والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب، فليراع هذه الدقائق. فهذه هي الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى.

## وظائف القابض وهي أربعة

(الأولى) أن يفهم أن الله عز وجل أوجب صرفه إليه ليكفي همه ويكون عوناً له على الطاعة، فإن استعان به على المعصية كان كافراً لأنعم الله

عز وجل مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه.

(الثانية) أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة، ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1] وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها نحو قوله تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤) إلى غير ذلك، وقال ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[2] ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه، ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه، فوظيفة المعطي الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام، وعلى كل عبد القيام بحقه، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة فقد جهل، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً!

(الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حله تورع عنه فلا يأخذ ممن أكثر كسبه من الحرام، إلا إذا ضاق الأمر عليه، وكان ما يسلم له لا يعرف له مالكاً معيناً، فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به، وذلك إذا عجز عن الحلال.

(الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه، فلا يأخذ إلا المقدار المباح، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذ مالاً كثيراً بل يتمم كفايته من

---

(١) رواه الترمذي وحسنه، ولأبي داود وابن حبان نحوه وقال: حسن صحيح. ورواه أحمد، وهو حديث جيد (مم).

(٢) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بلفظ «من صنع» قاله العراقي.

وقت أخذه إلى سنة، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن رسـول الله ﷺ ادخر لعياله قوت سنة[١]، ومن العلماء من ذهب إلى أن للفقير أن يأخذ مقدار مـا يشتري بـه ضيعة فيستغني بـه طول عمـره، أو يهيىء بضاعـة ليتجـر بهـا ويستغني، لأن هـذا هو الغنى، وقـد قال عمـر رضي الله عنـه: إذا أعـطيتم فأغنوا، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم. ولما تبرع أبو طلحة رضي الله عنـه ببستانـه قال له ﷺ: «اجعله في قرابتك فهو خير لك» فـأعطاه حسّـان وأبا قتـادة، فحائط من نخل لرجلين كثير مغن[٢].

## صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

## فضيلة الصدقة

من الأخبار قوله ﷺ: «اتقوا النـار ولو بشق تمـرة فإن لم تجـدوا فبكلمة طيبة»[٣] وقال ﷺ: «كل امرىء في ظـل صدقتـه حتى يقضي بين النـاس»[٤] وقال ﷺ: «صدقـة السر تطفيء غضب الـرب عز وجـل»[٥] وسئل ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصـدق وأنت صحيح شحيـح تأمـل الغنى وتخشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفـلان كذا ولفـلان كذا، وقـد

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عمر رواه الإمام أحمد في المسند بلفظ: قال رسول الله ﷺ: تصدقوا. قال رجل: عندي دينار. قال تصدق به على نفسك. قال: عندي دينار آخر. قال: تصدق به على زوجك. قال: عندي دينار آخر. قال: تصدق به على ولدك. قال عنـدي دينار آخر. قال: تصدق به على خادمك. قال: عندي دينار آخـر. قال: أنت أبصر بـه. وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى.

(٢) روى نحوه الدارمي وسنده جيـد.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وإسناده صحيح.

(٥) رواه الطبراني جزءاً من حديث وإسناده حسن وله شواهد (مت).

كان لفلان»[1]، وقال ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمتان إنما المسكين المتعفف، اقرؤا إن شئتم: (لا يسألون الناس إلحافاً)[2].

ومن الآثار قول عروة: لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع، وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون على أولي الحاجة منا.

## صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثة أحب إليه من ماله؟ قالوا: يارسول الله: مامنا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر».

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بعدل ثمرة من طيب كسب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه[3] حتى تكون مثل الجبل».

وأما أفضل الصدقة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

(٣) أي المهر الصغير. وقيل: من أولاد ذوات الحافر.

كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان» أخرجاه في «الصحيحين».

## وجوب إخفاء الصدقة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٧١) وفي الإخفاء خمسة معان:

(**الأول**) أنه أبقى للستر على الآخذ، فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة وكشف عن الحاجة، وخروج عن هيئة التعفف، والتصون المحبوب هو الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

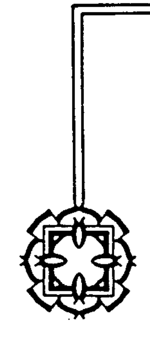
(**الثاني**) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء. والحسد وسوء الظن، والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى، قال أيوب السختياني: إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسد، وقال آخر: خشية أن يقول إخواني من أين له هذا.

(**الثالث**) إعانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر، والإعانة على اتمام المعروف معروف، دفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله، فقيل له في ذلك، فقال: إن هذا عمل بالأدب في إخفاء معروفة، فقبلته وذلك أساء أدبه في عمله فرددته عليه. ورد بعضهم ما دفع إليه علانية، وقال له: إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى، ولم تقنع بالله عز وجل، فرددت عليك شركك.

(**الرابع**) إن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً[1]، وليس للمؤمن أن يذل نفسه. نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق.

---

(١) من أجل هذا كله وحرصاً على عزة المؤمن الفقير أوجب الإسلام دفع زكاة الأموال الظاهرة كالمواشي والحبوب إلى الدولة المسلمة، وهي بدورها توزعها على المحتاجين.



# كتاب أسرار الصوم

أعظم الله على عبادة المنة بما دفع عنهم كيد الشيطان وخيب ظنه، إذ جعل الصوم حصناً لأوليائه وجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) فقد جاوز أم جاوز ثواب الصوم قانون التقدير والحساب، وناهيك في معرفة فضله قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يقول الله عز وجل: إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، فالصوم لي وأنا الذي أجزي به»[١] وهو موعود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه قال ﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه»[٢] وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) كان عملهم الصيام لأنه قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغاً ويجازف جزافاً، فلا يدخل تحت وهم وتقدير.

وجدير بأن يكون كذلك، لأن الصوم إنما كان له ومشرفاً بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له، لمعنيين (أحدهما) أن الصوم كف وترك، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد، وجميع الطاعات بمشهد من الخلق

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ومرأى، والصوم لا يراه لا الله عز وجل، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد (والثاني) أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان الشهوات، وإنما تقوى بالأكل والشرب، وفي قمع عدو الله نُصرة الله سبحانه، ونصر الله تعالى موقوف على النصرة له، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧) فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جُنة، وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه وأركانه الباطنة.

## شروط الصوم الباطنة

هي ستة أمور: **(الأول)** غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى.

**(الثاني)** حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء.

**(الثالث)** كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، لأن كل ما حُرم قوله حرم لإصغاء إليه؛ ولذلك سوى الله عز وجل بين السمع وأكل السحت فقال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

**(الرابع)** كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام: فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصراً. وقد قال ﷺ «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»[1] فقيل: هو الذي يفطر على الحرام، وقيل: هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام، وقيل: هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

(١) رواه الدارمي بنحوه، وسنده جيد (مم).

(**الخامس**) أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال. وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن يدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الطعام فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا منعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها. ثم أطعمت من اللذات وأشبعت، زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعثت من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها. فروح الصوم ومره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل إلا بالقليل، ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عن الملكوت محجوب!

(**السادس**) أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه، فهو من المقربين. أو يرد عليه، فهو من الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة.



عز وجل ابراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج نادى: «يا أيها الناس إن الله عزوجل بنى بيتاً فحجوه» وقال ﷺ: «من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1] وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى أن صدقة درهم في مكة بمائة ألف ـ وكذلك كل حسنة بمائة ألف، ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات، ولما عاد رسول الله ﷺ إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «إنك لخير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلي ولولا أني أخرجت منك لما خرجت»[2].

وما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ، فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[3] وبعد مدينته: القدس: فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة[4] وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور، فإن المقام بها للمرابطة فيها فضل عظيم ـ ولذلك قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[5] لأن المساجد بعد هذه المساجد متماثلة، ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر!

---

ويقيناً أن المسلمين لو فهموا هذه الأهداف والمنافع للحج وعمدوا إلى تحقيقها لها بهم المستعمرون وما تجرؤوا على الاعتداء عليهم...

وما أروع ما قاله أحد الساسة: «لقد وقفت أمام الكعبة، وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام، ثم وجدتني أقول في نفسي: يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج، يجب الا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة الدخول فحسب...» فالوعي أيها المسلمون!

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكرى وابن ماجه وابن حبان وإسناده صحيح (مم).

(٣ و ٥) رواه البخاري ومسلم.

(٤) بل بمئتين وخمسين صلاة كما صح ذلك في حديث.

# زيارة المدينة وآدابها

من قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً، وليتطيب ويلبس أنظف ثيابه، فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً ويقصد المسجد ويصلي فيه بجنب المنبر ركعتين، ثم يأتي قبر النبي ﷺ فيقف عند وجهه[1].

وليس من السنة أن يمس الجدار وأن يقبله! فإن المس والتقبيل للمشاهدة عادة النصارى واليهود! بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول:[2] السلام عليك يارسول الله، السلام عليك يانبي الله، السلام عليك ياأمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك ياصفوة الله، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك ياسيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يارسول رب العالمين، السلام عليك ياقائد الخير، السلام عليك يافاتح البر، السلام عليك يانبي الرحمة، السلام عليك ياهدي الأمة، السلام عليك وعلى أهل بيتك وأصحابك الطيبين.

جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، وصلى عليك أفضل وأكمل ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة، وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم، ثم يسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم يسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول: السلام عليكما ياوزيري رسول الله ﷺ والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً، والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره، وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ما جزى وزيري

---

(١) رواه البخاري..

(٢) لا يلزم استقبال القبلة عند السلام على النبي ﷺ إنما يتوجب استقبالها عند الدعاء له ﷺ، كما صح ذلك عن الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى، فانتبه!



# طريق الاعتبار بأعمال الحج الباطنة والتذكر لأسرارها ومعانيها

في كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر إذا انفتح بابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وغزارة فهمه، وقد شرف الله البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، يقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت خضوعاً لجلاله مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم.

وفي الإحرام والتلبية إجابة نداء الله عز وجل، وفي دخوله مكة تذكر الانتهاء إلى حرم الله، فليخش أن لا يكون أهلاً للقرب وليرج الرحمة، وفي مشاهدة البيت إحضار عظمة البيت إحضار عظمة البيت ورب البيت في القلب وشدة تعظيمه إياه.

وفي الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله وما القصد طواف الجسم فحسب بل طواف القلب بذكر الرب، وفي التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت، وتبركاً بالمماسة والإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه، المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو عنه.

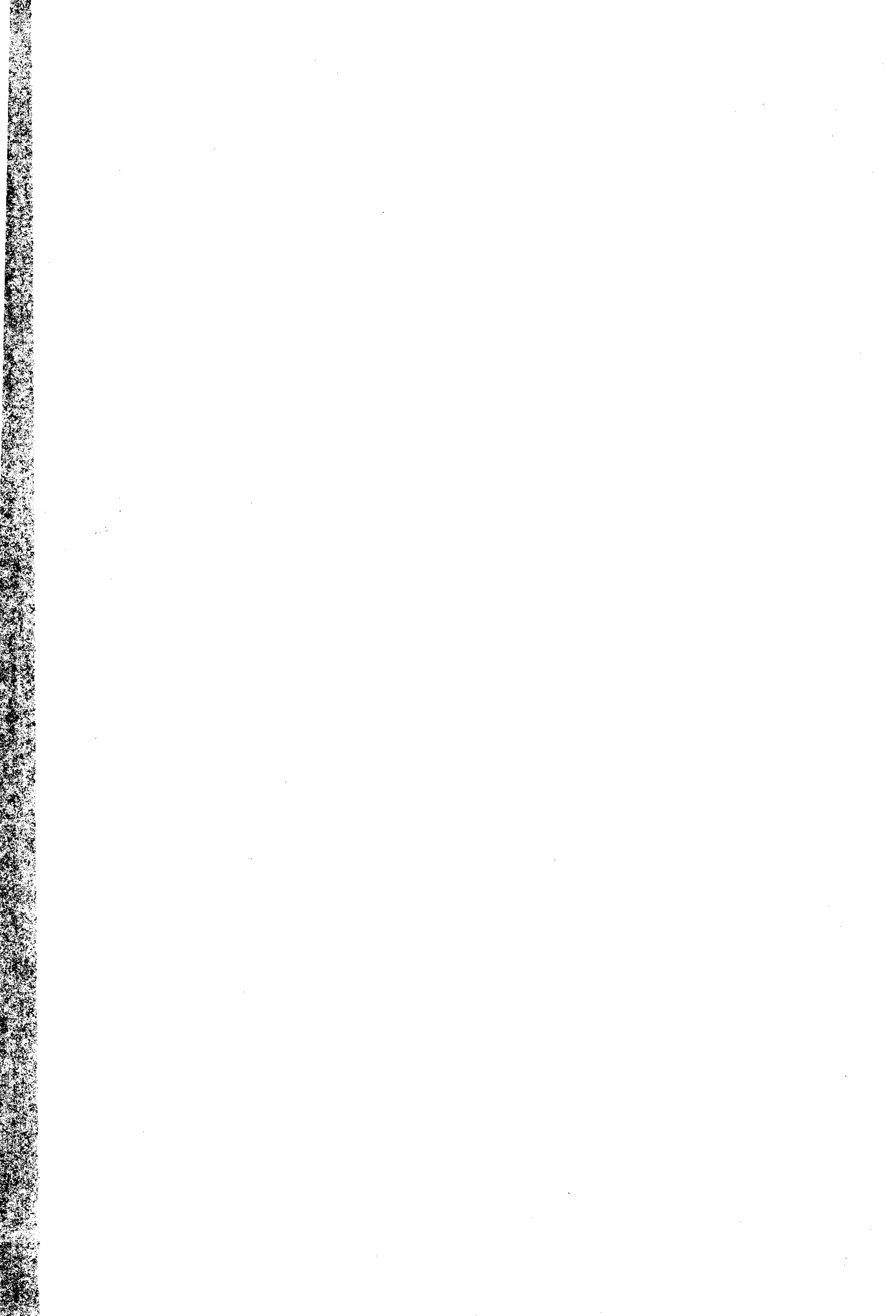
وفي السعي بين الصفا والمروة مضاهاة تردد العبد بفناء الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد. فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى، يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى.

وفي الوقوف بعرفة ورؤية ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات باختلاف اللغات تذكر اجتماع الأمم في عرصات القيامة، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول، وفي تذكر ذلك إلزام القلب الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل، ورجاء الحشر في زمرة الفائزين المرحومين وتحقيق الرجاء بالإجابة، فالموقف شريف، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب النقية، ولا ينفك الموقف عن طبقات من الصالحين وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إليه أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم.

وفي رمي الجمار انقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وقصد رمي وجه الشيطان وقصم ظهره.

وفي زيارة المدينة ومشاهدتها تذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه ﷺ وجعل إليها هجرته، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عزوجل وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل، وأنها البقعة التي اختارها الله سبحانه لنبيه ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة، وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك البقعة، وأنها جمعت أفضل الخلق حياً وميتاً ﷺ، وشرف وكرم.





المجاهدين بأعظم الثواب والأجر، فمن الآيات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ. وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٧ ـ ١٥٨).

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠).

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلآخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ٧٤).

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِي حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ (الأنفال: ٦٥).

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلاَ بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩).

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٤١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤).

## (الأحاديث النبوية)

عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللّه ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠) «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» رواه مسلم.

وعنه قال: سمعت رسول اللّهﷺ يقول: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى رواه مسلم.

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرج رسول اللّه ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق فقال: ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً. وأنا مع بني فلان ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم، فقال: «مالكم»؟!» قالوا: كيف نرمي، وأنت مع فلان؟! قال: «إرموا وأنا معكم كلكم» رواه البخاري.

وعن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن اللّه تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله[١].

لا سبق إلّا في نصل، أو خف، أو حافر رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وإسناده صحيح (مم).

عن جابر بن سمرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة. رواه مسلم.

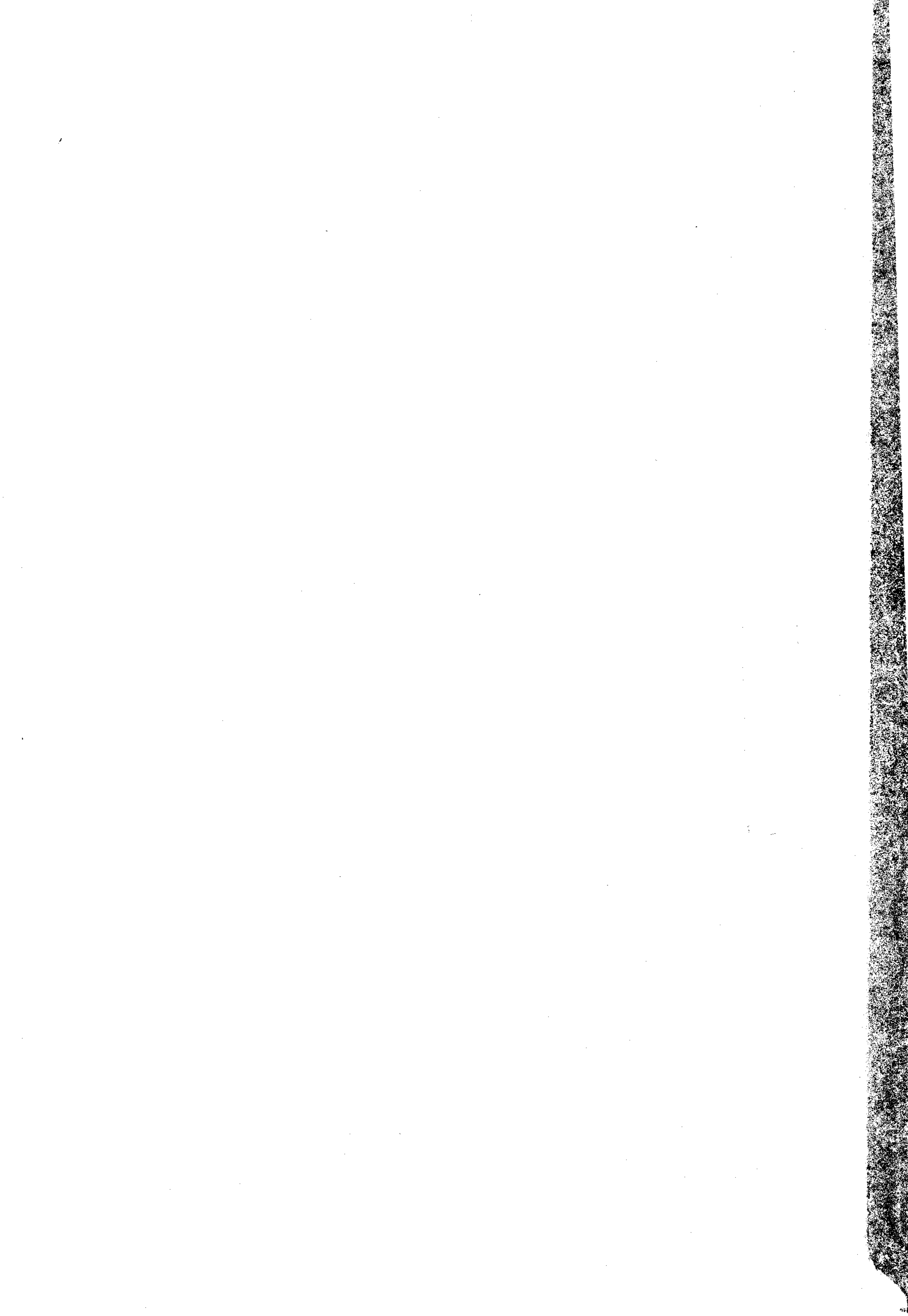
عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: لا يكلم أحد في سبيل اللّه، واللّه أعلم بمن يكلم[٢] في سبيله، إلّا جاء يوم القيامة، وجرحه يثعب[٣].

---

(١) سنده ضعيف.

(٢) من الكلم وهو الجرح.

(٣) يجري متفجراً أي نَبيراً.





﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُواْ، ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨). وأرشد المسلمين إلى منتهى الرحمة.

فهم حينما يقاتلون لا يعتدون ولا يفجرون ولا يمثلون ولا يسرقون ولا ينتهبون الأموال ولا ينتهكون الحرامات ولا يتقدمون بالأذى، فهم في حربهم خير محاربين كما أنهم في سلمهم أفضل مسالمين.

عن بريدة رضي اللّه عنه قال: «كان رسول اللّه ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللّه تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: إغزوا باسم اللّه في سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، إغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه» أخرجه البخاري ومسلم.

وعن عبد اللّه بن يزيد الأنصاري رضي اللّع عنه قال: «نهى رسول اللّه ﷺ عن النهب والمثلة» أخرجه البخاري.

كما ورد النهي عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والإجهاز على الجرحى وإهاجة الرهبان والمنعزلين ومن لا يقاتل من الآمنين، فأين هذه الرحمة من غارات المتمدنين الخانقة وفظائعهم الشنيعة؟ وأين قانونهم الدولي من هذا العدل الرباني الشامل؟

اللهم فقه المسلمين في دينهم وأنقذ العالم من هذه الظلمات بأنوار الإسلام.

## الجهاد الأكبر

شاع بين كثير من المسلمين أن قتال العدو هو الجهاد الأصغر وأن هناك جهاداً أكبر هو جهاد النفس وكثير منهم يستدل لذلك بما يروى: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب أو جهاد النفس».

وبعضهم يحاول بهذا أن يصرف الناس عن أهمية القتال والإستعداد له ونية الجهاد والأخذ في سبيله، فأما هذا الأثر فليس بحديث على الصحيح، قال أمير المؤمنين في الحديث، الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: (هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة).

وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر[1].

وما أروع ما جاء في كتاب النجوم الزاهرة (٢/١٠٣) إذ قال:

روى الذهبي أن ابن المبارك لما كان مرابطاً بطرسوس سنة سبع وسبعين ومئة أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| يا عابد الحرمين لو أبصرتنا | لعلمت أنك في العبادة تلعب |
| من كان يخضب خده بدموعه | فنحورنا بدمائنا تتخضب |
| أو كان يتعب خيله في باطل | فخيولنا يوم الصبيحة تتعب |
| ريح العبير لكم ونحن عبيرنا | وهج السنابك والغبار الأطيب |
| ولقد أتانا من مقال نبينا | قول صحيح صادق لا يكذب |
| لا يستوي غبار خيل اللّه في | أنف امريء ودخان نار تلهب |
| هذا كتاب اللّه ينطق بيننا | ليس الشهيد بميت لا يكذب |

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح.

## الإسلام والحرب النفسية

لقد اكتشفت في العصور الحديثة الحرب النفسية وآثارها العظيمة في كسب النصر، كسباً يفوق كسب كثرة الجنود ووفرة الأعتدة في المعارك.

وتكون هذه الحرب النفسية كما عرفها بعض القادة باستخدام المخطط

---

(١) نقلنا المباحث الثلاثة السابقة من «رسالة الجهاد».

المنظم للدعاية، والتفنن بأساليب حيلها وخداعها، ومختلف أنواع النشاطات التي تستهدف التأثير على آراء وعواطف ومواقف، وسلوك دولة معادية، عن طريق بث أفكار ومعلومات معينة، بطريقة تحقق الغاية من الخطة الدعائية المرسومة، ومن معجزات القرآن العظيم ودلائل رسالة النبي ﷺ ما ورد فيه الإشارات والمخططات العديدة في استخدام هذه الحرب النفسية في تقوية معنويات الجنود المسلمين، وخذلان جنود الأعداء، مما كان له آثاره العظيمة في كسب النصر في معارك عديدة على الرغم من قلة عدد المسلمين وندرة أعتدتهم العسكرية.

ولما كان بحثنا لا يسمح لنا بتفصيل بحث الحرب النفسية، فنكتفي بذكر مثال واحد.

قال تعالى في القرآن: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾. (الأنفال: ٤٣ و٤٤).

وكان ذلك قبل معركة بدر من أجل تشجيع كل من الخصمين على خوض الحرب والرغبة في القتال، وذلك من أجل تحقيق وعد اللّٰه سبحانه للمؤمنين بالنصر.

وهذا كله قبل الإلتحام، فلما التحم الفريقان إنعكس الأمر في بعضه فأرى اللّٰه المشركين المؤمنين أنهم مثلاهم ليرعبهم ويفتت من عزيمتهم القتالية ويبث فيهم أفكاراً إنزامية إستسلامية.

فقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (آل عمران: ١٣).

ومما ذكره القرآن العظيم بصدد معركة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ،

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ٩ و١١).

وهذا الوعد الإلهي بمدد الملائكة كان له أثر عظيم في تقوية معنويات المسلمين، خاصة وقد ناموا قليلاً قبل المعركة فارتاحوا واستعدوا لها، بعد أن اغتسلوا وتطهروا، وكل ذلك يزيد في صبرهم على القتال كما تقول الأصول الحربية وفي هذا درس للقادة.

وحتى لا يخوضوا بجنودهم حرباً إلاّ إذا كانوا مرتاحين نظيفين، وكل ذلك يقوي من معنوياتهم ويزيدهم قوة إلى قوتهم.

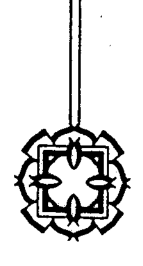
وبمناسبة الكلام على الحرب النفسية لا بد من الإشارة إلى أن دول العالم اليوم تستخدم في هذه الحرب جميع الوسائل غير المشروعة بتشجيع مظاهر الإنحلال الخلقي الممكنة عند العدو كالزنى والخمر والأفيون وغيرها. والإسلام يبرأ إلى اللّه تعالى من استخدام شيء من ذلك. إنه مقاتل شريف نبيل في جهاده، إنساني في فعاله.

ويكتفي بقتوية معنويات جنوده وشل إرادة عدوهم ويحل من عزيمتهم فلا يقوون على استعمال السلاح، وهذا ما قاله أحد القادة في العصر الحديث «إننا نستهلك كمية كبيرة من الذخيرة الغالية لندمر مدفعاً واحداً من مدافع العدو، أليس الأفضل والأرخص أن نستعمل الدعاية كوسيلة أخرى لشل الأصابع التي تضغط على زناد هذا المدفع[1]؟!».

* * *

(١) بحيث الجهاد هذا مضاف إلى «الاحياء» كما ذكرنا في المقدمة.





# كتاب آداب تلاوة القرآن

قد امتن الله على عباده بنبيه المرسل، وكتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى اتسع على أهل الافتكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم، بما فصل فيه من الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور، وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما في الصدور، من تمسك به فقد هدي، ومن عمل به فقد فاز، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف، إستدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه. والحافظة على ما أمر به من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة وذلك ما لا بد من بيانه وتفصيله.

## فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١] وقال ابن مسعود: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين، وقال عمرو بن العاص: من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلاّ أنه لا يوحي إليه.

---

(١) رواه البخاري. وهناك أحاديث كثيرة في فضائل القرآن العظيم نذكر منها **﴿لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه** سورة البقرة﴾ رواه مسلم.

وقد جاء في ذم تلاوة الغافلين قول أنس: «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه» وقال ابن مسعود «أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به» وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول: (ألا لعنة اللَّه على الظالمين) وهو ظالم نفسه، (ألا لعنة اللَّه على الكاذبين) وهو منهم.

## ظاهرة آداب التلاوة

**(الأدب الأول في حال القاريء)** وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكيء ولا جالس على هيئة التكبر، فإن قرأ على غير وضوء أو كان مضطجعاً في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك، قال اللَّه تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** فأثنى على الكل، ولكن قدم القيام في الذكر، ثم القعود ثم الذكر مضطجعاً.

**(الثاني في مقدار القراءة)** وللقراءة عادات مختلفة، في الإستكثار[١] والاختصار، والمأثور عن عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي اللَّه عنهم أنهم كانوا يختمون القرآن في كل جمعة يقسمونه سبعة أحزاب.

**(الثالث الترتيل)** هو المستحب في هيئة القرآن لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكير، والترتيل معين عليه، قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما:

---

(١) لقد ورد النهي عن ختم القرآن بأقل من ثلاثة أيام ليتسنى للقاريء تدبره فقد قال النبي ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه» رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي، وإسناده صحيح (مم).

لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إليَّ من أن أقرأ القرنَّ كله هذرمة وجلي أن الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والإستعجال.

**(الرابع)** البكاء وهو مستحب مع القراءة، ومنشؤه الحزن، وذلك أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي.

**(الخامس)** أن يراعي حق الآيات، فإذا مر به سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي.

**(السادس)** أن يقول في مبتدإ قراءته: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح[1] وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مر بمرجو سأل، أو بمخوف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه.

**(السابع)** الإسرار بالقراءة أبعد عن الرياء والتصنع، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش على مصل، فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأنه يوقظ قلب القاريء ويجمع همه إلى الفكر فيه ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ويزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل.

**(الثامن)** تحسين القراءة وترتيلها من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة، وفي الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] وفي آخر: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3] فقيل: أراد به الإستغناء، وقيل أراد به الترنم والترتيل وهو

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم عن النبي ﷺ مع اختلاف لفظ.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي وإسناده صحيح (مم).

(٤) رواه البخاري.

أقرب عند أهل اللغة، واستمع ﷺ إلى قراءة أبي موسى فقال «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»[1] وورد أن أصحاب رسول اللّه ﷺ كانوا إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن.

## أعمال الباطن في التلاوة: وهي سبعة

**(الأول)** فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل اللّه سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في إيصال كلامه إلى أفهام خلقه.

**(الثاني)** التعظيم للمتكلم، فالقاريء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، فبالتفكير في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم، ثم تعظيم الكلام.

**(الثالث)** حضور القلب وترك حديث النفس والتجرد له عند قراءته، وصرف الهم عن غيره: كان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس لا يغفل عنه، وفي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره.

**(الرابع)** التدبر، وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره، والمقصود من القرآن التدبر، ولذلك سن في الترتيل، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من

---

(١) رواه البخاري ومسلم. والمراد بالمزامير هنا الأصوات الجميلة لا المعازف فهي محرمة كلها.

التدبر بالباطن. قال علي رضي اللّه عنه: «لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها» وإذا لم يتمكن من التدبر إلّا بترديد فليردد إلّا أن يكون خلف إمام، وصح أن النبي ﷺ قام ليلة بآية يرددها[1].

(الخامس) التفهم، وهو أن يستوضح عن كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات اللّه عز وجل وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء وأحوال المكذبين لهم، وكيف أهلكوا؛ وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار. أما صفات اللّه عز وجل فكقوله: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾** وكقوله تعالى: **﴿ٱلْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ العَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾** فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات ليستكشف له أسرارها، وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات اللّه عز وجل، إذ الفعل يدل على الفاعل، فتدل على عظمته.

فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل: **﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾** **(الواقعة)** فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها.

فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى أعجب العجائب وهو الصنعة التي منها صدرت، فلا يزال ينظر إلى الصنعة ويرى آثار الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها أنهم كذبوا وضربوا وقتل بعضهم، ثم سمع نصرتهم في آخر الأمر فهم قدرة اللّه عز وجل وإرادته

---

(١) وهي **﴿إن تعذبهم، فإنهم عبادك، وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح كما قال العراقي.

لنصرة الحق، وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه.

(السادس) التخلي عن[1] موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، ومن حجب الفهم أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام اللّه عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأني تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان ممن كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس!

(السابع) التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن تعتبره وتأخذ من بضاعته ما تحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلاّ وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠) فليقدر العبد أن اللّه ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر اللّه تعالى.

وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول اللّه ﷺ خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر اللّه تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ قال محمد القرظي: من بلغه القرآن فكأنما علمه اللّه. وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه

---

(١) في الأصل المختصر مواقع. وهو تحريف. والتصحيح من الأصل الأول.

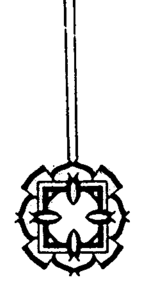
كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. وذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات وننفذها في الطاعات.

**(الثامن)** التأثر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة، بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلاّ مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ**﴾ ثم اتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿**لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ**﴾ (طه: ٨٢) وقوله تعالى: ﴿**وَالعَصْرُ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّـالِحَاتِ وَتَـوَاصَوْاْ بِـٱلحَقِّ وَتَوَاصَـواْ بِٱلصَّبْـرِ**﴾ (سورة العصر) ذكر أربعة شروط.

وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَـرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٦) فالإحسان يجمع الكل، وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره. ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن وإلاّ كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: ﴿**أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ**﴾ (هود: ١٨) وفي قوله تعالى: ﴿**كَبُـرَ مَقْتاً عِنـدَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُـواْ مَـا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ (الصف: ٣) وفي قوله: ﴿**فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الحَيَـاةَ الدُّنْيَـا**﴾ وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ**﴾ (الحجرات: ١١) إلى غير ذلك من الآيات، فالقرآن يتلى للعمل به.

وأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب: فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل - وحظ العقل تفسير المعاني - وحظ القلب الإتعاظ والتأثر بالإنزجار والائتمار فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.





# كتاب الأذكار والدعوات

## فضيلة الذكر

من الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢) وقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٤١). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩١) وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣) وقال ابن عباس: أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية: وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾. (النساء: ١٤٢).

ومن الأخبار قوله ﷺ: «يقول اللّه عز وجل: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[١] وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل فقال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر اللّه عز وجل»[٢] وقال ﷺ «قال اللّه تبارك وتعالى: «إذا

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة (ر) ورواه الحاكم من حديث أبي الدرداء (ر)، وقال صحيح الاسناد.

(٢) رواه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ. ورواه الترمذي بنحوه، وقال حديث حسن صحيح.

وإيراد اللسان في هذا الحديث وغيره دليل على أن الذكر في القلب وحده ليس بذكر ـــ

ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملإٍ يذكرته في ملإٍ خير من ملئه، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً»[1] الحديث.

ومن الآثار قول الحسن: الذكر ذكر اللَّه عز وجل بين نفسك وبين اللَّه عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره - وأفضل من ذلك ذكر اللَّه سبحانه عند ما حرم اللَّه عز وجل.

## فضيلة مجالس الذكر

قال رسول ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون اللَّه عز وجل إلّا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم اللَّه تعالى فيمن عنده»[2].

## فضيلة التهليل

وقال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلّا اللَّه وحده لا شريك له، وقال ﷺ «من قال لا إله إلّا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مئة مرة كانت له عدل عشر وقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة»[3] الحديث.

## فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال ﷺ: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد ثلاثاً وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وختم المئة بلا إله إلّا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله

---

= وحديث «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي» غير صحيح. في سنده راوٍ فيه مقال كما جاء في كتاب «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب».

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم. ومن معاني الذكر طلب العلم وتذكر أوامر اللَّه ونواهيه.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه»[1] وقال ﷺ: «من قال سبحان اللّه وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياه»[2] وقال ﷺ: «أحب الكلام إلى اللّه تعالى أربع: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر ولا يضرك بأيهن بدأت»[3] وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزات حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم»[4].

## فضيلة الدعاء

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ (البقرة: ١٨٦) وقال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف: ٥٥) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيّاً مَا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠) وقال ﷺ «الدعاء مخ العبادة»[5]

## آداب الدعاء وهي عشرة

**(الأول)** أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٨).

**(الثاني)** أن يغتنم الأحوال الشريفة: كحال زحف الصفوف في سبيل اللّه،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) ضعيف فيه ابن لهيعة، وهو سيء الحفظ. والصحيح فيه لفظ الحديث: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي أي عن دعائي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، وخلف الصلوات وبين الأذان والإقامة، وحالة السجود، وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة، ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة اللّه عز وجل.

**(الثالث)** أن يدعو مستقبل القبلة: ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطه[1].

**(الرابع)** خفض الصوت بين المخافتة والجهر. قالت عائشة في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ أي بدعائك قال أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه: قدمنا مع رسول اللّه ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي ﷺ: يا أيها الناس أربعوا بأنفسكم ﴿**أي أرفقوا بها، وأخفضوا أصواتكم**﴾ إن الذي تدعون ليس أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً.. الحديث رواه البخاري وأبو داود على اختلاف في الرواية. وقد أثنى تعالى على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً**﴾ (مريم: ٣) وقال تعالى: ﴿**ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٥).

**(الخامس)** أن لا يتكلف السجع في الدعاء. والأولى ألا يجاوز الدعوات المأثورة، فإنه يعتدي في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحة. فما كل أحد يحسن الدعاء.

**(السادس)** التضرع والخشوع والرغبة والرهبة. قال تعالى: ﴿**ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٥).

**(السابع)** أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه قال ﷺ: «لا

---

(١) صح ذلك من فعله ﷺ في غزوة بدر فقط.

يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»[1] وقال ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن اللّه لا يتعاظمه شيء»[2] وقال ﷺ: «إدعوا اللّه وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن اللّه عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل»[3].

**(الثامن)** أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً وأن لا يستبطيء الإجابة.

**(التاسع)** أن يفتتح الدعاء بذكر اللّه تعالى، ولا يبدأ بالسؤال، ثم يصلي على النبي ﷺ ويختتم بها أيضاً[4].

**(العاشر)** وهو الأدب الباطن: وهو الأصل في الإجابة - التوبة ورد المظالم، والإقبال على اللّه عز وجل بكنه الهمة - فذلك هو السبب القريب في الإجابة، عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه استسقى بالعباس رضي اللّه عنه (أي بدعائه) فلما فرغ عمر، قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب، ولم يكشف إلّا بالتوبة، وأنت الراعي، لا تهمل الضالة، ولا تدع الكثير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روح اللّه إلّا القوم الكافرون. قال: فما تم كلامه حتى ارتفعت السحب في السماء مثل الجبال.

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والنسائي عن أنس وإسناده صحيح (مج).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي والحاكم وإسناده صحيح (مج).

(٤) هذا خاص بالدعاء في القعود الأخير في الصلاة لحديث: «سمع رسول اللّه ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد اللّه تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ فقال: «عجل هذا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه جل وعز والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء» رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. ولا مانع من فعل ذلك في الأدعية الأخرى إلّا أنه ليس بشرط واجب فيها، ودليل ذلك ما نراه من أدعية القرآن والسنة.

# فضيلة الصلاة على النبي ﷺ

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦) وقال ﷺ: «من صلى علي من أمتي كتب له عشر حسنات»[١] وقيل يا رسول اللَّه: كيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٢] وكان عمر رضي اللَّه عنه سمع بعد موت رسول اللَّه ﷺ يبكي ويقول: بأبي وأمي أنت يا رسول اللَّه، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب، فقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾.

بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه لئن كان موسى أعطاه اللَّه حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى اللَّه عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لئن كان سليمان أعطاه اللَّه الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فماذا بأعجب من البراق حين سرت عليها إلى السماء السابعة، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى اللَّه عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه اللَّه إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية، فقالت لك الذراع:

---

(١) ولفظ الحديث عند النسائي: «من صلى علي صلاة واحدة صلى اللَّه عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات» صححه الحاكم ووافقه الذهبي وسنده صحيح (مم).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

لا تأكلني فإني مسمومة، بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلاّ القليل، ولقد لبست الصوف، وركبت الحمار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعاً منك فصلى اللّه عليك وسلم.

## فضيلة الاستغفار

قال اللّه عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (النساء: ١١٠) وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: ١٧)، وقال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات:١٧و١٨)وكان ﷺ يكثر أن يقول:سبحانك اللهم وبحمدك اللهم أغفر لي، إنك أنت التواب الرحيم»[١].

وقال ﷺ: «إني لأستغفر اللّه تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»[٢] وكان ﷺ يقول في الاستغفار: «اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[٣] وعن الفضيل رحمه اللّه: إستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة (ر) أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه دون قوله: إنك أنت التواب الرحيم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

## سيد الإستغفار

قال النبي ﷺ: اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء (أقر) لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. وقال: «ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة. ومن قالها من الليل، وهو موقن بها فمات بها قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»(١).

## آداب النوم

**(الأول)** الطهارة والسواك **(الثاني)** أن يعد طهوره وسواكه وينوي القيام للعبادة عن التيقظ **(الثالث)** أن لا يبيت من له وصية إلاّ ووصيته مكتوبة عند رأسه **(الرابع)** أن ينام تائباً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصية إن استيقظ **(الخامس)** أن يقتصد في تمهيد الفرش الناعمة **(السادس)** أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلف استجلابه إلاّ إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل **(السابع)** أن ينام مستقبل القبلة **(الثامن)** الدعاء عند النوم بما ورد، ومن قراءة الإخلاص والمعوذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وما تيسر من جسده، وآية الكرسي والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير كذلك **(التاسع)** أن يتذكر عند النوم أن النوم وفاة والتيقظ نوع بعث؛ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه من حب اللّه وحب لقائه، أو حب الدنيا ويحشر على ما يتوفى عليه **(العاشر)** الدعاء عند التنبيه وليقل أولاً: الحمد للّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

كذلك، قالت عائشة رضي اللّه عنها كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح

---

(١) رواه البخاري.

صلاته، قال: « «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١]، ثم يفتتح الصلاة ويصلي ركعتين خفيفتين، ثم يصلي مثنى مثنى ما تيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر، وكان ربما جهر بالقراءة وربما أسر، وأكثر ما صح عنه في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة[٢].

## بيان أن الأوراد للمتجرد للعبادة

إعلم أن الأوراد والأذكار المروية والوظائف الليلية والنهارية، إنما تستحب للمتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً بحيث لو ترك العبادة لجلس بطالاً، وأما العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات وروابتها، ويدل على ذلك ما ذكرناه في فضيلة التعلم والتعليم في كتاب العلم، وكيف لا يكون كذلك، وفي العلم المواظبة على ذكر اللّٰه تعالى، وتأمل ما قال اللّٰه وقال رسوله، وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة، ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً، وأما العامي والمتعلم فحضوره مجالس العلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد، وكذلك المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب، لكن ينبغي ذكر اللّٰه تعالى في صناعته.

---

(١) رواه الطبراني والحاكم وسنده حسن (مج).

(٢) قالت عائشة: «ما كان رسول اللّٰه ﷺ يزيد في رمضان وغيره على ثلاث عشرة ركعة» رواه البخاري ومسلم وأبو داود. وقد ورد الدعاء المذكور في الرقم واحد ويشرع في صلاة الفريضة أيضاً.

# فضيلة قيام الليل

من الآيات قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦) وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٩) وقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰماً﴾ (الفرقان: ٦٤) وقوله سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ﴾(الذاريات: ١٧- ١٨- ١٩) ومن الأخبار قال المغيرة بن شعبة: قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أما قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر! فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً[١] (الآثار) ورد عن عمر (ر) كان يمر بالآية من ورده بالليل، فيسقط حتى يعاد منها أياماً كثيرة كما يعاد المريض. وكان ابن مسعود (ر) إذا هدأت العيون، قام فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح. ويقال إن سفيان الثوري رحمه الله تعالى شبع ليلة، فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله! فقال تلك الليلة، وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة، ثم يثب ويصلي ثم يقول: طيَّر ذكر جهنم نوم العابدين. وقال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب، فيحرم به قيام الليل. وقال رجل لبعض الحكماء: إني لأضعف عن قيام الليل. فقال له: يا أخي لا تعص الله تعالى بالنهار، ولا تقم بالليل.

وكان للحسن بن صالح جارية، فباعها من قوم، فلما كان في جوف الليل قامت الجارية، فقالت: يا أهل الدار! الصلاة الصلاة. فقالوا: أأصبحنا؟ أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلون إلاّ المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: بعتني من قوم لا يصلون إلاّ المكتوبة، ردني فردها وقال مالك بن دينار: سهوت ليلة عن وردي، ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما

---

(١) رواه البخاري.

يكون وفي يدها رقعة، فقال لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إليّ الرقعة فإذا فيها:

ألهتك اللذائذ والأماني عن البيض الأوانس في الجنان؟
تعيش مخلداً لا موت فيها وتلهو في الجنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيراً من النوم التهجد بالقرآن

قال أحد الصالحين:

منع القرآن بوعده ووعيده مُقَل العيونِ بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وأنشد غيره:

يا طويل الرقاد والغافلات كثرة النوم تورث الحسرات
إن في القبر إن نزلت به لرقاداً يطول بعد الممات
ومهاداً ممهداً لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك المو ت وكم نال أمناً ببيات

## الأسباب المسهلة لقيام الليل

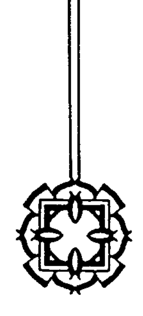
منها أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام، ومنها أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها مفيدة للإستعانة على قيام الليل، ومنها أن يعرف فضل قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان، ومنها وهو أشرف البواعث الحب للَّه وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلاّ وهو مناج به ربه وهو مطلع عليه، فإذا أحب اللَّه تعالى أحب لا محالة الخلوة[1] به، وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة للحبيب على طول القيام.

(١) راجع بحث الخلوة في هذا الكتاب.

وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي. وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وقال بعضهم: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلاّ ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها اللّه تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم، وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلاّ ثلاث: قيام الليل[1] ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة.

---

(١) ومهما كان من فضيلة وثواب قيام لليل فلا يجوز قيامه كله حرصاً على صحة المسلم، وإبقاء على قدرته ليعمل ويجاهد. ولم يكن من هدية ﷺ قيام الليل كله. وقد صح عنه: «... أما والله! إني لأخشاكم للّه، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني الحديث» رواه البخاري.



# كتاب آداب الأكل والدعوة والضيافة

إن اللّه تعالى أحسن تدبير الكائنات، فخلق الأرض والسموات، وأنزل الماء الفرات من المعصرات؛ فأخرج به الحب والنبات وقدر الأرزاق والأقوات، وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات؛ فشكراً له على مر الأوقات.

ولما كان مقصد ذوي الألباب لقاء اللّه تعالى في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقائه إلّا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليها إلّا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلّا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف: إن الأكل من الدين، وعليه نبه قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُواْ صَالِحاً﴾. (المؤمنون: ٥١) وها نحن أولاء نرشد إلى وظائف الدين في الأكل: فرائضها وآدابها.

## بيان ما لا بد للأكل من مراعاته ـ وهو ثلاثة أقسام

## القسم الأول في الآداب المتقدمة على الأكل ـ وهي خمسة

**(الأول)** أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبه، موافقاً للسنة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا يحكم

هوى ومداهنة في دين، وقد أمر اللّه تعالى بأكل الطيب وهو الحلال، وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل تفخيماً لأمر الحرام، وتعظيماً لبركة الحلال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ٢٩) وقـوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ فالأصـل في الطعام كونه طيباً، وهو من الفرائض وأصول الدين.

(الثاني) غسل اليد لأنها لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال، فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة[1].

(الثالث) أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة اللّه تعالى ليكون مطيعاً بالأكل، ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلاّ وهو جائع، فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل. ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب.

(الرابع) أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام.

(الخامس) أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو أهله وولده. فإن خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي كما في الحديث الصحيح.

## القسم الثاني في آدابه: حالة الأكل

وهو أن يبدأ ببسم اللّه في أوله وبالحمد في آخره، ويجهر ليذكر غيره، ويأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها، وما لم يبتلعها لا يمد اليد إلى الأخرى، فإن ذلك عجلة في الأكل، وأن لا يذم مأكولاً، كان ﷺ لا يعيب مأكولاً كان إذا أعجبه أكله وإلاّ تركه[٣]، وأن يأكل مما يليه[٣] ولا يضع على

---

(١) وهي سنة نبوية صحيحة من فعله ﷺ (مج) وتنقذ فاعلها من كثير من الأمراض الناجمة من دخول الجراثيم إلى داخل الفم عن طريق اليد القذرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) حديث كان يأكل ﷺ مما يليه رواه البخاري ومسلم.

الخبز قصعة ولا غيرها إلّا ما يؤكل به، ولا يمسح يده بالخبز، ولا ينفخ في الطعام الحار بل يصبر إلى أن يسهل أكله، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق، ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه، ثم يلقيها وكذا كل ماله عجم وتفل، وأن لا يترك ما استرذله من الطعام، ويطرحه في القصعة بل يتركه مع التفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله، وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلّا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه.

(وأما الشرب) فأدبه أن يأخذ الإناء بيمينه ويقول «بسم اللّه» وبشربه مصاً، لا عباً ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً، وينظر في الإناء قبل الشرب، ولا يتجشأ ولا يتنفس في الإناء بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرد بالتسمية، والإناء وكل ما يدار على القوم يدار يمنة، وقد شرب رسول اللّه ﷺ لبناً وأبو بكر رضي اللّه عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه فناول الأعرابي وقال: الأيمن فالأيمن[1]، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد اللّه في آخرها ويسمي اللّه في أولها.

## القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع، ثم يغسل يديه ويتخلل ويرمى المخرج بالخلال، وأن يشكر اللّه تعالى بقلبه على ما أطعمه، فيرى الطعام نعمة منه قال اللّه تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٧٢) فإن أكل طعام الغير فليدع: اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم، أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة[3] وليكثر الإستغفار والحزن على ما أكل من شبهة، ويستحب عقيب

---

(١) رواه البخاري ومسلم. وفي رواية: «الايمنون، الايمنون، الا فيمنوا» وكم حل هذا الأدب النبوي من مشكلات. وقد حاول بعضهم تأويله بالتقديم لرئيس القوم ثم من على يمينه، ولا حجة لهم بذلك، وهو لا يحل المشكلة. فقد يكون في القوم شخصيتان كبيرتان.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسنده حسن (مج).

الطعام أن يقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا»[1].

## آداب الاجتماع على الأكل

(الأول) أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلّا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به، فيحنئذ ينبغي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له.

(الثاني) أن لا يسكتوا على الطعام ولكن يتكلمون بالمعروف.

(الثالث) أن يرفق برفيقه في القصعة، فلا يقصد أن يأكل زيادة عما يأكله، فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً، بل ينبغي أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين في دفعة إلّا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم، فإن قلل رفيقه نشطه ورغبه في الأكل، وقال له: كل، ولا يزيد في قوله: كل على ثلاث، فإن ذلك إلحاح وإضجار - فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع!

(الرابع) أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كل أو يتفقده في الأكل، بل يحمل عن أخيه مؤنة ذلك. ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتيه لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع، بل يجري على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً في الوحدة، ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع نعم لو قلل من أكله إيثاراً لإخوانه، ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن وإن زاد في الأكل على نية المساعدة، وتحريك نشاط القوم في الأكل فهو أحسن.

(الخامس) إن غسل اليد في الطشت لا بأس به، قال أنس: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها. روي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية

---

(١) رواه مسلم.

الضرير، فصب الرشيد على يده في الطشت، فلما فرغ قال: يا أبا معاوية أتدري من صب على يدك؟ فقال لا، قال: صبه أمير المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك اللّه وأكرمك كما أجللت العلم وأهله. وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي اللّه عنهما في أول نزوله عليه، وقال: لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض.

**(السادس)** أن ينظر إلى أصحابه، ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم، ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها، ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعاً للخجل عنهم.

**(السابع)** أن لا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل فقد يكرهه غيره، واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمسها في المرقة والخل، ولا يتكلم بما يكره من المستقذرات.

## فضل تقديم الطعام إلى الإخوان وآدابه

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير، قال علي رضي اللّه عنه: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليّ من أن أعتق رقبة. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه وكانوا رضي اللّه عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلاّ عن ذواق. وكان خيثمة رحمه اللّه يضع الخبيص والطعام الطيب، ويدعو إخوانه ويقول: «كلوا! فما صنعته إلاّ لكم».

**(وأما آدابه)** فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام ـ أما الدخول فليس من ألسنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم، فيدخل

عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجـأة، وقد نهي عنـه. وقال اللّه تعـالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ (الأحزاب: ٥٣) يعني منتظرين حينه ونضجه.. أمـا إذا كان جـائعاً فقصـد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به، وفيه إعانة لأخيه على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف، فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه، فله أن يأكل بغير إذنـه، إذ المراد من الإذن الرضاء لا سيما في الأطعمة وأمرها على السعة، فرب رجـل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، ورب غائب لم يأذن وأكل طعامـه محبوب، وقـد قال تعـالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ (النـور: ٦١) قال الحسن: الصـديق من استـروحت إليـه النفس واطمـأن إليـه القلب. وكـان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجـدون بغير إذن، فكان الحسن يدخل ويرى ذلـك فيسر به ويقـول: هكذا كنـا. ومشى قوم إلى منـزل سفيان الثـوري، فلم يجدوه، ففتحـوا البـاب وأنـزلـوا السفـرة وجعلوا يأكلون، فدخل الثوري وجعل يقول: ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا.

(وأمـا آداب التقـديم) فتـرك التكلف أولاً، وتقـديم مـا حضر. كـان الفضيل يقول: إنما تقاطـع الناس بالتكلف، يدعـو أحدهم أخـاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه. ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم. قال بعضهم: دخلنا على جابر رضي اللّه عنه، فقدم لنا خبزاً وخلا وقال: لولا أنانهينا عن التكلف لتكلفت لكم[1] قال أبـو وائل: مضيت مـع صاحب لي نـريد سليمـان، فقدم لنـا خبز شعـير وملحاً جـريشاً. فقـال صاحبي: لو كان في الملح سعتر كان أطيب، فخرج سليمـان فرهن مـطهرتـه

---

(١) أرى أن التكلف المنهي عنه هو ما يعجز عنه المسلم ويشق عليه، فيضطره إلى الحرج أو الإستقراض، وهل يليق بصاحب البيت أن يقدم لضيوفه وخاصة إذا جاؤوه من سفر حساء كان أعده لنفسه بسبب مرضه؟ إن إكرام الضيف من الإيمان لقوله: ﷺ: من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه.. الحديث رواه البخاري ومسلم.

وأخذ سعتراً، فلما أكلنا، قال صاحبي: الحمد للّٰه الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سليمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة!!.

**(الأدب الثاني)** وهو للزائر أن لا يقترح، ولا يتحكم بشيء بعينه، فربما يشق على المزور إحضاره، فإن خيَّره أخوه بين طعامين، فليختر أيسرهما عليه، فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكرره له الاقتراح. قال بعضهم: الأكل على ثلاثة أنواع: مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالإنبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب.

**(الأدب الثالث)** أن يشهي المزور أخاه الزائر، ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن، وفيه أحر وفضل جزيل، فقد نزل الشافعي رحمه اللّٰه تعالى على الزعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر فلما علم الزعفراني اشتد فرحه.

**(الأدب الرابع)** أن لا يقول له: هل أقدم لك طعاماً؟ بل ينبغي أن يقدم فإن أكل وإلاّ فليرفعه.

## (مسائل)

**(الأولى)** رفع الطعام على المائدة فيه تيسير ليكل فلا كراهة فيه، بل مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم، وما يقال إنه بدعة فجوابه أنه ليس كل ما أبدع منهياً، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة، وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، وليس في المائدة إلاّ رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل ونحوه مما لا كراهة فيه **(الثانية)** الأكل والشرب متكئاً[1] مكروه مضر للمعدة، ومثله الأكل مضطجعاً ومنبطحاً **(الثالثة)** السنة البداءة بالطعام قبل الصلاة. وفي

(١) وجاء في النهاية ما ملخصه: الإتكاء: التمكن في الجلوس وفيه حديث: «كان يجلس القرفصاء» رواه الطبراني وسنده حسن (مج).

الحديث: «إذا حضر العشاء والعشاء فابدؤوا بالعشاء»[1]، وكان ابن عمر رضي اللَّه عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه.

## بيان ما يخص الدعوة والضيافة

### فضيلة الضيافة

قال رسول اللَّه ﷺ «من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه[2]، وسئل رسول اللَّه ﷺ ما الإيمان؟ قال: «إطعام الطعام وبذل السلام» وقال ﷺ في الكفارات والدرجات: «إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام»[3].

**(أما الدعوة)** فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق، قال ﷺ: «أكل طعامك الأبرار»[4] وفي الأثر: لا تأكل إلاّ طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي[5] ولا يتصر على الأغنياء خاصة، بل يضم معهم الفقراء. قال ﷺ: «شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويحرم منها الفقراء»[6] وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل

---

(١) رواه مسلم بلفظ: «إذا حضر العشاء والعشاء (بالفتح) وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء (بالفتح).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد.

(٤) وتمامه: وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون» رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسنده حسن (مج).

(٥) ولفظ الحديث: «لا تصاحب إلاّ مؤمناً ولا يأكل طعامك إلاّ تقي» رواه الترمذي وأبو داود والدارمي، وسنده حسن (مم).

(٦) رواه البخاري ومسلم.

استمالة قلوب الإخوان وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب، وينبغي أن لا يدعو إلّا من يحب إجابته.

**(وأما الإجابة)** فهي سنة مؤكدة، وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع، ولها خمسة آداب:

**(الأول)** أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه.

**(الثاني)** أن لا يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجلها.

**(الثالث)** لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل، وذلك في صوم التطوع، وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق. فثوابه فوق ثواب الصوم، ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والحديث الطيب.

**(الرابع)** أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام شبهة، أو كان يقام في الموضع منكر[1]، أو كان الداعي ظالماً، أو فاسقاً، أو مبتدعاً أو متكلفاً طالباً للمباهاة والفخر.

---

(١) قال الشيخ جمال الدين القاسمي: عد الغزالي من المنكر: فرش الحرير والتصوير على الحيطان وسماع المزامير، وعندي أن المنكر الذي يحظر الحضور معه ويتعين إنكاره هو ما اتفق على إنكاره وأجمع عليه، فما لم يطبق الفقهاء على تحريمه فلا يكون منكراً ولا ينسب مقره إلى الفسق، هذا فراش الحرير جوز الحنفية الجلوس عليه، والتصوير على الحيطان سوغه المالكية، وسماع المزامير ذهب إليه ابن حزم وكثير من أتباع الأئمة المشهورين وصنفت فيه مؤلفات ــ

(الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، فيكـون عامـلاً في أبواب الدنيا، بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عامـلاً للآخـرة، فينوي الاقتـداء بسنة رسول الله ﷺ، وإكرام أخيه المؤمن وزيـارته، ليكـون من المتحابـين في الله وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه، ويطلق اللسـان فيه بأن يحمل على تكبر، أو سوء خلق، أو استحقار أخ مسلم أو ما يجري مجراه، وكـان بعض السلف يقول: أنـا أحب أن يكون لي في كـل عمل نيـة حتى في الطعام والشراب، فإن المباح يلتحق بوجوه الخيرات بالنية.

(وأما الحضور) فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع[1] ولا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعـداد، ولا يضيق المكان عـلى الحاضـرين بالـزحمـة، بـل إن أشـار إليـه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة، فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحـد[2]، فمخالفتـه تشوش عليـه، ولا يجلس في مقـابلة بـاب الحجـرة التي للنساء وسترهن، ولا يكثر النظر إلى الموضع الـذي يخرج منـه الطعـام، فإنـه دليـل على الشـره، ويخص بالتحيـة والسؤال من يقـرب منـه إذا جلس، وإذا دخـل ضيـف للبيت فليعرفـه صـاحب المنـزل عنـد دخـولـه القبلة وبيت المـاء وموضع الوضوء، وأن يغسل صاحب المنزل يده قبل القوم وقبل الطعام، لأنه يدعو الناس إلى كرمه، ويتأخر في آخر الطعام عنهم، وعـلى الضيـف إذا دخل

---

= معروفة، فأني يكون هذا من المنكر، فالذي أراه في المنكـر أنه المجمـع على تحـريمه حتى شـرط الفقهاء في إنكار المنكر أن يكون مجمعاً عليه، نعم التورع والاحتياط وتـرك ما يـريب إلى ما لا يريب باب آخر فيه حسم للشبهة قلت: رحم الله تعالى الشيخ القاسمي على هذا الخطأ، فإن أئمـة المذاهب (رضي الله عنهم) أسـرى بيد الشـريعة ـ كـما قال الشعـراني ـ فـلا يحللون ولا يحرمون عند وجود النص من قرآن أو سنة. وقد وجدت الأحاديث صريحة في تحريم مـا ذكره. ولعل القائلين بعدم الحرمة هم من متأخري الفقهاء ولا حجة لهم، ولذلـك يبقى كلام الإمـام الغزالي الذي علق عليه الشيخ القاسمي هو الصواب!

(١) ويجلس حيث انتهى به المجلس كما كان هديه ﷺ كما ثبت في الحديث الصحيح.

(٢) هذه عادة أعجمية لا يقرها الإسلام!

فرأى منكراً أن يغيره إن قدر، وإلا أنكر بلسانه وانصرف.

**(وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة)**: **(الأول)** تعجيل الطعام، فذلك من إكرام الضيف، ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان، وتأخروا عن الوقت الموعود، فحق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير، وأحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ**﴾، (الذاريات: ٢٤) أنهم أكرموا بتعجيل الطعام، ودل عليه قوله تعالى: ﴿**فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**﴾[1] (هود: ٦٩) وقوله: ﴿**فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾ (الذاريات: ٢٦) والروغان: الذهاب بسرعة، وقيل: في خفية. قال حاتم الأصم: العجلة من الشيطان إلا في خمسة، فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر[2]، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب.

**(الثاني)** ترتيب[3] الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً وإن كانت، فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى: ﴿**وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ**﴾ (الواقعة: ٢) ﴿**وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ**﴾ ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد، فإن جمع إليه حلاوة بعده، فقد جمع الطيبات، ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم، إذ أحضر العجل الحنيذ، أي المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه وهو أحد معنيي الإكرام، أعني تقديم اللحم. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: أكل الطيبات تورث الرضاء عن الله، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل، قال المأمون: شرب الماء بثلج يخلص الشكر. وقال بعضهم:

---

(١) أي مشوي.

(٢) إذا جاءها الكفء وهو التقي، وإلاّ فلا ضرورة للتعجيل.

(٣) لا أظن هذا واجباً، وخاصة أن الواو لا تفيد الترتيب.

الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألـوان، وتزيـين المائـدة بالبقـول مستحب أيضاً.

**(الثالث)** أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفي منها من يريـد، ولا يكـثر الأكل بعـده، وعادة المترفـين تقـديم الغليظ ليستـأنف حـركـة الشهـوة بمصـادفة اللطيف بعـده، وهو خـلاف الأولى فإنـه حيلة في استكثـار الأكـل، ويحسن أن يقدم جميع الألوان دفعة أو يخبر بما عنده.

**(الـرابع)** أن لا يبـادر إلى رفع الألـوان قبل تمكنهم من الاستيفـاء حتى يرفعوا الأيـدي عنها، فلعـل منهم من يكون بقيـة ذلك اللون أشهى عنـده مما استحضروه، أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنغص عليه بالمبادرة.

**(الخامس)** أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليـل عن الكفايـة نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع. قال ابن مسعـود رضي اللّه عنه: نهينـا أن نجيب دعـوة من يباهي بـطعامـه، وكره جمـاعة من الصحـابة أكـل طعـام المباهاة، وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه، فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم، وتنطلق في الضيفـان ألسنتهم!

**(فأما الانصراف فله ثلاثـة آداب)**: **(الأول)** أن يخرج مـع الضيـف إلى باب الدار وهـو سنة وذلـك من إكرام الضيـف. وتمـام الإكرام طـلاقة الـوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

**(الثـاني)** أن ينصرف الضيـف طيب النفس وإن جـرى في حقـه تقصـير فذلك من حسن الخلق والتـواضع **(الثـالث)** أن لا يخرج إلا بـرضاء صـاحب المنزل وإذنه. ويراعي قلبه في قدر الإقامة، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام[1] فربما يتبرم بـه ويحتاج إلى إخـراجه. نعم لـو ألح رب البيت عليـه عن

---

(١) وفي ذلـك حديث: «من كـان يؤمن باللّه واليـوم الآخر فليكـرم ضيفه، جـائـزتـه يـوم وليلة، ــ

خلوص قلب فله المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش لضيف[1] ينزل به.

## آداب متفرقة

**(الأول)** حكي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الأكل في السوق دناءة. ونقل عن بعض السلف فعله، ووجه الجمع أنه يختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص، فمن لا يليق ذلك به لحاله أو عادة بلاده كان شرهاً وقلة مروءة، ومن فلا حرج[2].

**(الثاني)** قال بعض الأطباء: لا تنكح من النساء إلا فتاة؛ ولا تأكل من اللحم إلا فتياً؛ ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه، ولا تشربن دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها؛ ولا تأكلن طعاماً إلا أجدت مضغه، ولا تشربن فوق طعام، ولا تحبس البول والغائط، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

**(الثالث)** يستحب أن يحمل الطعام إلى أهل الميت. ولما جاء نعي جعفر ابن أبي طالب قال عليه الصلاة والسلام: «إن آل جعفر وشغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون»[3] فذلك سنة، وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه.

---

= والضيافة ثلاثة أيام، وما بعد ذلك فصدقة، ولا يحق له أن يثوي عنده حتى يحرجه» رواه البخاري ومسلم ومعنى يحرجه يوقعه في الحرج ويضيق صدره عليه.

(١) الحديث: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان» رواه أحمد وأبو داود عن جابر، وسنده صحيح (مج).

(٢) السلف هم القدوة والحجة وقد أخطأ النخعي رحمه الله تعالى في قوله: ومراعاة عادات الآخرين، فإن ذلك قد يسبب تعطيل الشرع، والوقوع في الإثم، ولعله اعتمد في ذلك على حديث في هذا الموضوع، ولكنه ضعيف كما قال الحافظ العراقي.

(٣) وهذا لفظ الحديث كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم: «أصنعوا لآل جعفر طعاماً، =

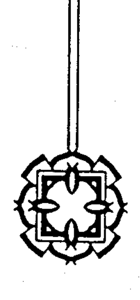
(الرابع) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقلل الأكل.

## تتمة

حكي أن بعضهم كان يمتنع عن إجابة الدعوة ويقول: انتظار المرقة ذل! وقال: إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي، وقد أنكر بعضهم هذا الكلام، وقال: هذا خلاف السنة. قال اغزالي: وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد بها منة، وكان يرى ذلك يداً له على المدعو، ورسول اللّه ﷺ كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلد منة ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة - فهذا يختلف باختلاف الحال. فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام، وأنه يفعل ذلك مباهاة أو تكلفاً فليس من السنة إجابته بل الأولى التعلل. ولذلك قال بعض أهل الفضل: لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه، فإذا علم المدعو أنه لا منة في ذلك فلا ينبغي أن يرد.

---

= فإنه قد أتاهم ما يشغلهم» وسنده حسن (مج)، وأين هذه السنة الكريمة المطهرة من بدعة صنع آل الميت اليوم الطعام للناس بعد دفن ميتهم مما يتنافى مع الشرع ومع الذوق السليم، فالآكلون آثمون وخاصة إذا كان في الورثة أيتام كما يأثم آل البيت أيضاً على الرغم من تكلفهم النفقات والأتعاب لمخالفتهم أمره ﷺ.



# كتاب آداب النكاح

## الترغيب فيه

قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ الأَيَامَىٰ[1] مِنكُمْ﴾ (النور: ٣٢) وهذا أمر وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ[2]﴾ (البقرة: ٢٣٢) وهذا منع من العضل ونهي عنه، وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجاً وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨) فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل ومدح كذلك أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان: ٧٤) وأما الأخبار فقوله ﷺ: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني»[3] وقال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[4]. هذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج. والوجاء: هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته مستعار للضعف عن

(١) جمع أيم: وهي من ليس لها زوج بكراً كانت أو ثيباً. أو من ليس له زوجة.

(٢) أي لا تمنعوهن بما لكم عليهن من ولاية من أن يتزوجن ممن يرغبهن أزواجاً إذا كانوا أكفاء أي اتقياء.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن، ومثله في الحض على الزواج والتشجيع عليه: «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق اللّه في النصف الباقي» وهو حسن لطرقه.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

الوقاع بالصوم، وقال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1] وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف الفساد، وقال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

**(وأما الآثار)** فقال ابن عباس رضي اللّه عنه: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. يحتمل أنه جعله من النسك أو تتمة له، أو أراد أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج، ولا تيم النسك إلا بفراغ القلب. وكان يجمع غلمانه لما أدركوا ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم فأن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه. وقال عمر (رضي اللّه عنه) لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور!

**(وأما فوائد النكاح** فخمسة: الولد وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن.

## ما يراعي من أحوال المرأة

الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده هي: الدين، والخلق، والحسن، وخفة المهر، والولادة، والبكارة[3]، والنسب.

**(الأولى)** أن تكون صالحة ذات دين: فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها، أزرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه، وشوشت بالغيرة قلبه، وتنغص بذلك عيشة فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء، وإن سلك سبيل

---

(١) رواه الترمذي وهو حديث حسن (مم).

(٢) رواه مسلم.

(٣) ليست البكارة أمراً لا بد منه! بل الأحسن إذا تيسر...

التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة. وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية مخالفاً لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ (التحريم: ٦) وإن أنكر وخاصم تنغص العمر ـ ولهذا بالغ رسول الله ﷺ في التحريض على ذات الدين فقال: «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين تربت يداك»[١].

**(الثانية)** حسن الخلق: فإنها إن كانت سليطة بذئية اللسان كافرة للنعم، كان الضرر منها أكثر من النفع، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء.

**(الثالثة)** حسن الوجه، فذلك أيضاً مطلوب إذ به يحصل التحصن، والطبع لا يكتفي بالدميمة غالباً، وما نقلناه من الحث على الدين ليس زجراً عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين. فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين، ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الإلفة والمودة تحصل به غالباً، وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الإلفة، ولذلك استحب النظر فقال: «إذا أوقع الله في نفس أحدكم فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما»[٢] أي يؤلف بينهما. وكان بعض[٣] الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرر، وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم! وروي أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه[٤] فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا حسبناه

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بلفظ: إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل» رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وإسناده حسن (مج).

(٣) ليس هذا من الورع فحسب، بل من الواجب المحتم للحديث السابق.

(٤) الخضاب السواد هو المنهي عنه فقط لحديث صحيح ورد في ذلك.

شاباً فأوجعه عمر ضرباً، وقال: غررت القوم! والغرر يقع في الجمال والخلق جميعاً، فيستحب إزالة الغرر في الجمال بالنظر، وفي الخلق بالوصف والاستيصاف، ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن، لا يميل إليها فيفرط في الثناء، ولا يحسدها فيقصر، وقل من يصدق فيه، بل الخداع والإغواء أغلب، والاحتياط فيه مهم.

**(الرابعة)** أن تكون خفيفة المهر: فقد نهي عن المغالاة في المهر، وتزوج بعض الصحابة على نواة من ذهب يقال (كانت) قيمتها خمسة دراهم[1]، وزوج سعيد بن المسيب ابنته من عبد الله بن أبي وداعة[2] على درهمين ثم حملها هو إليه ليلاً فأدخلها من الباب ثم انصرف ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها، وقال السلف: من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها أي الولادة ويسر مهرها وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل، ولا ينبغي أن ينكح طمعاً في المال، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدي ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه ـ وكذلك إذا أهدوا إليه، فنية طلب الزيادة نية فاسدة، وداخلة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: ٦) أي تعطي لتطلب أكثر.

---

(١) إن التغالي في المهور محرم وقد أدى إلى مفاسد كثيرة وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: «ألا لا تغالوا بصداق النساء!! فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند اللّه، لكان أولاكم بها نبي اللّه ﷺ، ما علمت رسول اللّه ﷺ نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية» رواه أحمد والترمذي والنسائي» وهو حديث صحيح (سم).

ولا صحة لقصة المرأة التي ردت على عمر بآية: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فهي مردودة سنداً ومتناً والمراد من الآية إذا دفع الزوج لزوجته مالاً بملء اختياره ثم حاول رده فليس له ذلك إما أن تشترط المرأة ذلك مهراً لها فليس لها ذلك، وهو حرام! للنهي عن التغالي في المهور.

(٢) في نسخة «موعظة المؤمنين» أبو هريرة (رضي اللّه تعالى عنه) وقد رجعت إلى أصل «الاحياء» فوجدته كذلك، وهو خطأ غريب!.

(**الخامسة**) أن تكون المرأة ولوداً: فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها.

(**السادسة**) أن تكون بكراً: قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نكح ثيباً: (هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك)[1].

(**السابعة**) أن تكون نسيبة: أعني أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربي بناتها وبنيها، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية.

(**ويجب**) على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزوج ولينظر لكريمته، فلا يزوجها ممن ساء خُلُقه أو خَلْقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لم يكافئها في الدين ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر، فقد جني على دينه، وتعرض لسخط اللّه لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار، قال رجل للحسن: قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها؟ قال: ممن يتقي اللّه فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

## آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق والنظر فيها على الزوج والزوجة

(**أما الزوج**) فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً: في الوليمة، والمعاشرة، والدعابة، والسياسة، والغيرة، والنفقة، والتعليم، والقسم، والتأديب في النشوز والوقاع، والولادة، والمفارقة بالطلاق.

(**الأدب في الوليمة**). قال أنس رضي اللّه عنه: رأى رسول اللّه ﷺ على عبد الرحمن بن عوف رضي اللّه عنه أثر صفرة، فقال ما هذا؟ فقال ازوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال بارك اللّه لك، أو لم ولو

---

(١) من حديث طويل رواه النسائي وسنده صحيح (مم).

بشـاة[1]. وأولم رسول اللَّه ﷺ عـلى صفية بتمـر وسويق[2]. وتستحب تهنئتـه فيقول من دخل على الزوج: بـارك اللَّه لك، وبـارك عليك، وجمـع بينكما في خـير[3] ويستحب إظهار النكـاح. قال عليـه السلام: «فصـل ما بـين الحلال والحرام الدف والصوت»[4].

**(الأدب الثـاني حسن الخلق معهن)** واحتمـال الأذى منهن، تـرحمـاً عليهن. قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩) وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً﴾ (النسـاء: ٢١) وقال: ﴿وَٱلصَّـاحِبِ بِٱلْجَنبِ﴾ (النساء: ٣٦) قيل هي المرأة. وليس حسن الخلق معهـا كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبهـا اقتداء بـرسول اللَّه ﷺ، فقـد كانت أزواجـه تراجعنـه الكلام، وتهجـره الواحـدة منهن يومـاً إلى الليل[5].

**(الثالث)** أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمـدح والملاعبة، فهي التي تـطيب قلوب النساء. وقـد كان رسـول اللَّه ﷺ يمـزح معهن وينـزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، وأرى عـائشة لعب الحبشـة بالمسجـد واستوقفته طويلاً وهو يقول لها: حسبك[6]، وقـال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنـا خيركم لأهـلي»[7] وقال ﷺ لجـابر: «هـلا بكراً تـلاعبها وتـلاعبـك»[8] ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: واللَّه لقد كان ضحـوكاً إذا ولـج،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم في حديث طويل.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وإسناده صحيح.

(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وإسناده حسن (مم) وهذا الحديث يفيد الـوجوب لا الإستحباب ويشترط في الغناء المباح ألا يكون مصحوباً بالمعازف ولا بذكر الفجور. وقـد أُبيح الدف في العرس. وفي العيد للجواري الصغيرات في أحاديث صحيحة.

(٥ و٦) رواه البخاري ومسلم.

(٧) رواه الترمذي والدارمي وإسناده صحيح (مم).

(٨) رواه النسائي وسنده صحيح (مم).

سكيتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد، غير سائل عما فقد.

**(الرابع)** أن لا ينبسط في الدعابة وحسن الخلق، والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه. فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض، فبالعدل قامت السموات والأرض، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده، فينبغي أن يسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، ويتبع الحق، في جميع ذلك ليسلم من شرهن، فإن الغالب عليهن سوء الخلق، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة. وعليه أن ينظر إلى أخلاقها أولاً بالتجربة، ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها.

**(الخامس)** الاعتدال في الغيرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء[١]، وفي رواية: أن تبغت النساء، ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة: «لا تطرقوا النساء ليلاً»[٢] وفي الحديث: إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل هي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة[٣]، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه. وأما الغيرة في محلها فلا بد منها وهي محمودة وذلك في الريبة. وكان قد أذن رسول الله ﷺ للنساء في حضور المسجد سيما في العيدين[٤]، فالخروج مباح للمرأة العفيفة برضاء زوجها، ولكن القعود أسلم، وينبغي أن لاتخرج إلا

---

(١) قال الحافظ العراقي: حديث نهى رسول الله ﷺ أن يتتبع عورات النساء.. رواه الطبراني في الأوسط، والحديث عند مسلم بلفظ: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله. يخونهم ويطلب عثراتهم».

(٢) قال الحافظ العراقي: سنده جيد.

(٣) جزء من حديث حسن (مج).

(٤) رواه البخاري ومسلم.

لمهم، فإن الخروج للنظارات والأمور ليست مهمة تقدح في المروءة وربما تفضي إلى الفساد فإذا خرجت فينبغي أن تغض عن الرجال.

(السادس) الاعتدال في النفقة: فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ﴾ (الأعراف: ٣١) قال ابن سيرين: يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة حلاوة. وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام، وما يفسد لو ترك، فهذا أقل درجات الخير، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير تصريح وإذن من الزوج، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه؛ فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وإذا أكل فليقعد العيال كلهم على مائدته، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها؛ فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها.

(السابع) أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكام الصلاة، ويخوفها من اللّٰه إن تساهلت في أمر الدين، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل، ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها الخروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك، ويعصي الرجل بمنعها.

(الثامن) إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر وأراد اصطحاب واحدة أقرع بينهن[1]: فإن علم امرأة بليلتها قضى لها فإن القضاء واجب عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار. وكان ﷺ يطاف به محمولاً في

---

(١) روى البخاري ومسلم من فعل النبي ﷺ مثل ذلك.

مرضه كل يوم وكل ليلة، فيبيت عند كل واحدة منهن، ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ثبت الحق لها. قال رسول الله ﷺ: «من كان له امرأتان، فمال إلى إحداهما دون الأخرى - وفي رواية لم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» رواه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة وسنده صحيح (مم).

**(التاسع)** التأديب في النشوز مهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما، فإن كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها، ولا يقدر على إصلاحها، فلا بد من حكمين أحدهما من أهله، والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1] (النساء: ٣٤) فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع، فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح، ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه.

**(العاشرة في آداب الجماع)** ويستحب أن يقدم عليه الحديث والمؤانسة، ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضاً نهمتها، ولا يأتيها في المحيض حتى تطهر. وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها في غير المأتى، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى، والأذى في غير المأتى دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض. وقال تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣) أي في أي وقت شئتم[2]. وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها في المضاجعة وغيرها. ومن الآداب أن لا يعزل فما من نسمة قدر الله كونها إلا

---

(١) ليس معنى الآية عدم التحكيم إذا شذت المرأة، على أن يسبق ذلك طبعاً الوعظ والهجر والضرب غير المبرح بصورة تدريجية.

(٢) هذا التفسير غريب، والمعنى الصحيح: كيف شئتم من إقبال وإدبار وغير ذلك، على أن يكون ذلك في موضع الولد، وعلى من أراد التوسع فليرجع إلى تفسيرها وأسباب نزولها.

وهي كائنة، فإن عزل فمن العلماء من أباحه، ومنهم من أجله برضاها وحرمه بدون رضاها لئلا يؤذيها، والصحيح الأول. وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: كنا نعزل فبلغ نبي الله ﷺ فلم ينهنا[1]. وقد يبعث على العزل استبقاء جمال المرأة وسمنتها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق.

**(الحادي عشر في آداب الولادة)**: وهي خمسة:

**(الأول)** أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري الخير له في أيهما. فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن تكون بنتاً، بل الثواب فيهن أكثر. قال أنس قال رسول الله ﷺ: «من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتاه كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»[2].

**(الثاني)** أن يؤذن في أذن المولود حين ولادته.

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له والنسائي والترمذي وصححه والبغوي. ومهما كان من أمر العزل فتركه أولى لأمور:

**الأول**: أن فيه إدخال ضرر على المرأة لما فيه من تفويت لذتها.

**الثاني**: أنه يفوت بعض مقاصد النكاح وهو تكثير نسل أمة نبينا ﷺ، وذلك قوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فأني مكاثر بكم الأمم (رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا) لذلك وصفه ﷺ بالواد الخفي حين سألوه عن العزل في حديث رواه مسلم وغيره، ولهذا أشار ﷺ إلى أن الأولى تركه في حديث أبي سعيد الخدري فقال: ذكر العزل عند رسول الله ﷺ فقال: «ولم يفعل ذلك أحدكم؟ الحديث رواه مسلم وغيره (عن رسالة آداب الزفاف للعلامة الألباني) باختصار قليل.

ومن أهم أضرار العزل موافقة المستعمرين إلى ما يدعون إليه من تشجيع وحض المسلمين على تقليل نسلهم بما يصورونه لهم ـ وهم كاذبون ـ من خطر المجاعات وهم سببها وصانعوها على الغالب.

(٢) رواه الحميدي والترمذي وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه بلفظ: لا يكون لأحد ثلاث بنات (أو ثلاث إخوات) أو بنتان أو إختان فيتقي الله فيهن، ويحسن إليهن إلّا دخل الجنة» ورواه مسلم بلفظ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا» وضم اصبعيه.

(**الثالث**) أن يسميه اسماً حسناً. وقد قال ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»[1] وقال: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي»[2] ومن كان له اسم مكروه يستحب تبديله.

(**الرابع**) العقيقة عن الذكر بشاتين، وعن الأنثى بشاة وأن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة[3].

(**الخامس**) أن يحنكه بتمرة أو حلاوة ـ ورد ذلك من فعله ﷺ.

(**الثاني عشر في الطلاق**) يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل. ومهما طلقها فقد آذاها ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٣٤) أي لا تطلبوا حيلة للفراق. وإن كان كرهها أبوه لا لسبب شرعي فليطلقها براً به. ومهما آذت زوجها وبدت على أهله فهي جانية. وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين، وإن كرهته دون ذنب منه فلها أن تفتدي ببذل مال. ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى؛ فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩) فرد ما أخذته فما دونه لائق بالفداء. فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة[4]. ثم ليراع للزوج في الطلاق أربعة أمور:

(**الأول**) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه بدعي حرام، وإن كان واقعاً لما فيه من تطويل العدة عليها، فإن فعل ذلك فليراجعها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢ و ٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) وقد صح في هذا حديث بلفظ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وسنده صحيح (مم): .

(**الثاني**) أن يقصر على طلقة واحدة لأنها تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة: وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل[1]، وإلى الصبر مدة، وعقد المحلل منهي عنه ويكون هو الساعي فيه.

(**الثالث**) أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق، قال تعالى: ﴿**ومتعوهن**﴾ وجه الحسن بن علي رضي الله عنهما بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال لهما اعتدا. وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم.

(**الرابع**) أن لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح، فقد ورد في إفشاء سر النساء وعيد عظيم[2].

## حقوق الزوج على الزوجة

على الزوجة طاعة الزوج في كل ما طلب منها مما لا معصية فيه، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة، قال ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»[3] وقال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها»[4] قال ابن عباس: أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ قال: «إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه»[5]

(١) نعوذ بالله من القول بجواز التحليل، وقد جاء في الحديث «لعن الله المحلل والمحلل له» رواه الدارمي وسنده صحيح (مم) والطلاق الثلاث دفعة واحدة يقع طلاقاً واحداً كما صح عن النبي ﷺ في حديث رواه مسلم، وقد أخذت به أغلب المحاكم الشرعية، فالحذر الحذر!

(٢) حديث طويل رواه الإمام أحمد وله شواهد يقوي بها إلى درجة الحسن (مم).

(٣) رواه الترمذي وسنده حسن (مم).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» وله وشاهد يرقى بها إلى الحسن والصحة.

(٥) رواه البخاري ومسلم بنحوه ومعناه.

ومن حقه أن لا تعطي شيئاً من بيته إلا بـإذنه، فـإن فعلت ذلك كـان الوزر عليها والأجر له، ومن حقه أن لا تصـوم تطوعـاً إلا بإذنـه، فإن فعلت ذلـك جـاعت وعطشت ولم يتقبـل منهـا، وإن خـرجت من بيتهـا بغـير إذنـه لعنتهـا الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب.

فحقـوق الزوج عـلى زوجته كثيـرة وأهمهـا أمـران: أحـدهمـا الصيـانـة والستر، والآخر: تـرك المطالبـة مما وراء الحـاجة والتعفف عن كسبـه إذا كان حراماً، ومن حقها على الـوالدين تعليمهـا حسن المعاشـرة وآداب العشرة مـع الزوج، كما روي أن أسماء بنت خارجة الفزاري قـالت لابنتها عنـد التزوج: «إنـك خرجت من العش الـذي فيه درجت، فصـرت إلى فراش لا تعـرفينـه وقرين لا تألفينه. فكوني له أرضاً يكن لـك سماء، وكـوني له مهـاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً. لا تلحفي به فيقلاك. ولا تباعدي عنـه فينسـاك. إن دنا منـك فاقـربي منه. وإن نـأى فابعـدي عنه. واحفـظي أنفـه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلا طيبـاً، ولا يسمع إلا حسنـاً، ولا ينظر إلا جميلاً»(٤).

---

(٤) لما كانت هذه الوصية قيمة ومفيدة ذكرناها بكاملها من مصادر مختلفة يا بنيتي!

إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للعاقل، ولـو أن امرأة استغنت عن الـزوج لغنى أبويهـا وشدة حـاجتهما إليهـا، كنت أغنى الناس عن الـزوج. ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

يا بنيتي!

إنك خرجت من العش الذي فيه عشت إلى فراش لا تعرفينه ، وقرين لا تـألفينه، فكـوني له أرضاً، يكن لك سماء، وكوني له مهاداً؛ يكن لك عماداً، وكوني له أمة (جارية) يكن لـك عبداً، لا تلحفي عليه فيقلاك (يكرهك) ولا تتباعدي عنه فينسـاك إن دنا منـك فاقتـربي منه، وإن نأى فابعدي عنه!

إحملي عني عشر خصال، تكن لك ذخراً وذكراً:

(١) الصحبة بالقنـاعة. (٢) والمعـاشرة بحسن الـطاعة. (٣) والحفظ لموضع أنفـه وسمعه وعينـه، فلا يشمن منـك إلاّ طيباً، ولا يسمعن إلاّ حسنـاً، ولا ينظر إلاّ جميـلاً. (٤) والتفهم لوقت طعامه (٥) والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبـة، وتنغيص النوم مبغضـة. (٧) ـــ

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل أن تكون قاعدة في قعر بيتها، لازمة لمغزلها، لا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول. تحفظ بعلها في غيبته وحضرته وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو

---

= والرعاية على عياله وحشمه، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والرعاية على العيال والحشمة حسن التدبير. (٨) ولا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً، فإن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره (أغضبته). (٩) ثم اتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً (حزيناً)[١] والحزن عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التدبير. (١٠) وكوني أشد ما تكونين له موافقة، يكن لك أطول ما يكون مرافقة.

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين، حتى تؤثري (تفضلي) رضاه على رضاك، فيما أحببت أو كرهت.

(على أن يكون ذلك فيما يرضي اللّه سبحانه. فإنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» كما قال النبي ﷺ).

واللّه يختار لك الخير، وهو الموفق، وعليه الاتكال.

وقد ذكر مصنف «الاحياء» وصية رجل لزوجته:

خذي العفو من تستديمي مودتي
ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرك الدف مرة
فإنك لا تدرين كيف المغيب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى
ويأباك قلبي والقلوب تقلب
فإني رأيت الحب في القلب والأذى
إن اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

(ومن آدابها) أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها كما كان عليه نساء الصحابة رضي اللّه عنهم أجمعين.

تعرفه. همها صلاح شأنها وتدبير بيتها. مقبلة على صلاتها وصيامها، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب، وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم. قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الأزواج.

**(ومن آدابها)** أن لا تتفاخر على الزواج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه.

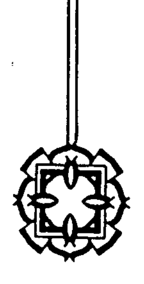
**(ومن آدابها)** ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها.

**(ومما يجب عليها)** من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر، وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة. وقال ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»[1] ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا للضرورة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.





# كتاب آداب الكسب والمعاش

## فصل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً﴾ (النبأ: ١١) فذكره في معرض الامتنان، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:١١) فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠).

وأما الأخبار فمنها قوله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه اللّه من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه»[١] وكان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم؛ فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل اللّه تعالى، فقال ﷺ: «لا تقولوا هذا! فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل اللّه، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل اللّه، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان»[٢] وقيل يارسول اللّه أي الكسب أطيب؟ قال: «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور»[٣].

(ومن الآثار): قال عمر رضي اللّه عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الطبراني، وسنده صحيح (مت).

(٣) رواه الطبراني وسنده صحيح (مم).

الرزق، ويقول اللهم ارزقني. فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه: إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته، وقيل لأحمد بن حنبل رضي اللّه عنه: ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده، وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي، فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «إن اللّه جعل رزقي تحت ظل رمحي»[1] وقوله عليه السلام حين ذكر الطير: فقال: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2] فذكر أنها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول اللّه ﷺ يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم.

**(ومن الآثار)** قال لقمان الحكيم لابنه: يابني استعن بالكسب الحلال على الفقر، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه: استخفاف الناس به.

وكان زيد بن سلمة يغرس في أرضه، فقال عمر: أصبت! استغن عن الناس يكن أصون لدينك، وأكرم لك عليهم كما قال صاحبكم أحيحة:

فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الاخوان ذو مال

وقال ابن مسعود (ر): إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته. وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال أهل السفينة لأحد الصالحين، وكان معهم: أما ترى هذه الشدة؟! فقال: ما هذه الشدة، إنما الشدة الحاجة إلى الناس.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك في الصلاة وغيرك يتعب لك. ولكن أبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد.

ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة، نعم ترك الكسب أفضل لعالم مشتغل بالتربية والعلم مما ينتفع الناس به في

(١) صحح العسقلاني إسناده.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

دينهم، كالمفتي، (أي الفقيه) والمفسر والمحدث وأمثالهم، أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين كالسلطان والقاضي والشاهد، فهؤلاء إذا كانوا يُكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء، أو العلماء فإقبالهم على ما هم فيه، أفضل من اشتغالهم بالكسب، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي اللّه عنهم بترك التجارة لما ولي الخلافة، إذ كان ذلك يشغله عن المصالح، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح، ورأى ذلك أولى، ثم لما توفي أوصي برده إلى بيت المال.

## بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

أعلم أن المعاملة قد تجري على وجه يشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط اللّه تعالى، وهذا الظلم يعني به، ما استضر به الغير، وهو منقسم إلى ما يعم ضرورة، وإلى ما يخص المعامل.

## القسم الأول فيما يعم ضرره ـ وهو أنواع

(الأول الاحتكار) فاذخار بائع الطعام له ينتظر به غلاء الأسعار، هو ظلم عام، صاحبه مذموم في الشرع ـ وذلك في وقت قلة الأطعمة، وحاجة الناس إليه، حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما ـ أما إذا اتسعت الأطعمة، وكثرت واستغنى الناس عنها، ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة، فانتظر صاحب الطعام ذلك، ولم ينتظر قحطاً فليس في هذا إضرار ـ وأما إذا كان الزمان زمان قحط، كان في ادخاره إضرار، فلا ريب في تحريمه.

ومع عدم الضرار، لا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية، فإنه ينتظر مبادىء الضرار وهو ارتفاع الأسعار، وانتظار مبادىء الضرار أيضاً محذور، كانتظار عين الضرار ولكنه دونه، وانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار فبقدر درجات الإضرار، تتفاوت درجات الكراهية والتحريم. ودليل تحريم الاحتكار قوله ﷺ: لا يحتكر إلا خاطىء[1].

---

(1) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة، ومعنى خاطىء أي آثم، ومنه قوله تعالى: ـــ

(الثاني) ترويج الزيف من الدراهم في اثناء النقد، فهو ظلم، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسير وجه على غيره، فيتردد في الأيدي ويعم الضرر، ويتسع الفساد، ويكون وزر الكل ووباله راجعاً إليه، لأنه هو الذي فتح هذا الباب، قال بعضهم: إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مئة درهم، لأن السرقة معصية واحدة، وقد تمت وانقطعت، ومعصية إنفاق الزيف قد يكون عليه وزرها بعد موته، إلى مئة سنة أو مئتي سنة، إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد من نقص أموال الناس ـ وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مئة سنة أو أكثر، يعذب بها في قبره ويُسأل عنها إلى آخر انقراضها، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾(يس: ١٢) أي نكتب أيضاً ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه وقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة: ١٣) وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره.

وفي الزيف أمور: منها أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا تمتد إليه اليد، وإياه أن يروجه في بيع آخر. فإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز، ومنها أنه يجب على التاجر تعلم النقد، لئلا يسلم إلى أحد زيفاً وهو لا يدري، فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم، فلكل عمل علم به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله، ومنها أنه إن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر بها معاملة، وأن لا يعامل بها إلا من لا يستحل الترويج في جملة النقد بطريق التلبيس، فأما من يستحل ذلك، فتسليمه إليه تسليط له على الفساد، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد، من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها.

---

= ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾ (الإسراء: ٣١).

# القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل بأن لا يضر بأخيه المسلم، والضابط الكلي فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه، فكل ما عومل به وشق عليه وثقل على قلبه، فينبغي أن لا يعامل غيره به، بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره. هذه جملته، وأما تفصيله ففي أربعة أمور:

**(الأول)** أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها، لأنه كذب، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة، وأما الثناء على السلعة، بذكر القدر الموجود فيها من غير مبالغة وإطناب، فلا بأس به، ولا ينبغي أن يحلف عليها البتة، فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر، وفي الخبر: «ويل للتاجر من بلى والله ولا والله، وويل للصانع من غد وبعد غد» وفي الخبر «اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة[1].

**(الثاني)** أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها، ولا يكتم منها شيئاً، فذلك واجب، فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً والغش حرام، كان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب، ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب، وأخفى الثاني كان غاشاً، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة، أو إذا عرض أحسن فردي الخف أو النعل وأمثاله، ويدل على تحريم الغش ما ورد أنه عليه السلام مر برجل يبيع طعاماً فأعجبه، فأدخل يده فرأى بللاً، فقال ما هذا؟ قال أصابته السماء، فقال: «فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا»[2] ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما ورد أن النبي ﷺ لما بايع جريراً على الإسلام ذهب لينصرف فجذب ثوبه

---

(١) هو حديث صحيح رواه البخاري ومسلم بعكس الخبر السابق.

(٢) رواه مسلم.

واشترط عليه النصح لكل مسلم[1] فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصّر عيوبها، ثم خير، وقال: إن شئت فخذ، وإن شئت فاتْرك، فقيل له: إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع، فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم[2]. وكان واثلة بن الأسقع واقفاً، فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم، فغفل واثلة، وقد ذهب الرجل بالناقة فسعى وراءه وجعل يصيح به: ياهذا اشتريتها للحم أو للظهر؟ فقال: بل للظهر، فقال: إن بخفها نقباً قد رأيته، وإنها لا تتابع السير، فعاد فردها فنقصها البائع مئة درهم، وقال لواثلة رحمك الله أفسدت عليّ بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا أن يبين آفته، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبيينه»[3] فقد فهموا من النصح: أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل، وزيادة المقامات فحسب بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة في بيعتهم، وهذا الأمر، وإن كان يشق على النفس، إلا أنه يتيسر على العبد باعتقاد أمرين:

(**أحدهما**) أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه بل يمحقه ويذهب ببركته، وقد يهلك الله ما يجمعه من التلبيسات دفعة واحدة، فقد حكي أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيع، فجاء سيل فغرّق البقرة، فقال بعض أولاده: إن تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة!! كيف وقد قال ﷺ: «البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما، وإذا كتما وكذبا نُزعت بركة بيعهما»[4] وفي الحديث: «يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما»[5]

---

(١و٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البيهقي والحاكم وقال صحيح الإسناد ذكره الحافظ العراقي.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

فإذاً لا يزيد مال من خيانة، كما لا ينقص من صدقة.

(والمعنى الثاني) الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح، ويتيسر عليه، أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من الدنيا التي تنقضي بانقضاء العمر، وتبقى مظالمها وأوزارها، فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين.

ومن علم أن هذه الأمور قادحة في إيمانه الذي هو رأس ماله في تجارته في الآخرة، لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له، بسبب ربح ينتفع به أياماً معدودة، وعن بعض التابعين أنه قال: لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله، وقيل لي من خير هؤلاء ومن شرهم؟ لقلت: خيرهم أنصحهم وشرهم أغشهم، والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره، لما ارتضاه لنفسه، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها، ثم يبين عيبها، إن كان فيها عيب، فبذلك يتخلص. وسأل رجل حداء بن سالم، فقال: كيف لي أن أسلم في بيع النعال؟ فقال: اجعل الوجهين سواء، ولا تفضل اليمنى على الأخرى، وجوِّد الحشو، وليكن شيئاً واحداً تاماً، وقارب بين الخرز، ولا تطبق أحد النعلين على الآخر، ومن ذلك ما سُئل عنه أحمد بن حنبل رحمه اللّه من الرفو بحيث لا يتبين، فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفاء إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع، فإن قلت: فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع، فأقول: ليس كذلك إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه، لو أمسكه، ولا يحتاج إلى تلبيس، فمن تعود هذا لم يشتر المعيب، فإن وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقنع بقيمته، باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيب فيها إنها تقلب العلف برجلها، فهكذا كانت سيرة أهل الدين.

(الثالث) أن لا يكتم في المعيار، وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه،

وفي الكيل، فينبغي أن يكيل كما يكتال، قال اللّه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١ ـ ٣) ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى وينقص إذا أخذ، إذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه، وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من اللّه بحبة، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السموات والأرض، وما أخسر من باع طوبى بويل.

وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم يصعب التوبة منها، إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدي حقوقهم، ولذلك لما اشترى رسول اللّه ﷺ شيئاً، قال للوزان لما كان يزن ثمنه: زن وارجح[1] ونظر الفضيل إلى ابنه، وهو يغسل ديناراً يريد أن يصرفه، ويزيل تكحيله، وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال يابني: هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة!

وقال بعض السلف: عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو؟ يزن ويحلف بالنهار وينام بالليل وقال سليمان عليه السلام لابنه: يا بُني كما تدخل الحبة بين الحجرين، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين. وصلى أحد الصالحين على مخنث فقيل له: إنه كان فاسقاً. فسكت، فأعيد عليه. فقال: كأنك قلت لي: كان صاحب ميزانين، يعطي بأحدهما، ويأخذ بالآخر أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين اللّه تعالى، وهذا من مظالم العباد، والمسامحة والعفو فيه أبعد. والتشديد في أمر الميزان عظيم والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة. وبالجملة كل من ينصف لنفسه من غيره، ولو في كلمة، ولا ينصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى

---

(١) رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه هو والترمذي.

﴿النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١ - ٣).

فنسأل اللّه تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل، فإن المرور على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه، غير مطموع فيه، فإنه أدق من الشعرة. وكل من خلط بالطعام تراباً أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً، لم تجر العادة بمثله، فهو من المطففين في الوزن، وقس على هذا سائر التقديرات، حتى في الذرع (أي القياس) الذي يتعاطاه البزاز، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمده مداً، وإذا باعه مده في الذرع، ليظهر تفاوتاً في القدر، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل.

(الرابع) أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفي منه شيئاً، فقد نهى رسول اللّه ﷺ عن تلقي الركبان ونهى عن النجش - أما تلقي الركبان فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد، فقد قال ﷺ: «لا تتلقوا الركبان»[1] ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق. (ونهى أيضاً) أن يبيع حاضر لباد[2] وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه فيقول له الحضري: أتركه عندي حتى أغالي في ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره (ونهى أيضاً) عن النجش[3] وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها.

فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت، ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب، ومن ذلك أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفي عن البائع غلاء السعر أو عن المشتري تراجع الأسعار، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركاً للعدل والنصح للمسلمين،

---

(١ و ٢ و ٣) رواه البخاري ومسلم.

ومهما باع مرابحة بأن يقول بعت. بما قام علي أو بما اشتريته، فعليه أن يصدق، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان.

## الإحسان في المعاملة

قد أمر اللَّه تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة. وهو يجري من التجارة مجرى سلامة رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، ولا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧) وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦) وينال المعامل رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور:

(الأولى) في المغابنة، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة. فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما، ولكن يراعي فيه التقريب، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته، واستفاد من تكررها ربحاً كثيراً، وبه تظهر البركة.

(ومن الآثار) يحكى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلة منها بأربعمئة، وضرب كل حلة قيمتها مئتان، فذهب إلى الصلاة، وخلَّف ابن أخيه في ( الدكان ) فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمئة، فعرض عليه من حلل المئتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها، فمشى بها، وهي على يديه، فصادفه يونس، فعرفه حلته. فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمئة فقال: لا تساوي أكثر من مئتين، فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمئة؛ وأنا أرتضيها. فقال له يونس: انصرف، فإن النصح في الدين خير من الدنيا وما فيها.

ثم رده إلى (الدكان) وردَّ عليه مئتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله، وقال: أما استحيت، أما اتقيت اللَّه، تربح مثل الثمن؟! وتترك النصح للمسلمين! فقال! واللَّه، أخذها وارتضاها. قال: فهلا ارتضيت له، ما ترضاه لنفسك؟!.

**(الثاني)** في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف، أو شيئاً من فقير، فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه الصلاة والسلام:

رحم اللَّه رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى[1]» وأما احتمال الغبن من الغني فليس محموداً، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد، وكان كثير من السلف يستقصون في الشراء، ويهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم في ذلك فقال: إن الواهب يعطي فضله، وإن المغبون يغبن عقله.

**(الثالث)** في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه مرة بالمسامحة وحط البعض، ومرة بالإمهال والتأخر، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب إليه ومحثوث عليه. وفي الخبر: «من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله، فإذا حل الأجل فأنظره بعده، فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة»[2] ونظر النبي ﷺ إلى رجل يلازم رجلاً بدين، فأومأ إلى صاحب الدين بيده، أي ضع الشطر، ففعل، فقال للمديون: قم فأعطه.

**(الرابع في توفية الدين)** ومن الإحسان فيه حسن القضاء، وذلك بأن

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم بلفظ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه، أنجاه اللَّه من كرب يوم القيامة» ولا يصح اللفظ الذي ذكره المصنف.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

يمشي إلى صاحب الحق، ولا يكلفه أن يمشي إليه يتقاضاه، فقد قال ﷺ: «خيركم أحسنكم قضاء»[1] ومهما قدر على قضاء الدين، فليبادر إليه ولو قبل وقته، وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر، ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليتحمَّله، وليقابله باللطف اقتداء برسول اللّه ﷺ لما ردد عليه كلام صاحب الدين، فهمَّ به أصحابه، فقال: «دعوة فإن لصاحب الحق مقالاً»[1] ومن الإحسان أن يميل الحكم إلى من عليه الدين لعسره، لأنه يستقرض لحاجة.

(الخامس) أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضرر بالبيع، ولا ينبغي أن يرضي لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه، وفي الخبر: «من أقال مسلماً أقال اللّه عثرته يوم القيامة»[2].

(السادس) أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة، وكان من السلف من يقول لفقير: خذ ما تريد، فإن يسر ولك فاقض إلا فأنت في حل منه وسعة، فهذه طرق تجارات السلف، وبالجملة فالتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه. ولذا قيل:

لا يغرنك من المرء قميص رقعه ... وإزار فوق كعب الساق منه رفعه

أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه ... ولدى الدرهم فانظر غيّه أو ورعه[3]

## شفقة التاجر على دينه

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعاً

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وسنده صحيح (مم).

(٣) هذه الأبيات حذفها المختصر فرأينا إثباتها.

وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل ينبغي للعاقل أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة سبعة أمور:

**(الأول)** حسن النية في ابتداء التجارة فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم، واستعانة بما يكسبه على الدين، وقياماً بكفاية العيال، ليكون من جملة المجاهدين به، ولينو النصح للمسلمين، وأن يحب لسائر الخلق، ما يحب لنفسه، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرناه، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فإذا أضمر هذه النيات كان عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفادما لا فهو مزيد، وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة.

**(الثاني)** أن يقصد القيام في صنعته، أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش، وهلك أكثر الخلق، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل، وتكفل كل فريق بعمل، ومن الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين في الدنيا، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها، كافياً عن المسلمين مهماً في الدين.

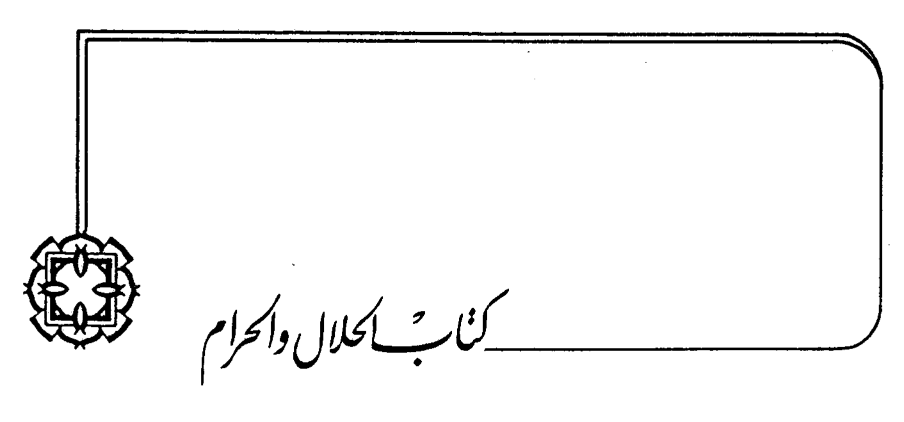
**(الثالث)** أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة المساجد، قال اللّٰه تعالى: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ**﴾ (النور: ٣٧) وكان السلف يبتدرون عند الأذان، ويخلون الأسواق لأهل الذمة والصبيان.

**(الرابع)** أن لا يقتصر على هذا، بل يلازم ذكر اللّٰه سبحانه في السوق، ويشتغل بالتهليل والتسبيح، فذكر اللّٰه في السوق بين الغافلين أفضل.

(الخامس) أن لا يكون شديداً على السوق والتجارة، وذلك بـأن يكون أول داخل وآخر خارج.

(السادس) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب، ويستفتي قلبـه، فإذا وجـد فيه حـزازة اجتنبه، وإذا حمـل إليه سلعة رابه أمرها، سأل عنها، وكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربـاً فلا يعامله.

(السـابع) ينبغي أن يـراقب جميع مجـاري معاملتـه مـع كـل واحـد من معامليه، فإنه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب.




قال اللّه تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحاً﴾ (المؤمنون: ٥١) أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل. وقيل: إن المراد به الحلال، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ (البقرة: ١٨٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: ١٠) ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥) جعل آكل الربا في أول الأمر، مؤذناً بمحاربة اللّه، وفي آخره متعرضاً للنار.

والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

ولما ذكر ﷺ الحريص على الدنيا قال: «رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار، مطعمه حرام وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، يرفع يديه فيقول: يارب يارب، فأني يستجاب لذلك»[١] وقال ﷺ: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»[٣] وقال النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني وسنده صحيح (مج).

يأكل من عمل يده، وإن نبي اللّه داود كان يأكل من عمل يده»[1].

**(وأما الآثار)** فقد ورد أن الصديق رضي اللّه عنه شرب لبناً من كسب عبده، ثم سأل عبده، فقال: تكهنت لقوم، فأعطوني، فأدخل أصابعه في فيه، وجعل يقيء، حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك، مما حملت العروق وخالط الأمعاء. وكذلك شرب عمر رضي اللّه عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً، فأدخل أصابعه وتقيأ. وقال سهل التستري: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي ظاهراً وباطناً، والصبر على ذلك إلى الموت. وكان بشر الحافي من الورعين، فقيل له: من أين تأكل؟ فقال: من حيث تأكلون، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي، كمن يأكل وهو يضحك، وقال: يد أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات.

## درجات الحلال والحرام

أعلم أن الحرام كله خبيث، لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، وأصفى من بعض. ولذا كان الورع عن الحرام على درجات، فمنه الورع عن كل ما تحرمه فتاوى علماء السنة، ومنه الورع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ومنه ما لا شبهة في حله لكن يخاف منه أداؤه إلى محرم، وهو ترك ما لا بأس به ومنه ما لا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس، ولكنه يتناول لغير اللّه، ولا على نية التقوي به على عبادة اللّه أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية.

**(الآثار)** وقد حكي عن ابن سيرين أنه ترك لشريكه أربعة آلاف درهم

---

(١) رواه البخاري، وخص داود عليه السلام بالذكر لأنه كان نبياً وملكاً وعلى الرغم من ذلك كان يعتمد على كسب يده.

لأنه حاك في قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به. وكان بعضهم يتجر، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة، وما يعطيه يزنه بزيادة حبة، ومن ذلك الاحتراز عما يتسامح به الناس، فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره، وتألف النفس الاسترسال، وتترك الورع، كما تورع بعضهم من أخذ تراب من حائط بيت كان يسكنه بكراء، وكما جاء أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان يوزن بين يديه مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال لما استبعد ذلك منه: وهل ينتفع منه إلا بريحه؟ ومنه أن بعضهم كان عند محتضر فمات ليلاً فقال اطفئوا السراج، فقد حدث للورثة حق الدهن، وأخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من تمر الصدقة، وكان صغيراً فقال ﷺ: (كخ كخ)[1] أي ألقها، وتقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن الذي سقاه إياه رقيقه، وكان تكهن[2] فأعطي اللبن أجرة له. وذلك خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة، مع أنه شربه عن جهل، وكان لا يجب إخراجه، ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين.

وبالجملة فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه، كان أخف ظهراً يوم القيامة، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وإذا علمت حقيقة الأمر، فإليك الخيار، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فرخص، فلنفسك تحتاط، وعلى نفسك ترخص والسلام.

## (تنبيه)

لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن، فإنه إذا جاوز ما رسم له وتصرف بذهنه من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والمتنطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي في الجاهلية.

(الكهف: ١٠٤) قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[١].

## البحث وللسؤال في الحرام والحلال

أعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية، أو أردت أن تشتري منه أو تستوهب، فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله، فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال لا بد منه في مواقع الريبة. ومنشأ الريبة بالنسبة لصاحب المال، أن يكون مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوع ظني إلى دلالة. وبالنسبة للمال الذي يختلط حرامه بحلاله، ويكون الحرام أكثر مع يقين وجوده. فإذا كان الحرام هو الأقل، واحتمل أن لا يكون موجوداً في الحال، لم يكن الأكل حراماً، ولكن السؤال احتياط والامتناع عنه ورع، وإنما يسأل من صاحب اليد، إذ لم يكن مُتهماً بأنه ليس يدري طريق كسب الحلال، أو بأنه لا ثقة في أخباره وأمانته، فليسأل من غيره، فإذا أخبره عدل واحد قبله، وإن أخبره فاسق علم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه، جاز قبوله، لأن المطلوب ثقة النفس، والمفتي هو القلب في مثل هذا الموضع. وللقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق، فليتأمل فيه، فإذا اطمأن القلب، كان الاحتراز حتماً واجباً.

## كيفية خروج التائب من المظالم المالية

أعلم أن كل من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما.

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة بلفظ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن اللّه عز وجل وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير» وسنده صحيح (مج).

**(النظر الأول)** في كيفية التمييز والاخراج: من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غضب أو وديعة أو غيره فأمره سهل، فعليه تمييز الحرام، وإن كان ملتبساً مختلطاً، فإما أن يكون من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان، أو يكون في أعيان متمايزة كالدور والثياب، فإن كان في المتماثلات أو كان شائعاً في المال كله، كمن اكتسب المال بتجارة كذب في بعضها وكمن غصب دهناً وخلطه بدهن نفسه، وفعل ذلك في الحبوب أو الدراهم والدنانير، فإن كان معلوم القدر، مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام، فعليه تمييز النصف، وإن أشكل فله طريقان: الأخذ باليقين، والأخرى الأخذ بغالب الظن، والورع في الطريق الأولى، فلا يستبقي إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال.

## (مسألة)

من ورث مالاً ولم يدر من أين اكتسبه مورثه من حلال أم من حرام، ولم يكن ثم علامة، فهو حلال باتفاق العلماء، وإن علم أن فيه حراماً وشك في قدره، أخرج مقدار الحرام بالتحري، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر باجتهاد. وقال بعض العلماء لا يلزمه والإثم على المورث.

**(النظر الثاني في المصرف)** فإذا أخرج الحرام، فله ثلاثة أحوال: إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان غائباً فينتظر حضوره أو الإيصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة، فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره، وإما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عينه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، فهذا ينبغي أن يتصدق به لئلا يضيع وتفوت المنفعة على المالك وعلى غيره، وله أن يتصدق على نفسه وعياله إذا كان فقيراً.

# إدارات السلاطين وصلاتهم

أعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

**الحالة الأولى**: أن تدخل عليهم وهي شرها، قال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يدك ما أريده، ولا في يدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عني.

فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين، وأيضاً فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصي اللّٰه عز وجل، إما بفعله أو قوله أو سكوته.

أما الفعل: فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون، إما إلى أماكن مغصوبة، ولو فرض أنه في موضع غيرمغصوب، ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام، والانتفاع بذلك حرام، ولو فرض ذلك حلالاً، فربما يقع في غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أو يتمثل له قائماً، ويخدمه، ويتواضع له بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه، والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى يقتضي التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟

وأما القول فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو تحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء في الآثار: «من دعا لظالم بطول البقاء» فقد أحب أن يُعصى اللّٰه».

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك أو وفقك اللّه لما يحبه ويرضاه، أو نحو ذلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت، فهو شريك فيه. وكذا إذا سمع في كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور في السكوت. قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي، وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر!

فإن سلم مما ذكرنا كله، وهيهات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم في التنعم، فيزدري نعمة اللّه عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون مكثراً لسواد الظلمة.

وجاء أن سعيد بن المسيب دعي إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار. فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر. قال: لا واللّه لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مئة وألبس المسوح.

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً، فهذا حكم الدخول.

**(الحال الثاني)**: أن يدخل عليها لسلطان زائراً، فجواب السلام لا بد منه.

ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدري أنه محرم، بل وعليه أن يخوفه من ركوب المعاصي، وعليه أن يرشده إلى المصالح، ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به صلاح الظالم، عرّفه إياه.

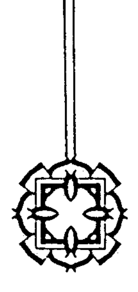
**(الحال الثالث)** أن يعتزل عنهم، فلا يراهم ولا يرونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يحب بقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم كما قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما يوم مضى، فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم على غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم؟!

## مسألة

إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء وكان له مالك معين، لم يحل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به، ويتولى تفرقته على الفقراء. ومن العلماء من امتنع من أخذه[1].

---

(١) هذا مخالف لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث رواه البخاري: «إذا جاءك من هذا المال شيء، وأنت غير مستشرف ولا سائل، فخذه، ومالا، فلا تتبعه نفسك»
وجاء في حديث رواه البيهقي عن عمر رضي الله عنه: «إذا آتاك تعالى مالاً لم تسأله ولم تشره إليه نفسك، فاقبله، فإنما هو رزق ساقه الله إليك» وسنده صحيح (مج).



# كتاب العزلة والمخالطة

أعلم أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها على المواظبة على العبادة والفكر وطلب العلم، والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء، والغيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع للأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة من جلساء السوء، إلى غير ذلك، وأما أكثر السلف فذهبوا إلى استحباب المخالطة، واستكثار المعارف والاخوان، والتآلف والتحبب إلى المؤمنين، والاستعانة بهم في الدين، تعاوناً على البر والتقوى، وان فوائد العزلة المتقدمة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة ومغالبة النفس، وبالجملة: فللمخالطة فوائد عظيمة تفوت بالعزلة، فإن قلت: ما هي فوائد المخالطة والدواعي إليها؟ فاعلم: أنها التعليم، والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، أو اعتياد التواضع، أو استفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها.

**(فأما العلم والتعليم)** فهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة، والمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة، ومن كان يقدر على التبريز في علوم الشرع والعقل، فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران، ولهذا قال النخعي وغيره: تفقه، ثم اعتزل[1]، ومن اعتزل قبل

(١) هذا خطأ والصواب أن يقال: تفقه واعمل وأحسن وجاهد كما يأمر الإسلام!

التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور، ويكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان، وهو يرى نفسه من العُبّاد، فالعلم هو أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام والجهال.

**(وأما التعليم)** ففيه ثواب عظيم إذا صحت نية المعلم والمتعلم.

**(وأما الانتفاع بالناس)** فبالكسب والمعاملة إذ لا يأتي إلا بالمخالطة، ومن اكتسب من وجه وتصدق منه كان أفضل من المعتزل المشتغل بالنافلة.

**(وأما النفع)** فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة، ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب، وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ومن قدر عليه مع القيام بحق الشرع فهو أفضل له من العزلة.

**(وأما التأديب بنصح الغير والتأدب)** ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات فهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة.

**(وأما الاستئناس والإيناس)** فهو مستحب لأمر الدين. وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين، وقد يتعلق بحظ النفس، ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا كربت عميت، والنفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروَّح، وفي تكليفها الملازمة داعية للفتور، وقد قال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لم يجالس الناس، فلا يستغني المعتزلة إذاً عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة، فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته، فقد قال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر

أحدكم من يخالل»[1]، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين والقصور عن الثبات على الحق، ففي ذلك متروح للنفس، وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه.

**(وأما نيل الثواب)** فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً، إذ لا رخصة في تركه إلّا لخوف ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلّا نادراً، وكذلك في حضور الإملاكات[2] والدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور على قلب مسلم.

**(وأما إنالةالثواب)** فهو أن يأذن لعيادته وتعزيته في المصائب وتهنئته على النعم، فإنهم ينالون بذلك ثواباً، فينبغي أن يزن ثوب هذه المخالطات بآفاتها التي ذكرناها، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة.

**(وأما التواضع)** فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة، أو مخافة أن لا يوقر في المحافل أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله، وأبقى على اعتقاد الناس في تعبده وزهده، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا، ولا يحبون أن يزوروا، يفرحون بتقرب العوام والأمراء إليهم، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له، ولكن اعتزاله سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام، والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه.

**(أحدها)** أن التواضع والمخالطة لا تنقص عن منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه.

**(الثاني)** أن الذي اشتغل نفسه بطلب رضا الناس عنه، وتحسين

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم وسنده حسن (مم).

(٢) جمع أملاك وهو الزواج.

اعتقادهم فيه، مغرور، لأنه لو عرف اللَّه حق المعرفة، علم أن الخلق لا يغنون عنه من اللَّه شيئاً، وأن ضرره ونفعه بيد اللَّه، بل رضا الناس غاية لا تنال، فرضاء اللَّه أولى بالطلب، ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: «واللَّه ما أقول لك إلا نصحاً، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله» فإذاً من حبس نفسه في البيت لتحسن اعتقادات الناس فيه، هو في عناء حاضر في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

**(وأما التجارب)** فإنها تستفاد من المخالطة للخَلق، ومجاري أحوالهم، والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب، فالصبي إذا اعتزل، بقي غمراً جاهلاً، بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب، وتحصل بقية التجارب بسماع الأحوال، وبالجهل يحبط العمل الكثير، وبالعلم يزكو العمل القليل، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[1].

فإذا قيل: فما آداب العزلة؟

قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة اللَّه تعالى أبداً، فهذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته؛ وليكف عن السؤال عن أخبارهم، وعن الاصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، إلا ما كان فيه مصلحة للإسلام، فإن جميع ذلك ينغرس

---

(١) جزء من حديث تقدم في كتاب العلم رواه الترمذي وسنده صحيح (مم).

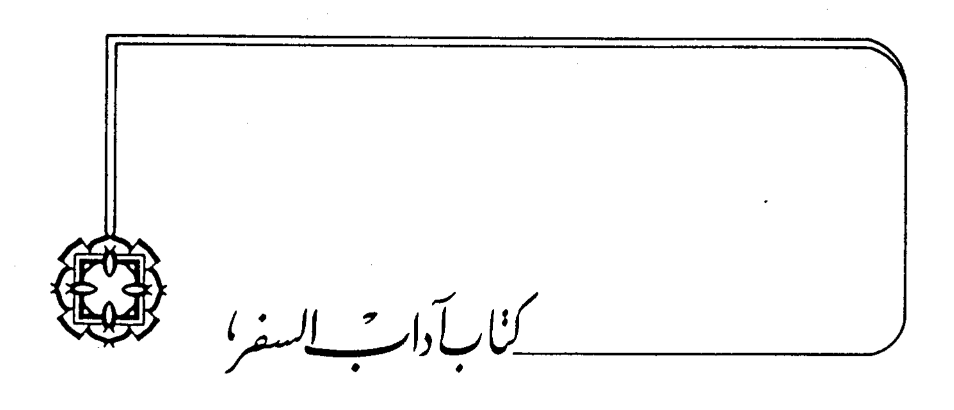
في القلب حتى ينبعث في اثناء الصلاة، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدِّر أنه إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر اللّٰه ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر اللّٰه ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال اللّٰه تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).





# كتاب آداب السفر

أعلم أن كل من سافر وكان مطلبه العلم والدين، أو الكفاية للاستعانة على الدين، كان من سالكي سبيل الآخرة، وكان له في سفره شروط تلحقه بأعمال الآخرة، وإليك جملة من أقسام الأسفار.

**(القسم الأول)** السفر في طلب العلم، وهو أما واجب وإما نفل، وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً، وذلك العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات اللّه في أرضه.

وقد رحل جابر بن عبد اللّه من المدينة مسيرة شهر في حديث عن رسول اللّه ﷺ بلغه عن عبد اللّه بن أنيس، حتى سمعه عنه، وقال الشعبي: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، ما كان سفره ضائعاً. وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك مهم، فإن من لا يطلع على خبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها، والنفس في الوطن مع موآتاة الأسباب، لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوف، فإذا امتحنت بمذاق الغربة وقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعيوبها. وأما آيات اللّه في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء منها إلا هو شاهد للّه بالوحدانية.

(القسم الثاني) أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد، وفي الحديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»[١].

(القسم الثالث) أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين، وذلك أيضاً حسن، فالفرار مما لا يطاق، من سنن الأنبياء والمرسلين، وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن.

(القسم الرابع) السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء السعر، أو ما يجري مجراه ولا حرج في ذلك، بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع وربما يستحب في بعض، بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد أو استحبابه، ولكن يستثنى الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لورود النهي فيه[٢].

(وبالجملة) فالسفر ينقسم إلى مذموم ومحبوب ومباح، والمذموم منه حرام كالسفر للعاق لوالديه، ومنه محرم كالخروج من بلد الطاعون، والمحمود منه واجب كالحج وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم.

ومنه مندوب كزيارة العلماء، للتخلق بأخلاقهم وآدابهم، وتحريك الرغبة للاقتداء بهم، واقتباس الفوائد العلمية من أنفاسهم، وأما المباح فمرجعه إلى النية، فمهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) يشير الغزالي إلى حديث صحيح (مج) رواه أحمد والبيهقي والنسائي بلفظ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه» وليس المقصود من هذا الحديث عدم الفرار من الطاعون مطلقاً، بل المقصود فرار الموجود في الأرض التي فيها الطاعون خشية أن يعدي غيره، أما من كان خارج هذه الأرض فينبغي عليه الفرار من هذا الطاعون، وعدم الدخول في تلك الأرض الموبوءة، ومن هنا جاء قول الخليفة عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما قبل أن يبلغه الحديث السابق: نفر من قضاء الله إلى قضاء الله.

ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال، والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة، ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله ﷺ: «الأعمال بالنيات»[1].

## آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه

**(الأدب الأول)** أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب. وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه إذا استطاع، ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام، ومن إظهار مكارم الأخلاق، والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة بكل ممكن، وإعانة المنقطع بمركوب أو زاد، وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ومعصية، ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه.

**(الثاني)** أن يختار رفيقاً فلا يخرج وحده «فالرفيق ثم الطريق»، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين، فيذكره إذا نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه، وقد نهى رسول اللّٰه ﷺ أن يسافر الرجل وحده[2]: وقال: «إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم»[3]، وليؤمروا أحسنهم أخلاقاً، وأرفقهم بالأصحاب، وأسرعهم إلى الإيثار، وطلب الموافقة، وإنما يُحتاج إلى الأمير، لأن الآراء تختلف في مصالح السفر، ولا نظام إلا في الوحدة، ولا فساد إلا في الكثرة، وإنما انتظم أمر

---

(١) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «إنما الأعمال بالنيات الحديث».

(٢) أخرجه أحمد بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ: «لو يعلم الناس ما في الوحدة، ما سار راكب بليل وحده» قاله العراقي.

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن.

العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(الثالث) أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، ليدعُ عند الوداع بقوله لمودعه: أستودع اللّه دينك وأمانتك وخواتيم عملك[١] وليدع المقيم له بقوله: زودك اللّه التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت[٢]، وليصل المسافر قبل سفره ركعتين صلاة الاستخارة، وإذا حصل على باب الدار فليقل: «بسم اللّه، توكلت على اللّه، لا حول ولا قوة إلا باللّه، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزَل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي»[٣] فإذا ركب فليقل: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[٤].

(الرابع) أن يرفق بالدابة إن كان راكباً، فلا يحملها ما لا تطيق ولا يضربها في وجهها، فإنه منهي عنه، ويستحب أن ينزل عن الدابة أحياناً، يروحها بذلك ويدخل السرور على المكاري، ويروض بدنه حذراً من خدر الأعضاء بطول الركوب، وليحذر أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف، فإن القليل يجر إلى الكثير. قال رجل لابن المبارك وهو على دابة: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستأذن المكاري، فإني لم أشارطه على هذه الرقعة، فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء: إن هذا مما يتسامح فيه، ولكن سلك طريق الورع.

(الخامس) أن يحتاط إن كان في قافلة، فلا يمشي منفرداً لأنه ربما يغتال

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وسنده صحيح (مج).

(٢) رواه الترمذي والحاكم بلفظ: «زودك اللّه التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيثما كنت» وسنده حسن (مج).

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وإسناده صحيح (مم).

(٤) سورة الزخرف آية: ١٣ و١٤. مقرنين: أي مطيقين، وقول هذه الآية في السفر رواه مسلم في حديث طويل.

أو ينقطع، ويكون بالليل متحفظاً عند النوم وينبغي أن يتناوب الرفقاء في الحراسة بالليل، وأن يستصحب مرآة ومقراضاً ومسواكاً ومشطاً[1]، وليحذر التنطع في الطهارة، فقد كان الأولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء، ولا يبالون بالوضوء من الغدران، ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضأ عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية.

**(السادس)** في آداب الرجوع من السفر: كان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات. ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[2] ثم يرسل إلى المدينة من يبشر بقدومه، وكان ﷺ ينهي أن يطرق المرء أهله ليلاً[3] فيقدم عليهم بغتة فيرى ما يكره، وكان ﷺ إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت، وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة[4] من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه، فإن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم؛ وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكرهم بما يستصحب في الطريق لهم. هذه جملة من الآداب الظاهرة.

**(وأما الآداب الباطنة)** ففي الفصل الأول بيان بعضها وجملته: أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه وعلمه في السفر، وينوي في دخول كل بلدة أن لا يرى شيوخها العلماء، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد أدباً أو كلمة لينتفع بها، وينفع بها، وإذا قصد زيارة أخ له فلا يقم عنده أكثر من ثلاثة أيام،

---

(١) الحديث الوارد في ذلك كل طرقه ضعيفة قاله العراقي، ولكن النظافة والأناقة مطلوبتان.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حديث صحيح وقد تقدم.

(٤) على أن يجتنب التكلف والإسراف، كما هي حال كثير من الحجاج، حتى أن بعضهم باب يتقاعس عن القيام بفريضة الحج خشية من عتاب أقربائه، وأصدقائه لقلة إحضار الهدايا!

فذلك حد الضيافة، إلا إذا شق على أخيه مفارقته، ولا يشغل نفسه بما لا فائدة فيه، فإن ذلك يقطع بركة سفره.

## ما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر

أعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لدنياه وآخرته. أما زاد الدنيا فالطعام والشراب، وما يحتاج إليه من نفقة، فإن خرج من غير زاد؛ فلا بأس به إذا كان سفر بين قرى متصلة، وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب، فإن كان ممن يصبر على الجوع «أسبوعاً أو عشراً مثلاً» أو يكتفي بالحشيش، فله ذلك[١]، وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع والاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية، فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة، وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية، وإلا لوجب أن يصبر حتى يسخر اللّه له ملكاً أو شخصاً آخر حتى يصب الماء في فيه!!

(وأما زاد الآخرة) فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته، وصومه، وصلاته، وعبادته، وذلك أن السفر يفيد في الطهارة رخصتين مسح الخفين والتيمم. وفي صلاة السفر رخصة القصر والجمع، وفي النفل رخصتين أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشياً، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر.

(فأما المسح) على الخفين[٢] فقال صفوان بن عسال: «أمرنا رسول اللّه

---

(١) غفر اللّه تعالى للمصنف خطأه، وللمختصر سكوته، فقد تزود الرسول ﷺ كما هو معروف، وهو القائل في حديث رواه البخاري: «وإني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وقال سبحانه: ﴿وتزودوا﴾. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: «كان أهل اليمن يحجون، فلا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس. فأنزل اللّه تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ رواه البخاري و وغيره.

(٢) ومثله في ذلك الجوربان متنعلين كانا أو غير متنعلين، صفيقين أو غير صفيقين قال الشيخ القاسمي، وله رسالة قيمة في هذا الموضوع رحمه اللّه تعالى، إسمها المسح على الجوربين، أثبت فيها جواز المسح على الجوربين عن الرسول بما لا يدع مجالاً للشك، وكل ذلك رخصة هامة ورحمة من اللّه واسعة.

ﷺ: إذا كنا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن»[1] فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً، أو يوماً وليلة إن كان مقيماً[2].

(وأما التيمم) فالتراب بدل عن الماء عند العذر كبعده عن منزله، بحيث لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث، أو نزل على الماء عدو أو سبع أو احتاج إليه لعطشه أو عطش أحد رفقائه فيتيمم في هذه الصورة، وإن بيع الماء بثمن المثل لزمه الشراء أو بغبن لم يلزمه.

(وأما القصر) فله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين، ولا يصير مسافراً إلا بمفارقة عمران البلد.

(وأما الجمع) بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما فذلك أيضاً رخصة في كل سفر.

(وأما النافلة) فقد جوز أداؤها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها، وكان ﷺ يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته، وأوتر عليه السلام على الراحلة، وليس على المتنقل الراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه.

(وأما استقبال القبلة) فلا يجب لا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها[3]، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة. فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في الطريق لتكون له جهة يثبت فيها. وجُوز للمسافر أيضاً

---

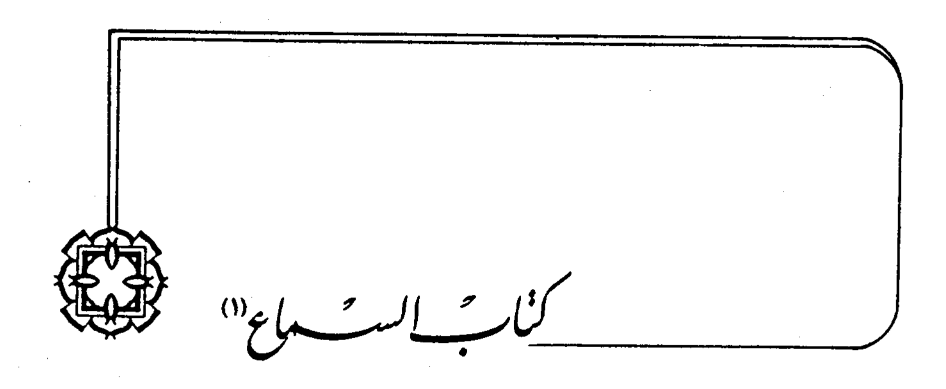
(١) رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه، والنسائي في الكبرى وابن خزيمة، وابن حبان وإسناده جيد.

(٢) والحديث في ذلك رواه مسلم.

(٣) هذا في النفل، وأما في الفرض فلا بد من استقبال القبلة، إلاّ إذا تعذر ذلك كراكب سيارة أو طائرة.

التنقـل ماشيـاً: فيومىء بـالركـوع والسجود ولا يقعـد للتشهد وحكمـه حكم الراكب، لكن ينبغي أن يحرم بالصلاة مستقبـلاً للقبلة، وكل هـارب من عدو أو سيل أو سبع، فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنقل.

**(وأما الفطر في رمضان للمسافر)** فهو مرخص له.



# كتاب السماع(1)

**أعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين، أحدهما:**

**إنه يلهي القلب عن التفكير في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته والثاني أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجددات، ولا**

---

(1) لقد حذف كتاب السماع من «مختصر منهاج القاصدين» كما حذف منه «موعظة المؤمنين» لما في هذا البحث في «أصل الإحياء» من أحاديث غير صحيحة، وواهنات وشطحات.

ولما كان موضوع السماع له خطورته وشأنه، وقد ابتلى به المسلمون شؤوا أم أبوا، رأيت نقله من كتاب «تلبيس إبليس» للإمام أبي الفرج بن الجوزي، مع بعض الإيجاز.

وقد شرح البحث شرحاً حسناً مدعماً بالكتاب والسنة، وتعقب ما جاء في «الاحياء» للغزالي من آراء متطرفة في السماع ورد عليه رداً علمياً مقنعاً.

وخلاصة رأينا في السماع أنه أمر لا بد من معالجته، بعد ما شاع، وذاع، وهو ـ ولا شك ـ له تأثير بعيد في النفوس فينبغي استثماره والإفادة منه في حدود الشرع، سواء من ناحية أبعاد المعازف، وتجنب الكلام على المجون والخمور التي تغري بالفاحشة، وسواء في توجيه المغنين المبتلين باحترافه، كي تكون أهدافهم خلقية اجتماعية، تثير النفوس نحو الحق والخير والجهاد، والجمال المشروع الهادف، لا الهدام!

ولا يخفى الفائدة التي نرتجى من ذلك في جذب الشباب وتوجيهه توجيهاً دينياً قوياً عن طريق السماع المباح في بعض الأحيان، بدلاً من السماع الفاجر المدمر.. وقد كان الرسول ﷺ يستمع إلى إنشاد الشعراء ويستزيد من أقوالهم، فعن عمرو ابن الشريد عن أبيه قال: ردفت (أي ركبت خلفه) رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي =

سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل، فلذلك يحث على الزنا، فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس، ولهذا جاء في بعض الأخبار «الغناء رقية الزنا». وقد ذكر أبو جعفر الطبري أن

---

= الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال: «هيه» (أي هات) فأنشدته بيتاً فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً، فقال: «هيه» حتى أنشدته مئة بيت. رواه مسلم.

وعن جندب أن النبي ﷺ كان في بعض المشاهد، (أي الغزوات) وقد دميت أصبعه فقال:

هل أنت إلاّ اصبع دميت     وفي سبيل الله ما لقيت

رواه البخاري ومسلم.

وعن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى غبر بطنه، يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا     ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا     وثبت الأقدام إن لاقينا لاقينا

إن الأولى هم بغوا علينا     إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته: «أبينا، أبينا» رواه البخاري ومسلم وعن أنس، قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً     على الجهاد ما بقينا أبداً

يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة     فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة

رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس، قال: كان للنبي ﷺ حاد، يقال له: أنجشة، وكان حسن الصوت، فقال له النبي ﷺ: «رويدك يا أنجشة! لا تكسر القوارير» قال قتادة: يعني ضعفة النساء. رواه البخاري ومسلم.

وقال النبي ﷺ «إن من البيان لسحراً» رواه البخاري وقال النبي ﷺ: «إن من الشعر حكمة» رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» رواه مسلم.

وقد علمت أخيراً أن هناك موسيقى حديثة لا تعتمد على المعازف على اختلاف أنواعها، فإذا صح ذلك، فلا نرى مانعاً من تعاون الإسلام والفن الغنائي البريء في توجيه النفوس وتحبيبها بمبادىء الحق والخير والجمال التي جاء بها شرع الله الذي لا يصادم الفطرة بل يوجهها، ولا يحارب الغرائز بل يهذبها ويسمو بها.

الذي اتخذ الملاهي رجل من ولد قابيل يقال له: ثوبال، اتخذ في زمن مهلائيل ابن قينان آلات اللهو من المزامير والطبول والعيدان، فانهمك ولد قابيل في اللهو وتناهى خبرهم إلى من بالجبل من نسل شيث، فنزل منهم قوم وفشت الفاحشة وشرب الخمور.

وهذا لأن الالتذاذ بشيء يدعو إلى الالتذاذ بغيره خصوصاً أما يناسبه، ولما يئس أن يسمع من المتعبدين شيئاً من الأصوات المحرمة كالعود نظر إلى المعنى الحاصل بالعود فدرجة ضمن الغناء العود وحسنه لهم، وإنما مراده التدريج من شيء، والفقيه من نظر في الأسباب والنتائج وتأمل المقاصد.

وقد تكلم الناس في الغناء فأطالوا، فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه من غيركراهة ومنهم من كرهه مع الاباحة. وفصل الخطاب أن نقول: ينبغي أن ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات، فإن أقواماً من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام، فسماع تلك الأشعار مباح، وليس إنشادهم اياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال. وفي معنى هؤلاء الغزاة: فإنهم ينشدون أشعاراً يحرضون بها على الغزو. وفي معنى هذا إنشاد المبارزين للقتال للأشعار تفاخراً عند النزول وفي معنى هذا أشعار الحداة في طريق مكة كقول قائلهم:

بشرها دليلها وقالا　　　غداً ترين الطلح والجبالا

وهذا يحرك الابل والآدمي، إلا أن ذلك التحريك لا يوجد الطرب المخرج عن حد الاعتدال.

وقد كان لرسول اللّه ﷺ حاد يقال له: أنجشة يحدو فتعنق[1] الإبل، فقال رسول اللّه ﷺ: «يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير[1] وفي حديث

---

(١) رواهما البخاري ومسلم.

سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنياتك؟ وكان عامر رجلا شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول:

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فألقين سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا

فقال رسول اللّه ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع فقال: يرحمه اللّه[1].

قال المصنف رحمه اللّه: وقد روينا عن الشافعي رضي اللّه عنه أنه قال: أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به.

ومن هذا الجنس كانوا ينشدون أشعارهم بالمدينة، وربما ضربوا عليه بالدف عند إنشاده، عن عائشة رضي اللّه عنها: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام من تضربان بدفين ـ ورسول الله ﷺ مسجى عليه بثوبه ـ فانتهزهما أبو بكر، فكشف رسول اللّه ﷺ عن وجهه؛ وقال: «دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد» أخرجاه في «الصحيحين».

والظاهر من هاتين الجاريتين صغر السن، لأن عائشة كانت صغيرة وكان رسول اللّه ﷺ يسرب[2] إليها الجواري فيلعبن معها.

وان عائشة رضي اللّه عنها، قالت: كانت عندنا جارية يتيمة من الانصار فزوجناها رجلاً من الأنصار فكنت فيمن أهداها إلى زوجها، فقال رسول اللّه ﷺ: يا عائشة إن الأنصار أناس فيهم غزل: فما قلتم؟ قالت دعونا بالبركة قال: أفلا قلتم:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

---

(١) رواهما البخاري ومسلم.

(٢) سرب الابل: أرسلها قطعة قطعة.

ولـولا الـذهـب الأحمـ ـر مـا حـلت بـواديـكـم
ولـولا الحـبـة الـسـمـرا ء لم تـسـمـن عـذاريـكـم[1]

فقد بان بما ذكرنا ما كانوا يعنون به، وليس مما يطرب ولا كانت دفوفهن على ما يعرف اليوم. ومن ذلك أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تثير القلوب إلى ذكر الآخرة ويسمونها الزهديات كقول بعضهم:

يـا غـاديـاً في غـفـلة ورائـحـا إلى متى تستحسن القبـائـحـا
وكـم إلى كـم لا تخـاف مـوقـفـاً يـسـتـنـطق الـلّه بـه الجـوارحـا
يـا عـجـبـاً مـنـك وأنـت مـبصر كيف تجنبت الـطريق الـواضـحـا

فهذا مباح أيضاً وإلى مثله أشار أحمد بن حنبل في الاباحة إذ قيل له: يا أبا عبد اللّه هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذا مـا قـال لي ربي أمـا استحـييت تـعـصـيـني
وتخـفـي الـذنـب من خـلقـي وبـالـعـصـيـان تـأتـيـني؟

فقال: أعد علي، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول:

إذا مـا قـال لي ربي أمـا استحـييت تـعـصـيـني
وتخـفـى الـذنـب من خـلقـي وبـالـعـصـيـان تـأتـيـني

ومن الأشعار أشعار تنشدها النواح، يثيرون بها الأحزان والبكاء، فينهي عنها لما في ضمنها.

فأما الأشعار التي ينشدها المغنون المتهيئون[2] للغناء، ويصفون فيهم المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ويثير كامنها من حب اللهو، وهو الغناء المعروف في هذا الزمان مثل قول الشاعر:

---

(١) وهو جيد الإسناد لطرقه كما جاء في آداب الزفاف للعلامة الالباني.

(٢) المتهيئون: المتفرغون.

ذهبي اللون تحسب من وجنتيه النار تقتدح
خوفوني من فضيحته ليته وافى[1] وافتضح

وقد أخرجوا لهذه الأغاني ألحاناً مختلفة، كلها تخرج سامعها عن حيز الاعتدال، وتثير حب الهوى، ولهم شيء يسمونه البسيط يزعج القلوب عن مهل ثم يأتون بالنشيد بعده فيجعجع القلوب. وقد أضافوا إلى ذلك ضرب القضيب والإيقاع به على وفق الإنشاد، والدف بالجلاجل، والشبابة الثانية عن الزمر، فهذا الغناء المعروف اليوم.

وقبل أن نتكلم في إباحته أو تحريمه أو كراهته نقول: ينبغي للعاقل أن ينصح نفسه وإخوانه، ويحذر تلبيس إبليس في إجراء الغناء مجرى الأقسام المتقدمة التي يطلق عليها اسم الغناء. فلا يحمل الكل محملاً واحداً فيقول: قد أباحه فلان وكرهه فلان. فنبدأ بالكلام في النصيحة للنفس والإخوان فنقول:

معلوم أن طباع الآدميين تتقارب ولا تكاد تتفاوت، فإذا ادعى الشاب السليم البدن والصحيح المزاج أن رؤية النساء المستحسنات لا تزعجه ولا تؤثر عنده ولا تضره في دينه كذبناه لما نعلم من استواء الطباع، فإن ثبت صدقه عرفنا أن به مرضاً خرج به عن حيز الاعتدال، فإن تعلل فقال: إنما أنظر إلى هذه المستحسنات معتبراً فأتعجب من حسن الصنعة في دعج[2] العينين، ورقة الأنف، ونقاء البياض، قلنا له: في أنواع المباحات ما يكفي في العبرة، ها هنا ميل طبعك يشغلك عن الفكرة ولا يدع لبلوغ شهوتك وجود فكرة. فإن ميل الطبع شاغل عن ذلك، وكذا من قال: إن هذا الغناء المطرب المزعج للطباع المحرك لها إلى العشق وحب الدنيا لا يؤثر عندي ولا يلفت قلبي إلى حب الدنيا الموصوفة فيه، فإنا نكذبه لموضع اشتراك الطباع.

---

(١) وافى أتى. ولا أدري كيف يسمون هذا العشق الحيواني المفضوح بالحب الالهي؟!
(٢) العين الدعجاء: الواسعة الشديدة السواد.

ثم إن كان قلبه بالخوف من اللّه عز وجل غائباً عن الهوى لا حضر هذا المسموع الطبع، وان كانت قد طالت غيبته في سفر الخوف. وأقبح القبيح البهرجة، ثم كيف تمر البهرجة على من يعلم السر وأخفى؟! حتى قال أبو حامد الغزالي: إن التشبيب بوصف الخدود، والأصداغ، وحسن القد، والقامة، وسائر أوصاف النساء: الصحيح أنه لا يحرم[1].

فأما من قال: إني لا أسمع الغناء للدنيا وإنما آخذ منه إشارات فهو يخطىء من وجهين: أحدهما ـ أن الطبع يسبق إلى مقصوده قبل أخذ الإشارات فيكون كمن قال: اني أنظر إلي هذه المرأة المستحسنة لأتفكر في الصنعة. والثاني ـ أنه يقل فيه وجود شيء يشار به إلى الخالق وقد جل الخالق، تبارك وتعالى أن يقال في حقه إنه يعشق، ويقع الهيمان به. وإنما نصيبنا من معرفته الهيبة والتعظيم فقط، وإذ قد انتهت النصيحة فنذكر ما قيل في الغناء.

ثم ذكر الإمام ابن الجوزي آراء أئمة المذاهب رحمهم اللّه تعالى فكلهم قالوا: بتحريم الغناء المقرون بالمعازف، أو الخالي منه ولكنه يصف النساء والخمور.

## ذكر الأدلة على كراهية الغناء والنوح والمنع منهما

قال المصنف: وقد استدل أصحابنا بالقرآن والسنة والمعنى.

فأما الاستدلال من القرآن فبثلاث آيات. الآية الأولى قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ﴾ (لقمان: ٦) قال ابن مسعود: هوالغناء.

وعن اسماعيل عن سعيد بن يسار، قال: سألت عكرمة عن لهو

---

(١) وهذا من أخطائه!

الحديث قال: هو الغناء. وكذلك قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة وابراهيم النخعي.

الآية الثانية قوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ﴾ (النجم: ٦١) عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ﴾ قال: هو الغناء بالحميرية: سمدلنا: غنِّ لنا. وقال مجاهد: هو الغناء يقول أهل اليمن: سمد فلان: إذا غنى.

الآية الثالثة قوله عز وجل: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ (الاسراء: ٦٤).

وعن سفيان الثوري عن ليث عن مجاهد: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك»، قال: هو الغناء والمزامير.

أما السنة - فعن نافع عن ابن عمر رضي اللّه عنه: أنه سمع صوت زمارة راع فوضع اصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع أتسمع فأقول: نعم فيمضي، حتى قلت: لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول اللّه ﷺ سمع زمارة راع فصنع مثل هذا[1].

قال المصنف رحمه اللّه: إذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال فكيف بغناء أهل الزمان وزمورهم؟!

وعن عطاء بن عمر، قال: «دخلت مع رسول اللّه ﷺ فإذا ابنُه ابراهيم يجود بنفسه، فأخذه رسول اللّه ﷺ فوضعه في حجره، ففاضت عيناه: فقلت: يارسول اللّه أتبكي وتنهانا عن البكاء؟ فقال: لست أنهي عن البكاء إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة لعب ولهو

---

(١) روى أحمد وأبو داود نحوه بزيادة: قال نافع: فكنت إذا ذاك صغيراً. وسنده حسن (مم).

ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة ضرب وجه وشق جيوب ورنة شيطان»[1].

**(وأما الآثار)** فقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل، وقال: إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه الشيطان. وقال: تغنه. فإن لم يحسن، قال له: تمنه[2]. ومر ابن عمر رضي اللّه عنه بقوم محرمين وفيهم رجل يتغنى. قال: ألا لأسمع اللّه لكم. ومر بجارية صغيرة تغني، فقال: لو ترك الشيطان أحدا لترك هذه. وسأل رجل القاسم بن محمد عن الغناء. فقال: أنهاك عنه وأكرهه لك، قال: أحرام هو؟ قال: انظر يا ابن أخي إذا ميز اللّه الحق من الباطل ففي أيهما يجعل الغناء؟ وعن الشعبي. قال: لعن المغني والمغنى له. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن جل وعز، فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب. ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه. وقال فضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا، وقال الضحاك: الغناء مفسدة القلب مسخطة للرب. وقال يزيد بن الوليد: يابني أمية إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا.

قلت: وكم قد فتنت الأصوات بالغناء من عابد وزاهد، وقد ذكرنا جملة من أخبارهم في كتابنا المسمى بـ «ذم الهوى».

---

(١) سبق تخريجه وهو صحيح، وصح أيضاً كما جاء في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١/١٠٩): «ليكونن في امتي أقوام يستحلون الحر، والحرير والخمر، والمعازف. الحديث. والحر: الزنا. وقوله: «يستحلون» فإنه صريح بأن المذكورات ومنها المعازف هي في الشرع محرمة، فيستحلها أولئك الأقوام.

(٢) من التمني، وتمنى الحديث: اختلفه.

وقد أخبرنا أبو القاسم الحريري عن أبي طالب الطبري، قال: قال بعضهم: إنا لا نسمع الغناء بالطبع الذي يشترك فيه الخاص والعام، قال: وهذا تجاهل منه عظيم لأمرين: أحدهما أنه يلزمه على هذا أن يستبيح العود والطنبور وسائر الملاهي، لأنه يسمعه بالطبع الذي لا يشاركه فيه أحد من الناس، فإن لم يستبح ذلك فقد نقض قوله. وان استباحه فقد فسق. والثاني أن هذا المدعي لا يخلو من أن يدعي أنه فارق طبع البشر وصار بمنزلة الملائكة، فإن قال هذا فقد تخرص على طبعه، وعلم كل عاقل كذبه إذا رجع إلى نفسه، ووجب أن لا يكون مجاهداً لنفسه ولا مخالفاً لهواه، ولا يكون له ثواب على ترك اللذات والشهوات. وهذا لا يقوله عاقل، وإن قال: أنا على طبع البشر المجبول على الهوى والشهوة. قلنا له: فكيف تسمع الغناء المطرب بغير طبعك أو تطرب لسماعه لغير ما غرس في نفسك؟

سئل أبو علي الروذباري عمن سمع الملاهي ومن يقول: هي لي حلال لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال، فقال: نعم. قد وصل لعمري ولكن إلى سقر!

قال المصنف رحمه اللّه: فإن قيل: قد بلغنا عن جماعة أنهم سمعوا من المنشد شيئاً فأخذوه على مقصودهم فانتفعوا به؛ قلنا: لا ينكر أن يسمع الإنسان بيتاً من الشعر أو حكمة فيأخذها إشارة فتزعجه بمعناها، لا لأن الصوت مطرب كما سمع بعض المريدين صوت مغنية تقول:

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

فصاح ومات، فهذا لم يقصد سماع المرأة ولم يلتفت إلى التلحين، وإنما قتله المعنى، ثم ليس سماع كلمة أو بيت لم يقصد سماعه كالاستعداد لسماع الأبيات المذكورة الكثيرة المطربة مع انضمام الضرب بالقضيب والتصفيق إلى غير ذلك، ثم إن ذلك السامع لم يقصد السماع، ولو سألنا هل يجوز لي أن أقصد سماع ذلك منعناه.

قال المصنف رحمه الله: وقد احتج لهم أبو حامد الغزالي بأشياء نزل فيها عن رتبته عن الفهم مجموعها أنه قال: ما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس. وجواب هذا ما قد أسلفناه. وقال: لا وجه لتحريم سماع صوت طيب، فإذا كان موزوناً فلا يحرم المجموع. فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان المجموع مباحاً. قال: ولكن ينظر فيما يفهم من ذلك، فإن كان شيء محظور حرم نثره ونظم. وحرم التصويت به.

قال المصنف رحمه الله: قلت: وإني لأتعجب من مثل هذا الكلام، فإن الوتر بمفرده أو العود وحده من غير وتر ولو ضرب لم يحرم ولم يطرب، فإذا اجتمعنا وضرب بهما على وجه مخصوص حرم وأزعج. وكذلك ماء العنب جائز شربه وإذا حدثت فيه شدة مطربة حرم. وكذلك هذا الموضوع يوجب طرباً يخرج عن الاعتدال فيمنع منه لذلك.

وقال ابن عقيل: الأصوات على ثلاثة أضرب محرم ومكروه ومباح. فالمحرم الزمر والناي والسرنا والطنبور والمعزفة والرباب وما ماثلها. نص الإمام أحمد بن حنبل على تحريم ذلك. ويلحق به الجرافة[1] والجنك لأن هذه تطرب فتخرج عن حد الاعتدال وتفعل في طباع الغالب من الناس ما يفعله المسكر، وسواء استعمل على حزن يهيجه أو سرور، لأن النبي ﷺ نهى عن صوتين أحمقين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة. والمكروه القضيب لكنه ليس بمطرب في نفسه وإنما يطرب بما يتبعه وهو تابع للقول، والقول مكروه. ومن أصحابنا من يحرم القضيب كما يحرم آلات اللهو فيكون فيه وجهان كالقول[2] نفسه. والمباح الدف، وقد ذكرنا عن أحمد أنه قال: أرجو أن لا يكون بالدف بأس في العرس ونحوه وأكره الطبل. وقد قال أبو حامد: من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فالسماع في حقه مؤكد لعشقه.

---

(١) في نسخة (الحراية) وهذه كلها اسماء لآلات الملاهي، وفي نسخة «الجرانة».

(٢) وفي نسخة: كالعود.

قلت: وهذا قبيح أن يقال عن اللّه عز وجل يعشق، وقد بينا فيما تقدم خطأ هذا القول ثم أي توكيد لعشقه في قول المغني:

ذهبي اللون تحسب من وجنتيه النار تقتدح

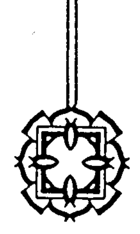
قال المصنف رحمه اللّه: قلت: وسمع ابن عقيل بعض الصوفية يقول: إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعهم حداها الحادي إلى اللّه بالأناشيد، فقال ابن عقيل: لا كرامة لهذا القائل إنما تحدى القلوب بوعد اللّه في القرآن ووعيده وسنة الرسول ﷺ لأن اللّه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَـٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ (الأنفال: ٢) وما قال: وإذا أنشدت عليه القصائد طربت. فأما تحريك الطباع بالألحان فقاطع عن اللّه، والشعر يتضمن صفة المخلوق والمعشوق مما يتجدد عنه فتنة. ومن سولت له نفسه التقاط العبر من محاسن البشر وحسن الصوت فمفتون. بل ينبغي النظر إلى المحال التي أحالنا عليها الابل والخيل والرياح ونحو ذلك، فإنها منظورات لا تهيج طبعاً بل تورث استعظاماً للفاعل، وإنما خدعكم الشيطان فصرتم عبيد شهواتكم، ولم تقفوا حتى قلتم هذه الحقيقة، وأنتم زنادقة في زي عباد، شرهين في زي زهاد، مشبهة تعتقدون أن اللّه عز وجل يعشق ويهام فيه، وبئس التوهم، لأن اللّه عز وجل خلق الذوات مشاكلة(١) لأن أصولها مشاكلة فهي تأنس وتتألم بأصولها العنصرية وتراكيبها المثلية في الأشكال الحديثة. فمن ها هنا جاء التلاؤم والميل وعشق بعضهم بعضاً. وعلى قدر التقارب في الصورة يتأكد الأنس، والواحد منا يأنس بالماء لأن فيه ماء، وهو بالنبات آنس لقربه من الحيوانية بالقوة النمائية، وهو بالحيوان آنس لمشاركته في أخص النوع به أو أقربه إليه، فأين المشاركة للخالق والمخلوق حتى يحصل الميل إليه والعشق والشوق؟ وما الذي بين الطين والماء وبين خالق السماء من المناسبة، وإنما هؤلاء يصورون الباري سبحانه وتعالى صورة تثبت في القلوب وما ذاك اللّه عز وجل، ذاك صنم شكله الطبع والشيطان، وليس للّه وصف تميل إليه

---

(١) متماثلة: يشبه بعضها بعضاً.

الطباع ولا تشتاق إليه الأنفس وإنما مباينة الالهية للمحدَث أوجبت في الأنفس هيبة وحشمة، فما يدعيه العشاق الصوفية للّه في محبة اللّه إنما هو وهم اعترض، وصورة شكلت في نفوس فحجبت عن بعادة القديم فتجدد بتلك الصورة أنس، فإذا غابت بحكم ما يقتضيه العقل أقلقهم الشوق إليها، فنالهم من الوجد وتحرك الطبع والهيمان ما ينال الهائم في العشق، فنعوذ باللّه من الهواجس والعوارض الرديئة التي يجب بحكم الشرع محوها عن القلوب كما يجب كسر الأصنام!





# كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، والأمر الذي اتبعث اللَّه له النبيين أجمعين، لو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله، لفشت الضلالة وشاعت الجهالة، وخربت البلاد، وهلك العباد، فنعوذ باللَّه أن يندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وأن ينمحي بالكلية رسمه وحقيقته، وأن تستولي على القلوب مداهنة الخلق، وتنمحي عنها مراقبة الخالق، وأن يسترسل الناس في أتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وأن يعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، فلا معاذ إلا به، ولا ملجأ إلا إليه.

## ينحصر هذا الكتاب في مقاصد

## وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله

دل على ذلك من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤) بيان الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، وإذا حصر بقوله: ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية[1] لا فرض عين، وأنه إذا قام به واحد سقط الفرض عن الآخرين، قال تعالى:

(١) كيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وقد جاء في الحديث الصحيح: =

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (التوبة: ٧١) فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف، فالذي هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية. وقال تعالى: ﴿لعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون﴾ (المائدة: ٧٨ - ٧٩).

وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر، وقال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بيَّن أنهم كانوا خير أمة. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ ، وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٥)، فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة: ٢)، وهو أمر جزم.

ومعنى التعاون الحث عليه، وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: ٦٣) فبين أنهم أثموا بترك النهي. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (هود: ١١٦) فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد. وقال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين، وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ، أَوْ مَعْرُوفٍ، أَوْ إِصْلَاحٍ

---

= «من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم في رواية صحيحة: «وليس وراء ذلك حبة خردل من الايمان!».

بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٤).

ومن الأخبار ما جاء عن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم اللّه بعقاب»[1] وقد صح في ذلك من الأحاديث ما لا يحصى[2]. وبهذه الأدلة يظهر كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً وان فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به.

**(أما الآثار)** سئل حذيفة رضي اللّه عنه عن ميت الأحياء، فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه.

وقال حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه: يأتي على الناس زمان، لأن تكون فيهم جيفة حمار، أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم.

---

(١) رواه أبو داود وغيره وسنده صحيح (مم).

(٢) ساق الغزالي أحاديث عديدة ولكنها لا تصح ونذكر فيما يلي بعض الأحاديث الصحيحة: قال النبي ﷺ: «مثل المداهن في حدود اللّه، والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأساً، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟! قال: تأذيتم بي، ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وأن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» رواه البخاري (والمداهن: المداهن المتساهل).

وقال النبي ﷺ: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان! ما شأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر، وآتيه» رواه البخاري ومسلم وتندلق: تخرج سريعاً.

وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن اللّه أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم» رواه الترمذي وسنده حسن (مم).

وقال النبي ﷺ: «إذا عملت الخطيئة في الأرض، من شهدها، فكرهها، كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها، فرضيها كان كمن شهدها» رواه أبو داود وسنده حسن (مم).

## الشروط التي بها يتحقق التصدي للانكار

**(الأول كونه منكراً)** وهو ما كان محذور الوقوع في الشرع، ولفظ المنكر أعم من لفظ المعصية، فإن من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق الخمر. وكذلك إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة، أو بهيمة أن يمنعه منه، وليس ذلك معصية في حق المجنون، ولا يختص المنكر بالكبائر، بل كشف العورة في الحمام، والخلوة بالأجنبية، وأتباع النظر للنسوة الأجنبيات، كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها.

**(الثاني)** أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسس، فكل من ستر معصية في داره، وأغلق بابه لا يجوز الدخول عليه بغير إذنه، لتعرف المعصية، ولا أن يتجسس عليه وقد نهى اللّه تعالى عنه في قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ (الحجرات: ١٢).

**(الثالث)** أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا نكران فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي ما هو من مجاري الاجتهاد يعني المسائل المختلفة فيها بين الأئمة[١]، إذ لا يعلم خطأ المخالف قطعاً بل ظناً، فلا بد أن يكون المنكر متفقاً عليه[٢]، وكذا إنما ينكر على الفرق المبتدعة في خطئهم المعلوم على القطع، بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد.

## درجات القيام بالإنكار

**(الأولى التعريف)** أي تعريف المزجور أن ما يفعله منكر، فإنه قد يقدم عليه بجهله، فلعله إذا عرف أنه منكر تركه فيجب تعريفه باللطف من غير عنف، فإن في التعنيف كشفاً للعورة وإيذاء للقلب، فلا بد وأن يعالج دفع

(١) كل ذلك إذا لم يكن هناك دليل من كتاب أو سنة، وإذا وجد فتنبغي المسارعة للرجوع إليه كما أمر اللّه تعالى ورسوله ﷺ وأوصانا به جميع ائمة المذاهب رحمهم الله.

(٢) وهو ما عليه دليل من قرآن أو سنة صحيحة.

أذاه بلطف فيقول له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين، فعلمنا العلماء، فالصواب هو كذا وكذا، فيتلطف به هكذا ليحصل التعريف من غير إيذاء، فإن المسلم حرام محذور، كما أن إقراره على المنكر محظور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم، أو بالبول ومن آذى بالإنكار فهذا مثاله.

**(الدرجة الثانية)** النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقوم على الأمر، وهو عالم بكونه منكراً، كالذي يواظب على الشراب أو على الظلم، أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى. وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكي له سيرة السلف وعبادة المتقين. وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه.

**(الدرجة الثالثة)** التعنيف بالقول الغليظ، وذلك عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادىء الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**أُفٍ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (الأنبياء: ٦٧) ولا يفحش في سبه، ولهذه الرتبة أدبان:

**(أحدهما)** أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف.

**(والثاني)** أن لا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه فيطيل لسانه بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة.

**(الدرجة الرابعة)** التغيير باليد، كإراقة الخمر، وإتلاف المنكر أو دفعه عن محرَّم، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وأما الإراقة والإتلاف فإلى الولاة ومأذونيهم كالضرب والحبس.

## آداب القائم بالأمر والنهي

جملتها ثلاث صفات: العلم، والورع، وحسن الخلق.

**(أما العلم)** فليعلم مواقع الأمر والنهي، ليقتصر على حد الشرع فيه.

(وأما الورع) فليردعه عن مخالفة معلومة، ولا يحمله على مجاوزة الحد المأذون شرعاً غرض من الأغراض، وليكن كلامه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا أمر ونهى ويورث ذلك جراءة عليه.

(وأما حسن الخلق) فليتمكن به من اللطف والرفق، وهو أصل الباب وأساسه.

والعلم والورع لا يكفيان، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه، ما لم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق، وبوجود هذه الصفات الثلاث يصير الإرشاد من القربات، وبه تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر. وقد حكي أن المأمون وعظه واعظ وعنف له في القول، فقال: يارجل ارفق، فقد بعث اللّه من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٤) فليكن اقتداء المرشد في الرفق، بالأنبياء صلوات اللّه عليهم.

## المنكرات المألوفة في العبادات

## منكرات المساجد

أعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة ومحظورة، فإذا قلنا هذا منكر مكروه، فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه، وليس بحرام، وإذا قلنا: منكر محظور، أو قلنا: منكر مطلقاً، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً.

فمما يشاهد كثيراً في المشاهدة إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث، فيجب النهي عنه: ومن رأى مسيئاً في صلاته فسكت عليه فهو شريكه.

(ومنها) قراءة القرآن قراءة ملحونة، فيجب النهي عن ذلك، وتلقين

الصحيح، والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادراً على التعلم، فليمنع من القرءة قبل التعلم فإنه عاص به.

**(ومنها)** تراسل المؤذنين في الأذان، وتطويلهم بمد كلماته، فذلك منكر مكروه.

**(ومنها)** كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم الكذب والأضاليل والخرافات، فيجب الإنكار عليهم.

**(ومنها)** التحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه، فكل ذلك منكر يمنعون منه.

**(ومنها)** بيع الأطعمة والأدوية والكتب وكذا الخياطة فيطلب المنع منه لأن المساجد لم تبن لهذا.

**(ومنها)** دخول المجانين ـ المعروفين الآن بالمجاذيب ـ والصبيان[1] والسكارى فإنهم يجنبون المساجد. وقد أوسعنا الكلام على منكرات المساجد وبدعها وعوائدها في كتاب أفردناه لذلك، فليرجع إليه من أراد[2].

---

(١) أن هذا القول باطل! ومستنده حديث: «جنبوا مساجدكم صبيانكم، ومجانينكم» قال المناوي في «فيض القدير» ضعفه الزين العراقي، وابن حجر، وأورده ابن الجوزي في «الواهيات» وقال ابن حجر في تاريخ الهداية: له طرق كلها واهية. وقال عبد الحق: لا أصل له اهـ، وهذا الخبر الفاسد يصطدم مع العديد من الأحاديث الصحيحة في تشجيع الرسول ﷺ للآباء والأمهات على إدخال ابنائهم المسجد، وكان الصحابة يكرمون الأطفال فيه، ويضعون عذق التمر لهم ولغيرهم يأكلون منه، وقد كان ﷺ يسمح للأمهات بإدخال حتى أولادهن الرضع إلى المسجد، وإذ صح عدم دخول المجانين، فما ذنب الأطفال، وهم رجال المستقبل؟!

ومما يؤسف له ويبعث في النفس الأسى أن هذا الخبر السيء، لا يزال يتحكم في مساجد المسلمين، فنرى خدم المسجد ورواده المغفلين يطردون الأطفال من المساجد بدلاً من حسن استقبالهم والصبر على أذاهم ونصحهم باللين والحسنى..

(٢) وهو كتاب قيم طبع أخيراً محققاً، يجدر بكل غيور على الاسلام الصحيح مطالعته، وهو للشيخ ـــ

(ومنها) إذا كان للمسجد مؤذن واحد، وهو يؤذن قبل الصبح، فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس[1].

## منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها كذا، وكان كاذباً فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته، وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه، وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم، وهو حرام، وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه، تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره.

---

القاسمي رحمه الله تعالى، وكان يجدر أن يذكره في الهامش.

(١) وهناك بدع كثيرة أغفلها الغزالي نذكر منها زخرفة المساجد باضاعة أموال المسلمين، وهي تصرف الناس عن عبادتهم والسماع لخطبائهم ومدرسيهم، ومن هذه البدع: رفض الجماعة الأولى انتظاراً للثانية، وانفراد المصلين للوتر عن الاقتداء بامام التراويح المخالف مذهبهم، مع أنه صح عن النبي ﷺ، وكثرة المساجد في المحلة الواحدة، ناسين وجوب توسعه المسجد العتيق إذا ضاق خشية على تفريق المسلمين، وزيادة التنوير في رمضان خوفاً من التشبه بعباد النار، ومنعاً للاسراف، ورفع الصوت في المسجد بذكر أو غيره تخلصاً من التشويش على المصلي وتالي القرآن لنفسه، والتحالق لحديث الدنيا في المسجد. قال النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان يحلقون في مساجدهم، وليس همهم إلا الدنيا، وليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم» وهو حديث حسن كما قال محقق الأحاديث الصحيحة.

كتابة آيات وغيرها في الجدار القبلي لحديث: «لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي» رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح. الأعراض عن سماع الخطبة، ومجالس العلم. القيام للصلاة بعد الخطبة الأولى! سكني المساجد وترك السعي للرزق. بيع الكتب وغيرها في المساجد. التخلف عن صلاة الجماعة، ترك السلام عند لقاء المتوضىء وعند اللقاء به بعد الصلاة.

**(ومنها)** بيع الملاهي وتلبيس انخراق الثياب بالرفق، وكل ما يؤدي إلى التلبيسات، وذلك يطول إحصاؤه، فليقس بما ذكرناه ما لم نذكره.

## منكرات الشوارع

من المنكرات المعتادة فيها وضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق وإخراج الأجنحة، فكل ذلك منكر، وإن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق، فلا يمنع منه، نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة، ولا يمكن المنع منه.

وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المتازين، منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب، وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة، وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة.

والمرعي هوالحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات. ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس، فذلك منكر، إلا إن أمكن شدها وضمها حتى لا تمزق، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل. وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه، منكر يجب منع الملاك منه، وكذلك طرح القمامة على جوار الطرق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعصر، كل ذلك من المنكرات. وكذلك إرسال الماء من الميازيب المتخرجة من الحائط في الطريق الضيقة، فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق، وكذلك الثلج الذي يطرحه شخص في الطريق، والماء الذي يجتمع فيه من ميزاب معين، فعلى الأول والثاني كسح الطريق منهما.

وأما مياه المطر فذلك على محتسبي البلدة كسحها من الطريق، وكذلك

إذا كان له كلب[1] عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه.

## منكرات الحمامات

**(منها)** كشف العورات والنظر إليها، ومنها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها.

**(ومنها)** الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز، فهذا مكروه، ان كان مع حائل، ولا يحرم إلا إذا خشي حركة الشهوة.

**(ومنها)** أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون، فهذا منكر ويجب قلعه وإزالته، وينكر على الحمامي إهماله، فإنه يفضي إلى السقطة، وقد تؤدي إلى انكسار عضو أو انخلاعه، وكذلك ترك الصابون على أرض الحمام منكر، وفي الحمام أمور أخر مكروهة ذكرت في كتاب الطهارة.

## منكرات الضيافة

**(منها)** فرش الحرير للرجال وتبخير البخور في مجمرة ذهب أو فضة، والشرب في أواني الفضة.

**(ومنها)** سماع القينات، أي النساء المغنيات.

**(ومنها)** أن يكون الطعام حراماً أو الموضع مغصوباً.

**(ومنها)** أن يكون فيها من يتعاطى شرب الخمر، فلا يجوز الحضور،

---

(١) لا يجوز اقتناء الكلاب إلا لضرورة كالحراسة والصيد لقوله ﷺ: «من اقتنى كلباً، إلا كلب صيد وما أشبه، وفي رواية ـ كلب حرس ـ فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان» رواه البخاري ومسلم وغيرهما وذلك لخطره الصحي الذي ثبت حديثاً.

وان كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر، فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور، ويجب الإنكار عليه، وإن كان ذلك بمزح لا كذب ولا فحش فهو مباح، أعني ما يقل منه فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح.

**(ومنها)** الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر، بل في المال منكران: **(أحدهما)** الإضاعة. **(والآخر)** الإسراف، فالإضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه، وفي معناه صرف المال إلى النائحة، والمنكرات، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها، ولكن مع المبالغة، والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال قال تعالى: **﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾** (الاسراء: ٢٩) وقال تعالى: **﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً، إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُوراً﴾** الاسراء: ٢٦ و٢٧) وقال تعالى: **﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾** (الفرقان: ٦٧) فمن لم يملك إلا مئة دينار مثلاً ومعه عياله وأولاده، ولا معيشة لهم سواه، فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه منه، كذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه، فهو أيضاً إسراف محرم، وأما فعل ذلك ممن له كثير فليس بحرام، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة[1]، وكذلك القول في التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه، وتصير إسرافاً باختيار حال الرجل وثروته.

## المنكرات العامة

أعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان، فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف،

---

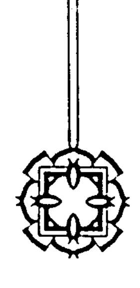
(١) كل ذلك محرم إذا أدى إلى إضاعة المال سدى، وما أضاع الاندلس وأدى إلى سفك دماء المسلمين فيها مثل إضاعة الأموال على الزخارف والنقوش بينما كان عدوهم يتربص بهم الدوائر ويستعد لهم، حتى انقض عليهم ومزقهم كل ممزق..

فأكثر الناس جاهلون بالشرع في البلاد، فكيف في القرى والبوادي، فواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة في البلد، فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرع لفرض الكفاية، وان يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد، والعربان ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين.

وبالجملة فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته[1]، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ثم إلى أهل البوادي، وهكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا خرج به كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً.

---

(١) إن هذا الترتيب حسن إذا قدر عليه المسلم وتيسر له، وإلا لم يوجب عليه، فإن نوحاً ولوطاً عليهما السلام لم يتقاعسا عن دعوة قومهما مع عدم تلبية بعض اهليهما لهما. والرسول ﷺ كفر به بعض أقاربه، فلم ينتظر حتى يؤمنوا، بل تركهم ودعا سائر قومه..



# كتاب الصفات النبوية والأخلاق المحمدية

## بيان تأديب اللَّه تعالى صفيه محمداً صلوات اللَّه عليه بالقرآن

كان رسول اللَّه ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من اللَّه تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللهم حسن خَلقي وخُلقي»[1] ويقول: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق»[2] فاستجاب اللَّه دعاءه وفاء بقوله تعالى: ﴿إدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) فأنزل عليه القرآن وأدبه، فكان خُلقه القرآن وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩٠) وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧) وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣) وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤) وقوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٤) وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ (الحجرات: ١٢).

---

(١) رواه أحمد بلفظ: «اللهم حسنت خلقي، فأحسن خلقي» واسناده صحيح (مم).

(٢) رواه الترمذي والطبراني والحاكم بلفظ: «اللهم أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء» واسناده صحيح (مج).

وأمثـال هذه التـأديبات في القـرآن لا تحصر، وهـو ﷺ المقصـود الأول بالتأديب والتهذيب فإنه أدب بالقرآن، وأدب الخلق به[1]، ولذلك قـال النبي ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2].

ومن ذلك حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة ولين الجانب، وبذل المعروف وإطعـام الطعـام وإفشاء السـلام، وعيادة المـريض، وتشييـع الجنـازة وحسن الجوار لمن جاور مسلماً كـان أو كافـراً، وتوقـير ذي الشيبة، وإجـابة الـطعام، والدعاء عليه، والعفو، والاصـلاح بين النـاس، والجود والكـرم والسماحـة، وكـظم الغيظ، واجتنـاب المحـارم، والغيبـة، والكـذب، والبخـل والشـح، والجفـاء والمكر، والخـديعة، والنميمـة، وسوء ذات البـين وقطيعـة الأرحام، وســوء الخلق، والتكبـر، والفخـــر، والاختيـال، والاستــطالـة، والبــذخ، والفحش، والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعدوان، والظلم.

قال أنس رضي اللّه عنه: فلم يـدع - أي الإسلام - نصيحـة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها، ولم يدع غشاً أو عيباً إلا وحـذرنا منـه ونهانا عنـه، ويكفي من ذلك كله هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَـاءِ ذِي القُـربَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَـآءِ وَالْمُنْكَرِ وَالبَـغْيِ يَـعِظُكُمْ لَـعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

## أسماء الرسول ﷺ

عن جُبير بن مُطعم قـال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن لي أسـماء: أنا

(١) على الغالب، فإن المسلمين مكلفون بالقرآن أيضاً.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وهو حديث صحيح (مم).

(٣) نكتفي بما سبق من النقل عن «موعظة المؤمنين» في سيرة الرسول ﷺ. فقـد ذكر الملخص جملة من محاسن! خلاقه ﷺ نقلاً عن «الاحياء» وفيها الصحيح وفيها غـير الصحيح، وتحقيق ذلـك من الصعب، لذا آثرنـا نقل بعض صفـاته ﷺ من الصحيحـين، كما نقلنـا بعض أخلاقـه من كتـاب «صحيح الجـامع الصغـير وزياداتـه (الفتح الكبـير)، وهي مسندة في المصـدر السابق، وكلها صحيحة أو حسنة، كما قال محققه، فمن أراد زيادة التحقيق فليرجع إليه في آخـر المجلد الرابع.

محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللَّه بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه، قال: كان رسول اللَّه ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي[2]، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[3].

وعن جابر، قال النبي ﷺ: «سموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي، فإني بعثت قاسماً، أقسم بين الناس»[4].

## صفاته[5] ﷺ

عن جابر بن سمرة، قال: كان رسول اللَّه ﷺ شمط مقدم رأسه

---

(١) العاقب الذي ليس بعده نبي. رواه البخاري ومسلم.

(٢) أي آخر الأنبياء.

(٣) رواه مسلم.

(٤) وسنده صحيح (مج).

(٥) لقد رأينا التوسع قليلاً في ذكر صفاته ووصف صورته ﷺ ليتخيلها المسلم، وليكون على بينة من الأمر فيما يتعلق برؤيته في المنام، وما يترتب عليها، فقد وقع الكثيرون في جهالات ومحظورات عدة بسببها، كأن يزعموا أنهم رأوا رسول اللَّه ﷺ في الرؤيا وأخبرهم بأمور قد تخالف الكتاب والسنة، فيسارعوا إلى تنفيذها مستدلين بالحديث الصحيح: «من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة. فإن الشيطان لا يتمثل بي» رواه البخاري ومسلم.

وقد نسي هؤلاء الراؤون أو تناسوا أمرين هامين:

الأمر الأول: إن هذه الرؤيا المنامية التي لا يتمثل بها الشيطان مقيدة بأن تكون وفق ما جاء في وصف صورته ﷺ في كتب السيرة الصحيحة. أما إذا كانت في غير هذا الوصف وغير هذه الصورة فتكون رؤيا شيطان يوهم أنه رسول اللَّه ﷺ فالحذر الحذر. وقد ذكر الإمام الجيلاني أن الشيطان زعم له بأنه اللَّه فكيف لا يزعم له في المنام بأنه رسول اللَّه ﷺ؟!

الأمر الثاني: قال الإمام ابن الحاج رحمه الله تعالى: ﴿وليحذر﴾ مما يقع لبعض الناس في هذا الزمان وهو أن يرى النبي ﷺ في منامه فيأمره بشيء أو ينهاه. عن شيء فينتبه من نومه، فيقدم على فعله أو تركه بمجرد المنام دون أن يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى

ولحيته، وكان إذا ادَّهن لم يتبين(1)، وإذا شعبت رأسه تبـين. وكان كثـير شعر اللحية، فقال رجـل: وجهه مثـل السيف قال ـ أي جـابر ـ لا بـل كان مثـل الشمس والقمر، وكان مستديراً، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده(2).

وعن أنس، قـال: كـان رسـول اللّه ﷺ ليس بـالـطويـل البـائن، ولا بالقصير، وليس بـالأبيض الأمهق(3) ولا بالآدم(4)، وليس بـالجعد القـطط(5) ولا بالسبط(6). الحديث».

---

قواعد السلف رضي الله عنهم. قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ فمعنى قوله: ﴿فردوه إلى اللّه﴾ أي إلى كتاب الله تعالى، ومعنى قوله: ﴿وإلى الرسول﴾ أي إلى الرسول في حياته، وإلى سنته بعد وفاته».

هـذا وإن كانت رؤيـا النبي ﷺ حقاً لا شـك فيها (للحـديث السابق (لكن) لم يكلف الله تعالى عباده بشيء مما يقع لهم في منامهم (قال) ﷺ: رفع القلم عن ثلاث وعد فيها النائم حتى يستيقظ، لأنه إذا كان نائماً فليس من أهـل التكليف فلا يعمـل بشيء يراه في منـامه هـذا وجه (ووجـه ثان) وهـو أن العلم والروايـة لا يؤخذان إلا من متيقظ حـاضر العقـل، والنـائم ليس كذلك (ووجه ثالث) وهو أن العمل في المنام مخالف لقـول صاحب الشـريعة ﷺ حيث قـال: تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتـاب الله وسنتي، فجعل ﷺ النجاة من الضلالـة في التمسك بهذين الأصلين اللذين لا ثالث لهما، ومن اعتمـد على مـا يراه في منـامه فقـد زاد لهما ثالثاً.

(فعلى هذا من رأى النبي ﷺ في منامه وأمره بشيء أو نهاه عن شيء فيتعين عليه عرض ذلك عـلى الكتاب والسنـة إذ أنه ﷺ إنمـا كلف أمته بـأتباعهـما وقد قـال ﷺ: «ألا فليبلغ الشاهـد الغائب. الحديث. . » فإذا عرضها على شريعته فإن وافقتها علم أن الـرؤيا حق، وان الكـلام حق وتبقى الرؤيا تأكيد له، وإن خالفتها علم أن الرؤيا غير حق، وأن الكلام الذي وقـع فيه ألقاه الشيطان له في ذهنه والنفس الامارة بالسوء، لأنهما يوسوسان له في حال يقـظته فكيف في حال نومه؟!

هذا ـ وإن الرؤيا تكون غالباً رمزية، وليست صريحة، كرؤيا ملك مصر، فأين مثل يـوسف عليه السلام في تأويلها وتفسيرها؟!

(1) أي لم يظهر الشيب.

(2) رواه مسلم.

(3) الذي بياضه خالص لا تشوبه حمرة ولا غيرها.

(4) الآدم من الناس: الأسمر.

(5) الشديد الجعودة.

(6) المسترسل.

وفي رواية يصف النبي ﷺ قال: كان ربعة من القوم، ليس بالطويل، ولا بالقصير، أزهر اللون، وقال: كان شعر رسول اللّه ﷺ إلى أنصاف أذنيه وعاتقه[١].

وفي رواية البخاري، قال: كان ضخم الرأس والقدمين، لم أر بعده ولا قبله مثله، وكان سبط الكفين. وفي أخرى قال: كان شثن[٢] القدمين والكفين.

وعن البراء، قال: كان رسول اللّه ﷺ مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، له شعر بلغ شحمة أذنيه، رأيته في حُلة حمراء، لم أر شيئاً قط أحسن منه[٣].

وفي رواية لمسلم، قال: ما رأيت من ذي لمة أحسن في حلة حمراء من رسول اللّه ﷺ شعره يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير.

وعن جابر بن سمرة، قال: كان رسول اللّه ﷺ ضليع الفم، أشكل العينين، منهوش العقبين (م) قيل لسماك: ما ضليع الفم؟ قال عظيم الفم، قيل: ما أشكل العينين؟ قال: طويل شق العينين. قيل ما منهوش العقبين؟ قال: قليل لحم العقب.

وعن ثابت، قال: سئل أنس عن خضاب رسول اللّه ﷺ فقال: إنه لم يبلغ ما يخضب، لو شئت أن أعد شمطات لحيته ـ وفي رواية ـ: لو شئت أن أعد شمطات كن في رأسه، فعلت[٤].

وفي رواية لمسلم، قال: إنما كان البياض في عنفقته، وفي الصدغين، وفي الرأس نبُذ[٥].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) أي انهما تميلان إلى الغلظ والقصر، وهو محمود في الرجال، لأنه أشد لقبضهم.

(٣) و(٤) رواهما البخاري ومسلم.

(٥) أي شيء يسير.

وعن أنس، قال: كان رسول اللّٰه ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، وما مسست ديباجة، ولا حريراً ألين من كف رسول اللّٰه ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة النبي ﷺ[1].

١ ـ كان شبح الذراعين، بعيد ما بين المنكبين.

٢ ـ كان شعره دون الجمة، وفوق الوفرة.

٣ ـ كان شيبه نحو عشرين شعرة.

٤ ـ كان ضخم الرأس، واليدين، والقدمين.

٥ ـ كان ضخم الهامة عظيم اللحية.

٦ ـ كان كثير العرق (م).

٧ ـ كان كثير شعر اللحية (م).

٨ ـ كان وجهه مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً (م).

٩ ـ كان أبيض، كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر.

١٠ ـ كان أبيض، مشرباً بحمرة، ضخم الهامة... أهدب الأشفار.

١١ ـ كان أبيض، مشرباً بحمرة، وكان أسود الحدقة، أهدب الأشفار.

١٢ ـ كان أبيض مليحاً مقصداً.

## شمائله[2] ﷺ

١ ـ كان آخر كلام النبي ﷺ: الصلاة الصلاة، اتقوا اللّٰه فيما ملكت أيمانكم.

٢ ـ كان آخر ما تكلم به أن قال: قاتل اللّٰه اليهود والنصارى اتخذوا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

نقلنا هذا البحث من كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته، وكل ما جاء فيه صحيح أو حسن. وقد ذيلنا كل حديث رواه البخاري بـ (خ) وما رواه مسلم بـ (م)، وكل حديث لم يذيل بذلك فهو لغيرهما وجيد الإسناد.

قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب.

٣ ـ كان أبغض الخلق اليه الكذب.

٤ ـ كان أحب الألوان اليه الخضرة.

٥ ـ كان أحب الثياب إليه الحبرة.

٦ ـ كان أحب الثياب إليه القميص.

٧ ـ كان أحب الدين اليه ما داوم عليه صاحبه.

٨ ـ كان أحب الشراب إليه الحلو البارد.

٩ ـ كان أحب الشهور إليه أن يصومه شعبان، (ثم يصله برمضان).

١٠ ـ كان أحب العِرق إليه ذراع الشاة.

١١ ـ كان أحب العمل إليه ما دووم عليه وإن قل.

١٢ ـ كان أحب ما استتر به لحاجته هدف أو حائش نخل.

١٣ ـ كان أحسن الناس خُلقاً.

١٤ ـ كان أحسن الناس.. ربعة؛ إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب الأشفار، إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها؛ ليس له أخمص، إذا وضع رداءة عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة...

١٥ ـ كان أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس.

١٦ ـ كان أحسن الناس وجه، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير.

١٧ ـ كان أخف الناس صلاة على الناس، وأطول الناس صلاة لنفسه.

١٨ ـ كان أخف الناس صلاة في تمام.

١٩ ـ كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم.

٢٠ ـ كان إذا أتى مريضاً، أو أتى به قال: أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.

٢٥ ـ كان إذا أتاه الأمر يسُره قال: الحمد للّه الذي بنعمته تتم

الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال.

٢٦ ـ كان إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوله.

٢٧ ـ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه؛ فأعطى الآهل حظين، وأعطى العزب حظاً.

٢٨ ـ كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان.

٢٩ ـ كان إذا أتي بباكورة الثمرة وضعها على عينيه ثم على شفتيه، . . . ثم يعطيه من يكون عنده من الصبيان.

٣٠ ـ كان إذا أتي بطعام سأل عنه أهديه أم صدقة؟ فإن قيل: صدقة، قال لأصحابه: كلوا ولم يأكل، وإن قيل: هدية، ضرب بيده، فأكل معهم.

٣١ ـ كان إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحساء فصنع، ثم أمرهم فحسوا، وكان يقول: إنه ليرتو فؤاد الحزين، ويسرو عن فؤاد السقيم، كما تسرو إحداكن الوسخ بالماء عن وجهها.

٣٢ ـ كان إذا أخذ مضجعه جعل يده اليمنى تحت خده الأيمن.

٣٣ ـ كان إذا أخذ مضجعه قرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ حتى يختمها.

٣٤ ـ كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال: بسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسىء، شيطاني، وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندي الأعلى.

٣٥ ـ كان إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: باسمك اللهم أحيا، وباسمك أموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور (م).

٣٦ ـ كان إذا أراد الحاجة أبعد.

٣٧ ـ كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض.

٣٨ ـ كان إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه وهي حائض أمرها أن تأتزر، ثم يباشرها (م).

٣٩ ـ كان إذا أراد أن يحرم تطيب بأطيب ما يجد (م).

٤٠ ـ كان إذا أراد أن يدعو على أحد ويدعو لأحد قنت بعد الركوع (خ).

٤١ ـ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده، ثم يقول: اللهم قني عذابك، يوم تبعث عبادك (ثلاث مرات).

٤٢ ـ كان إذا أراد أن يستودع الجيش قال: أستودع الله دينكم، وأمانتكم، وخواتيم أعمالكم.

٤٣ ـ كان إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه.

٤٤ ـ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة، وإذا أراد أن يأكل أو يشرب، وهو جنب، غسل يديه ثم يأكل ويشرب.

٤٥ ـ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه، وتوضأ للصلاة.

٤٦ ـ كان إذا أراد سفراً قرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

٤٧ ـ كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها.

٤٨ ـ كان إذا استجد ثوباً سماه باسمه قميصاً أو عمامة أو رداء، ثم يقول: اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك من خيرة وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صنع له.

٤٩ ـ كان إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٥٠ ـ كان إذا استسقى قال: اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت.

٥١ ـ كان إذا استفتح الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

٥٢ ـ كان إذا استن أعطى السواك الأكبر، وإذا شرب أعطى الذي عن يمينه.

٥٣ ـ كان إذا اشتد البرد بكر بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة (خ).

٥٤ ـ كان إذا اشتدت الريح قال: اللهم لقحاً لا عقيماً.

٥٥ ـ كان إذا اشتكى أحد رأسه قال: اذهب فاحتجم، وإذا اشتكى رجله قال: اذهب فاخضبها بالحناء.

٥٦ ـ كان إذا اشتكى رقاه جبريل قال: بسم اللَّه يبريك، من كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين (م).

٥٧ ـ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده.

٥٨ ـ كان إذا أصبح وإذا أمسى قال: أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

٥٩ ـ كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة؛ لم يزل معرضاً عنه حتى يحدث توبة.

٦٠ ـ كان إذا اعتم سدل عمامته[١] بين كتفيه.

٦١ ـ كان إذا أفطر عند قوم قال: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وتنزلت عليكم الملائكة[٢].

٦٢ ـ كان إذا أفطر قال: ذهب الظمأ، وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء اللَّه.

٦٣ ـ كان إذا أفطر عند قوم، قال: أفطر عندكم الصائمون، وصلَّت عليكم الملائكة.

٦٤ ـ كان إذا اكتحل اكتحل وتراً[٣]، وإذا استجمر استجمر وتراً.

٦٥ ـ كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد للَّه الذي أطعم، وسقى، وسوغه وجعل له مخرجاً.

---

(١) عمامة الرسول ﷺ كانت أشبه شيء بما يسمى في زماننا (حطة) يتقنع بها ويلتثم بها، (م،م).

(٢) أعلم أن الحديث ليس خاصاً بالصائم كما تفيده كلمة «افطر» الأولى، فإن في ثبوتها نظراً كما بينته في المصدر المكذور أعلاه.

(٣) أي في العين اليمنى وأما اليسرى فمرتين كما جاء مفصلاً في بعض الأحاديث، فراجع «الأحاديث الصحيحة».

٦٦ ـ كان إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاث.

٦٧ ـ كان إذا أكل لم تعْدُ أصابعه بين يديه.

٦٨ ـ كان إذا التقى الختانان اغتسل[١].

٦٩ ـ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه.

٧٠ ـ كان إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، فإذا أقلع عنه رفع رأسه.

٧١ ـ كان إذا انصرف انحرف[٢].

٧٢ ـ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، ثم قال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام (م).

٧٣ ـ كان إذا أوى إلى فراشه قال: الحمد للّه الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآونا فكم من لا كافي له، ولا مؤوي له.

٧٤ ـ كان إذا بايعه الناس يلقنهم: فيما استطعت.

٧٥ ـ كان إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا.

٧٦ ـ كان إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.

٧٧ ـ كان إذا تضور[٣] من الليل قال: لا إله إلا اللّه الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.

٧٨ ـ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً، حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثاً (خ).

٧٩ ـ كان إذا تهجد يسلم بين كل ركعتين.

٨٠ ـ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه، فخلل به لحيته، وقال: هكذا أمرني ربي.

---

(١) هذا الحديث نسخ حديث: «إنما الماء من الماء» فانتبه! (م.م).

(٢) أي من صلاته وسلم (انحرف) أي عن جهة القبلة إلى القوم.

(٣) أي تلوى وتقلب ظهراً لبطن.

٨١ ـ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فنضح به فرجه.

٨٢ ـ كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه.

٨٣ ـ كان إذا توضأ خلل لحيته بالماء.

٨٤ ـ كان إذا توضأ دلك أصابع رجليه بخنصره.

٨٥ ـ كان إذا جاءه أمر يسر به خر ساجداً شكراً للّه تعالى.

٨٦ ـ كان إذا جلس احتبى بيديه.

٨٧ ـ كان إذا حزبه أمر صلى.

٨٨ ـ كان إذا حلف على يمين لا يحنث حتى نزلت كفارة اليمين.

٨٩ ـ كان إذا حلف قال: والذي نفس محمد بيده.

٩٠ ـ كان إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم.

٩١ ـ كان إذا خرج من الغائط قال: غفرانك.

٩٢ ـ كان إذا خرج من بيته قال: بسم اللّه، توكلت على اللّه، اللهم إنا نعوذ بك من أن أنزل، أو نضل أو نظلم أو نظلم، أو نجهل أو يجهل علينا.

٩٣ ـ كان إذا خرج من بيته قال: بسم اللّه، رب أعوذ بك من أن أزل، أو أضل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي.

٩٤ ـ كان إذا خرج يوم العيد في طريق رجع من غيره.

٩٥ ـ كان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش[1]، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم.

٩٦ ـ كان إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله.

٩٧ ـ كان إذا دخل الكنيف قال: بسم اللّه، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث.

---

(١) أين هذا الوضع الثائر المثير المملتىء بالحيوية والقوة من أكثر خطب الجمعة المخدرة المنومة! (م.م).

٩٨ ـ كان إذا دخل المسجد قال: أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، وقال: إذا قال ذلك حُفظ منه سائر اليوم.

٩٩ ـ كان إذا دخل المسجد قال: . . . الهم صل على محمد، وأزواج محمد.

١٠٠ ـ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك.

١٠١ ـ كان إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طهور إن شاء اللّه (خ).

١٠٢ ـ كان إذا دخل ـ أي على أهل بيته ـ قال: هل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا، قال: إني صائم.

١٠٣ ـ كان إذا دعا بدأ بنفسه.

١٠٤ ـ كان إذا دعا جعل باطن كفه إلى وجهه.

١٠٥ ـ كان إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة (م).

١٠٦ ـ كان إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه.

١٠٧ ـ كان اِذا ذهب المذهب أي أراد قضاء الحاجة أبعد.

١٠٨ ـ كان إذا رأى المطر قال: اللهم صيباً نافعاً (خ).

١٠٩ ـ كان إذا رأى الهلال قال: اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك اللّه[1].

١١٠ ـ كان إذا رأى ما يحب قال: الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد للّه على كل حال. . .

١١١ ـ كان إذا راعه شيء قال: اللّه اللّه ربي، لا شريك له.

١١٢ ـ كان إذا رفأ الإنسان إذا تزوج قال: بارك اللّه لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير.

١١٣ ـ كان إذا رفعت مائدته قال: الحمد للّه حمداً كثيراً طيباً مباركاً

---

(١) ويشترط في ذلك أن يستقبل الداعي القبلة، لا القمر! (م.م).

فيه، الحمد للّه كفانا وآونـا، غير مكفي ولا مكفـور، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا (خ).

١١٤ ـ كان إذا ركع سوى ظهره، حتى لو صب عليه الماء لاستقر.

١١٥ ـ كان إذا ركع فرج أصابعه. وإذا سجد ضم أصابعه.

١١٦ ـ كان إذا ركع قال: سبحان ربي العظيم وبحمده (ثـلاثاً)، وإذا سجد قال: سبحان ربي الأعلى وبحمده (ثلاثاً).

١١٧ ـ كان إذا رمى الجمار[1] مشى إليه ذاهباً وراجعاً.

١١٨ ـ كان إذا رمى جمرة العقبة مضى ولم يقف.

١١٩ ـ كان إذا سجد جافى حتى يرى بياض إبطيه.

١٢٠ ـ كان إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر.

١٢١ ـ كان إذا سلم لم يقعد إلا بمقـدار ما يقـول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام (م).

١٢٢ ـ كان إذا سمع المؤذن قال مثل ما يقول، حتى إذا بلغ (حي على الصلاة؛ حي على الفلاح) قال: لا حول ولا قوة إلا باللّه.

١٢٣ ـ كان إذا سمع المؤذن يتشهد قال: وأنا وأنا.

١٢٤ ـ كان إذا سمع بالاسم القبيح حوله إلى ما هو أحسن منه.

١٢٥ ـ كان إذا شرب تنفس ثلاثاً ويقول: هو أهنأ، وأمرأ، وأبرأ.

١٢٦ ـ كان إذا صعد المنبر سلم.

١٢٧ ـ كان إذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس.

١٢٨ ـ كان إذا صلى الغداة في سفر مشى عن راحلته قليلاً.

١٢٩ ـ كان إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن.

١٣٠ ـ كان إذا صلى صلاة أثبتها (مم).

١٣١ ـ كان إذا طاف بالبيت استلم الحجر والركن في كل طواف.

---

(١) يعني في الأيام الثلاثة بعد يوم النحر، وأما في يوم النحر فكان يرميها راكباً كما في رواية (حم، د).

١٣٢ - كان إذا عرس وعليه ليل توسد يمينه، وإذا عرس قبل الصبح وضع رأسه على كفه اليمنى، وأقام ساعده.

١٣٣ - كان إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به (م).

١٣٤ - كان إذا عطس حمد اللّه، فيقال له: يرحمك اللّه، فيقول: يهديكم اللّه ويصلح بالكم.

١٣٥ - كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض بها صوته.

١٣٦ - كان إذا عمل عملاً أثبته (م).

١٣٧ - كان إذا غزا قال: اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل.

١٣٨ - كان إذا غضب احمرت وجنتاه.

١٣٩ - كان إذا فاته الأربع قبل الظهر صلاها بعد الظهر.

١٤٠ - كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: استغفروا اللّه لأخيكم، وسلوا اللّه التثبيت؛ فإنه الآن يسأل[١].

١٤١ - كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه مداً.

١٤٢ - كان إذا قام على المنبر استقبله أصحابه بوجوههم.

١٤٣ - كان إذا قام من الليل ليصلي افتتح صلاته بركعتين خفيفتين (م).

١٤٤ - كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك.

١٤٥ - كان إذا قدم من سفر تلقي بصبيان أهل بيته (م).

١٤٦ - كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى.

١٤٧ - كان إذا قرأ من الليل رفع طوراً، وخفض طوراً.

١٤٨ - كان إذا قرب إليه طعام قال: بسم اللّه، فإذا فرغ قال: اللهم

---

(١) إن هذه السنة الهامة متروكة غالباً ويالالأسف! (م. م).

إنـــك أطعمت وسقيت، وأغنيت وأقنيت، وهـــديت واجتبيت، اللهم فلك الحمد على ما أعطيت.

١٤٩ ـ كان إذا قفل من غزو، أو حج، أو عمرة يكبر على كل شـرف من الأرض، (ثلاث تكبيرات)، ثم يقـول: لا إله إلا اللّه وحـده لا شريـك له، له الملك وله الحمد، وهو على كـل شيء قديـر، آيبون تـائبون، عـابدون ساجدون، لربنا حامدون، صـدق اللّه وعده، ونصر عبـده، وهزم الأحـزاب وحده.

١٥٠ ـ كـان إذا كان الـرطب لم يفـطر إلا عـلى الـرطب، وإذا لم يكن الرطب لم يفطر إلا على التمر[1].

١٥١ ـ كـان إذا كان راكعـاً، أو ساجـداً قـال: سبحـانـك وبحمـدك أستغفرك وأتوب إليك.

١٥٢ ـ كـان إذا كان صـائماً أمـر رجلاً فـأوفى على شيء[2] فـإذا قال: غابت الشمس أفطر.

١٥٣ ـ كان إذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعداً.

١٥٤ ـ كـان إذا كان قبـل التـرويـة بيـوم خـطب النـاس، فـأخبـرهم بمناسكهم.

١٥٥ ـ كـان إذا كان مقيـماً اعتكف العشر الأواخر من رمضـان، وإذا سافر اعتكف من العام المقبل عشرين.

١٥٦ ـ كان إذا كان يوم عيد خالف الطريق.

١٥٧ ـ كان إذا كربه أمر قال: ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث.

١٥٨ ـ كان إذا كره شيئاً رئي ذلك في وجهه.

١٥٩ ـ كان إذا لبس قميصاً بدأ بميامنه.

١٦٠ ـ كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه، قام معه فلم ينصرف

---

(١) ما أعظم فائدة هذه السنة، من الناحية الصحية إذ تسبب سرعة تمثل السكر في الدم (م.م).

(٢) كذا الأصل تبعاً لـ «الجامع»، وفي (ك) «نشز» ولعله الصواب.

حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها، فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحداً من أصحابه فتناول أذنه ـ أي حادثه وأسر إليه ـ ناوله إياها ـ أي استمع إليه ـ ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه.

١٦١ ـ كان إذا لقيه الرجل من أصحابه مسحه، ودعا له.

١٦٢ ـ كان إذا مر بآية خوف تعوذ، وإذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية فيها تنزيه اللَّه سبح.

١٦٣ ـ كان إذا مرض أحد من أهل بيته نفث عليه بالمعوذات (م).

١٦٤ ـ كان إذا مشى أقلع[١].

١٦٥ ـ كان إذا مشى لم يلتفت.

١٦٦ ـ كان إذا مشى، مشى أصحابه أمامه، وتركوا ظهره للملائكة.

١٦٧ ـ كان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة (م).

١٦٨ ـ كان إذا نام وضع يده اليمنى تحت خده وقال: اللهم قني عذابك، يوم تبعث عبادك.

١٦٩ ـ كان إذا نزل به هم أو غم قال: ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث.

١٧٠ ـ كان إذا نزل عليه الوحي ثقل لذلك، وتحدر جبينه عرقاً كأنه جمان[٢]، وإن كان في البرد.

١٧١ ـ كان إذا واقع بعض أهله فكسل أن يقوم ضرب يده على الحائط، فتيمم.

١٧٢ ـ كان إذا ودع رجلاً أخذ بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يده ويقول: أستودع اللَّه دينك، وأمانتك وخواتيم عملك.

---

(١) قال في (النهاية): «أراد قوة مشيه، كأنه يرفع رجليه من الأرض رفعاً قوياً» ثم ذكر أنه بمعنى حديث «كأنما ينحط من صبب» أي ينزل من مكان مرتفع.

(٢) حبات من الفضة.

١٧٣ ـ كان إذا وضع الميت في لحده قال: بسم اللّٰه، وباللّٰه، وفي سبيل اللّٰه، وعلى ملة رسول اللّٰه.

١٧٤ ـ كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.

١٧٥ ـ كان أشد حياء من العذراء في خدرها.

١٧٦ ـ كان أكثر ايمانه: لا ومصرف القلوب.

١٧٧ ـ كان أكثر دعائه: يامقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك. فقيل له في ذلك؟ قال: إنه ليس آدمي وقلبه بين إصبعين من أصابع اللّٰه، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ.

١٧٨ ـ كان أكثر دعوة يدعو بها: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

١٧٩ ـ كان أكثر صومه السبت والأحد، ويقول: هما يوم عيد المشركين، فأحب أن أخالفهم.

١٨٠ ـ كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس. فقيل له؟ فقال: الأعمال تعرض كل اثنين وخميس، فيغفر لكل مسلم، إلا المتهاجرين، فيقال: أخروهما.

١٨١ ـ كان بابه يقرع بالأظافير.

١٧٢ ـ كان تنام عيناه، ولا ينام قلبه.

١٨٣ ـ كان خاتمه من فضة، فصه منه (خ).

١٨٤ ـ كان خاتمه من ورق، فصه حبشياً.

١٨٥ ـ كان خلقه القرآن.

١٨٦ ـ كان رايته ـ سوداء، ولواؤه أبيض.

١٨٧ ـ كان رحيماً بالعيال.

١٨٨ ـ كان رحيماً، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده، وأنجز له إن كان عنده.

١٨٩ ـ كان في كلامه ترتيل، أو ترسيل.

١٩٠ ـ كان كلامه كلاماً فصلاً، يفهمه كل من سمعه.

١٩١ ـ كان له خرقة، يتنشف بها بعد الوضوء.

١٩٢ ـ كان له سكة يتطيب منها.

١٩٣ ـ كان له مؤذنان: بلال، وابن أم مكتوم الأعمى (م).

١٩٤ ـ كان له ملحفة مصبوغة بالورس والزعفران، يدور بها على نسائه، فإذا كانت ليلة هذه، رشتها بالماء، وإذا كانت ليلة هذه، رشتها بالماء، وإذا كانت ليلة هذه، رشتها بالماء[١].

١٩٥ ـ كان مما يقول للخادم: ألك حاجة؟

١٩٦ ـ كان وسادته التي ينام عليها بالليل من أدم، حشوها ليف!

١٩٧ ـ كان لا يؤذن له في العيدين (م).

١٩٨ ـ كان لا يأكل متكئاً[٢]، ولا يطأ عقبه رجلان.

١٩٩ ـ كان لا يتطير، ولكن يتفاءل.

٢٠٠ ـ كان لا يتعار من الليل إلا أجرى السواك على فيه.

٢٠١ ـ كان لا يتوضأ بعد الغسل.

٢٠٢ ـ كان لا يجد من الدقل ما يملأ بطنه.

٢٠٣ ـ كان لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم، ولا يطعم يوم النحر حتى يذبح.

٢٠٤ ـ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة (خ).

٢٠٥ ـ كان لا يدع صوم أيام البيض، في سفر ولا حضر.

٢٠٦ ـ كان لا يدع قيام الليل، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً.

٢٠٧ ـ كان لا يدفع عنه الناس، ولا يضربوا عنه.

---

(١) إن هذه الملحفة طريقة مبسطة لطيفة تقوم مقام مكيفة الهواء فيترطب الجو خلال تبخر الماء! (م.م).

(٢) قال في (النهاية): «المتكىء كل من استوى قاعداً على وطاء متمكناً.. والمعنى: إني إذا أكلت لم أقعد متمكناً فعل من يريد الاستكثار منه».

٢٠٨ ـ كان لا يراجع بعد ثلاث.

٢٠٩ ـ كان لا يرد الطيب (خ).

٢١٠ ـ كان لا يرقد من ليل فيستيقظ إلا تسوك.

٢١١ ـ كان لا يسأل شيئاً إلا أعطاه أو سكت.

٢١٢ ـ كان لا يصافح النساء في البيعة[١].

٢١٣ ـ كان لا يصلي الركعتين بعد الجمعة، ولا الركعتين بعد المغرب إلا في أهله.

٢١٤ ـ كان لا يصلي المغرب حتى يفطر، ولو على شربة من الماء.

٢١٥ ـ كان لا يصلي قبل العيد شيئاً، فإذا رجع إلى منزله صلى ركعتين.

٢١٦ ـ كان لا يصيبه قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء.

٢١٧ ـ كان لا يضحك إلا تبسماً.

٢١٨ ـ كان لا يطرق أهله ليلاً.

٢١٩ ـ كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة.

٢٢٠ ـ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه (بسم اللّه الرحمن الرحيم).

٢٢١ ـ كان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل . . . تمرات.

٢٢٢ ـ كان لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث[٢].

٢٢٣ ـ كان لا يقوم من مجلس إلا قال: سبحانك اللهم ربي وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وقال: لا يقولهن أحد حيث يقوم من مجلسه إلا غفر له، ما كان منه في ذلك المجلس.

٢٢٤ ـ كان لا يكاد يسأل شيئاً إلا فعله.

---

(١) ومثله حديث: «إني لا أصافح النساء الحدث» وسنده صحيح كما جاء في الأحاديث الصحيحة رقم ٥٢٩. وقد نهى الرسول ﷺ عن مصافحة المرأة الأجنبية نهياً شديداً في قوله: «لأن يطعن في رأس رجل بمخيط من حديد خير من أن يمس امرأة لا تحل له» وهو حديث صحيح.

(٢) أي ثلاثة أيام، لكي يتيسر له تدبره (م.م).

٢٢٥ - كان لا يكاد يقول لشيء: لا، فإذا هو سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإذا لم يرد أن يفعل سكت.

٢٢٦ - كان لا يلتفت وراءه إذا مشى، . . .

٢٢٧ - كان لا يمنع شيئاً يسأله.

٢٢٨ - كان لا ينام إلا والسواك عند رأسه، فإذا استيقظ بدأ بالسواك.

٢٢٩ - كان يؤتي بالتمر فيه دود فيفتشه، يخرج السوس منه.

٢٣٠ - كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم.

٢٣١ - كان يأكل البطيخ بالرطب.

٢٣٢ - كان يأكل البطيخ بالرطب، ويقول: يكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا.

٢٣٣ - كان يأكل القثاء بالرطب.

٢٣٤ - كان يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة.

٢٣٥ - كان يأكل ثلاث أصابع، ويلعق يده قبل أن يمسحها.

٢٣٦ - كان يأكل مما مست النار، ثم يصلي ولا يتوضأ.

٢٣٧ - كان يأمر أن نسترقي من العين (م).

٢٣٨ - كان يأمر بإخراج الزكاة قبل الغدو للصلاة يوم الفطر.

٢٣٩ - كان يأمر بالعتاقة في صلاة الكسوف.

٢٤٠ - كان يأمر بتغيير الشعر مخالفة للأعاجم.

٢٤١ - كان يأمر بناته ونساءه أن يخرجن في العيدين.

٢٤٢ - كان يأمر من أسلم أن يختتن.

٢٤٣ - كان يأمر. إذا أرادت إحداهن[١] أن تنام أن تحمد ثلاثاً

---

(١) هي فاطمة رضي الله عنها، كما في حديث علي وأبي هريرة.

وثلاثين، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتكبر ثلاثاً وثلاثين[1].

٢٤٤ ـ كان يبدأ إذا أفطر بالتمر.

٢٤٥ ـ كان يبدو إلى التلاع.

٢٤٦ ـ كان يبعث إلى المطاهر فيؤتي بالماء، فيشربه يرجو بركة أيدي المسلمين.

٢٤٧ ـ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.

٢٤٨ ـ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم (خ).

٢٤٩ ـ كان يتحرى صيام الاثنين والخميس.

٢٥٠ ـ كان يتختم بالفضة.

٢٥١ ـ كان يتختم في يساره (م).

٢٥٢ ـ كان يتختم في يمينه (خ).

٢٥٣ ـ كان يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم.

٢٥٤ ـ كان يتعوذ من الجان، وعين الإنسان، حتى نزلت (المعوذتان) فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما.

٢٥٥ ـ كان يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء[2].

٢٥٦ ـ كان يتفاءل ولا يتطير، وكان يحب الاسم الحسن.

٢٥٧ ـ كان يتمثل بالشعر:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٢٥٨ ـ كان يتوضأ ثم يقبل ويصلي، ولا يتوضأ.

---

(١) هذه رواية البخاري. وقال مسلم «أربعاً وثلاثين»، وهو رواية للبخاري. وكذلك هو في حديث أبي هريرة.

(٢) في الحديث عند البخاري وغيره أن الخصال ثلاث، وأنه زاد واحدة لا يدري أيتها هي؟

٢٥٩ ـ كان يتوضأ عند كل صلاة (خ).

٢٦٠ ـ كان يتوضأ مما مست النار[1].

٢٦١ ـ كان يتوضأ واحدة واحدة، واثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، كل ذلك يفعل.

٢٦٢ ـ كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها (م).

٢٦٣ ـ كان يجعل فصه مما يلي كفه.

٢٦٤ ـ كان يجعل يمينه لأكله وشربه ووضوئه وثيابه وأخذه وعطائه، وشماله لما سوى ذلك.

٢٦٥ ـ كان يجلس إذا صعد المنبر حتى يفرغ المؤذن، ثم يقوم فيخطب، ثم يجلس فلا يتكلم، ثم يقوم فيخطب.

٢٦٦ ـ كان يجلس القرفصاء.

٢٦٧ ـ كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير.

٢٦٨ ـ كان يجمع بين الخربز والرطب.

٢٦٩ ـ كان يجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء في السفر (خ).

٢٧٠ ـ كان يحب التيامن ما استطاع؛ في طهوره، وتنعله، وترجله، وفي شأنه كله.

٢٧١ ـ كان يحب الحلواء والعسل.

٢٧٢ ـ كان يحب الدباء.

٢٧٣ ـ كان يحب الزبد والتمر.

٢٧٤ ـ كان يحب العراجين، ولا يزال في يده منها.

---

(١) أعلم أنه لا منافاة بين هذا وبين حديث ابن عباس المتقدم (برقم ٤٧٥٩)، فإن هذا للاستحباب، وذاك لبيان الجواز، ودعوى النسخ مما لا دليل عليها.

٢٧٥ ـ كان يحب أن يخرج إذا غزا يوم الخميس (خ).

٢٧٦ ـ كان يحب أن يليه المهاجرون والأنصار في الصلاة، ليحفظوا عنه.

٢٧٧ ـ كان يحتجم.

٢٧٨ ـ كان يحتجم على هامته، وبين كتفيه، ويقول: من أهراق من هذه الدماء فلا يضره أن لا يتداوى بشيء لشيء.

٢٧٩ ـ كان يحتجم في الأخذ عين والكاهل، وكان يحتجم لسبع عشرة، وتسع عشرة، وإحدى وعشرين.

٢٨٠ ـ كان يحتجم في رأسه، ويسميها أم مغيث.

٢٨١ ـ كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه.

٢٨٢ ـ كان يحلف: لا ومقلب القلوب (خ).

٢٨٣ ـ كان يحمل ماء زمزم.

٢٨٤ ـ كان يخرج إلى العيدين ماشياً، ويصلي بغير أذان ولا إقامة، ثم يرجع ماشياً في طريق آخر.

٢٨٥ ـ كان يخرج في العيدين رافعاً صوته بالتهليل والتكبير.

٢٨٦ ـ كان كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.

٢٨٧ ـ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله، ثم يغتسل ويصوم.

٢٨٨ ـ كان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة.

٢٨٩ ـ كان يدعو عند الكرب: لا إله إلا اللّه العظيم الحليم، لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللّه رب السموات السبع ورب الأرض، ورب العرش الكريم.

٢٩٠ ـ كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار (خ).

٢٩١ ـ كان يذبح أضحيته بيده.

٢٩٢ ـ كان يذكر الله تعالى عل كل أحيانه (م).

٢٩٣ ـ كان يرخي الإزار من بين يديه، ويرفعه من ورائه.

٢٩٤ ـ كان يردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

٢٩٥ ـ كان يركب الحمار، ويخصف النعل، ويرقع القميص، ويلبس الصوف، ويقول: من رغب عن سنتي فليس مني.

٢٩٦ ـ كان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم.

٢٩٧ ـ كان يستجمر بألوة غير مطراة، وبكافور يطرحه مع الألوة.

٢٩٨ ـ كان يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك.

٢٩٩ ـ كان يستحب أن يسافر يوم الخميس.

٣٠٠ ـ كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا، وفي لفظ: يستسقى له الماء العذب من بئر السقيا.

٣٠١ ـ كان يستغفر للصف المقدم ثلاثاً، وللثاني مرة.

٣٠٢ ـ كان يسلت المني من ثوبه بعرق الإذخر، ثم يصلي فيه، ويحته من ثوبه يابساً ثم يصلي فيه.

٣٠٣ ـ كان يسمي الأنثى من الخيل فرساً.

٣٠٤ ـ كان يشتد عليه أن يوجد منه الريح.

٣٠٥ ـ كان يشرب ثلاثة أنفاس، يسمي اللّٰه في أوله، ويحمد اللّٰه في آخره.

٣٠٦ ـ كان يشير في الصلاة.

٣٠٧ ـ كان يصغي للهرة الإناء، فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها.

٣٠٨ ـ كان يصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء اللّٰه (م).

٣٠٩ ـ كان يصلي الضحى ست ركعات.

٣١٠ ـ كان يصلي بالليل ركعتين ركعتين، ثم ينصرف فيستاك.

٣١١ ـ كان يصلي بين المغرب والعشاء.

٣١٢ ـ كان يصلي على راحلته حيثما توجهت به، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل فاستقبل القبلة.

٣١٣ ـ كان يصلي في نعليه.

٣١٤ ـ كان يصلي قبل الظهر أربعاً؛ إذا زالت الشمس. . . ويقول: أبواب السماء تفتح إذا زالت الشمس.

٣١٥ ـ كان يصلي قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين، في بيته، وبعد العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين في بيته.

٢١٦ ـ كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة، منها الوتر، وركعتا الفجر.

٣١٧ ـ كان يصوم من الشهر السبت، والأحد، والاثنين، ومن الشهر الآخر الثلاثاء والأربعاء والخميس.

٣١٨ ـ كان يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام، وقلما كان يفطر يوم الجمعة.

٣١٩ ـ كان يضحي بكبشين أقرنين أملحين، وكان يسمي ويكبر.

٣٢٠ ـ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد.

٣٢١ ـ كان يضع اليمنى على اليسرى في الصلاة.

٣٢٢ ـ كان يضمر الخيل.

٣٢٣ ـ كان يطوف على جميع نسائه في ليلة، بغسل واحد.

٣٢٤ ـ كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد! يانجيح!

٤٢٥ ـ كان يعجبه الثفل.

٣٢٦ ـ كان يعجبه الحلو البارد.

٣٢٧ ـ كان يعجبه الذراع.

٣٢٨ ـ كان يعجبه الرؤيا الحسنة.

٣٢٩ ـ كان يعجبه الريح الطيبة.

٣٣٠ ـ كان يعجبه العراجين أن يمسكها بيده.

٣٣١ ـ كان يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة.

٣٣٢ ـ كان يعجبه القرع.

٣٣٣ ـ كان يعجبه أن يلقى العدو عند زوال الشمس.

٣٣٤ ـ كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل.

٣٣٥ ـ كان يعقد التسبيح[1].

٣٣٦ ـ كان يعيد الكلمة (ثلاثاً) لتعقل عنه.

٣٣٧ ـ كان يغتسل بالصاع، ويتوضأ بالمد.

٣٣٨ ـ كان يغتسل هو والمرأة من نسائه من إناء واحد (خ).

٣٣٩ ـ كان يغسل مقعدته ثلاثاً.

٣٤٠ ـ كان يغير الاسم القبيح.

٣٤١ ـ كان يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من ماء.

٣٤٢ ـ كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

٣٤٣ ـ كان يقبل بعض أزواجه، ثم يصلي ولا يتوضأ.

٣٤٤ ـ كان يقبل وهو صائم.

٣٤٥ ـ كان يقبل الهدية ويثيب عليها.

٣٤٦ ـ كان يقطع قراءته آية آية: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ثم يقف: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم يقف.

٣٤٧ ـ كان يقول لأحدهم عند المعاتبة: ما له ترب جبينة؟ (ح).

٣٤٨ ـ كان يقوم إذا سمع الصارخ.

٣٤٩ ـ كان يوقم من الليل حتى تنفطر قدماه.

٣٥٠ ـ كان يكبر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتي المصلي.

٣٥١ ـ كان يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد، حتى يقضي له حاجته.

٣٥٢ ـ كان يكره الشكال من الخيل (م).

---

(١) قلت: زاد أبو داود: بيمينه.

٢٥٣ ـ كان يكره المسائل، ويعيبها، فإذا سأله أبو رزين أجابه وأعجبه.

٣٥٤ ـ كان يكره أن يؤخذ من رأس الطعام.

٣٥٥ ـ كان يكره أن يطأ أحد عقبه، ولكن يمين وشمال.

٣٥٦ ـ كان يلبس النعال السبتية، ويصفر لحيته بالورس والزعفران.

٣٥٧ ـ كان يلحظ في الصلاة يميناً وشمالاً ولا يلوي عنقه خلف ظهره.

٢٥٨ ـ كان يلزق صدره ووجهه بالملتزم.

٣٥٩ ـ كان يمد صوته بالقرآن مداً.

٣٦٠ ـ كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم (خ).

٣٦١ ـ كان يمشي مشياً يعرف فيه أنه ليس بعاجز، ولا كسلان.

٣٦٢ ـ كان ينام أول الليل، ويحيي آخره.

٣٦٣ ـ كان ينام وهو جنب، ولا يمس ماء.

٣٦٤ ـ كان ينحر أضحيته بالمصلى (خ).

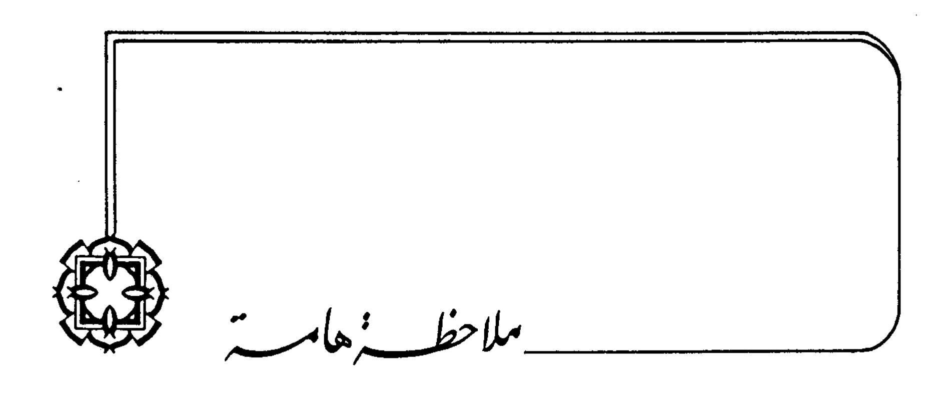
٣٦٥ ـ كان ينصرف من الصلاة عن يمينه.

٣٦٦ ـ كان ينفث في الرقية.

٣٦٧ ـ كان يوتر على البعير.

٣٦٨ ـ كان يوتر من أول الليل، وأوسطه وآخره.

٣٦٩ ـ كان يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: يازوينب! يازوينب! مراراً.




كنا ذكرنا في المقدمة أننا اعتمدنا في دراستنا وتحقيقنا على كتاب «موعظة المؤمنين»، غير أننا خلال الطبع تبين لنا أن بعض الكتب والأبواب في مختصر «منهاج القاصدين» تمتاز على مثيلاتها في «موعظة المؤمنين» فأثبتناها في هذا الكتاب. الذي أصبح بعون الله وتوفيقه قد حوى على مزايا هذين الكتابين.

زد على ذلك أننا أعدنا كثيراً من الرقائق والأشعار والقصص، التي كانت حذفت من المختصرين السابقين، وهذا من العجب! فإنها من المشوقات التي تؤثر بالمستمعين. وقد كان رسول الله ﷺ يثني على الشعر الموجه ويستشهد به أحياناً. فمن أحاديثه في ذلك «إن من الشعر حكمة» رواه البخاري. وعن عمرو بن الشريد عن أبيه، قال ردفت[1] رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم. قال: هيه[2] فأنشدته بيتاً، فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً، فقال: «هيه» حتى أنشدته مئة بيت. رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان للنبي ﷺ حاد يقال له أنجشة. وكان حسن الصوت، فقال له النبي ﷺ: «رويدك يا أنجشه! لا تكسر

---

(١) أي ركبت.

(٢) أي هات. وهو اسم فعل أمر بمعنى تكلم.

القوارير، يعني ضعفة النساء» رواه البخاري ومسلم.

أما استحسان الرقائق، فرحم اللّه تعالى الإمام البخاري ، فقد خصص في صحيحه كتاباً خاصاً في الرقاق» ضمنه بعض الأحاديث العاطفية المؤثرة نغتنم هذه الفرصة لنثبت بعضها ليزيد الواعظ من الاستعانة بها في دروسه العامة.

● عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ.

● عن بن عمر رضي اللّه عنهما قال: أخذ رسول اللّه ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل.

● وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

● عن عبد اللّه رضي اللّه عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي هو في الوسط. وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج: أمله. وهذه الخطط الصغار: الأغراض، فإن أخطأه نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا.

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: خط النبي ﷺ خطوطاً، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك، إذ جاءه الخط الأقرب.

عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال: كنا إذا بايعنا رسول اللّه على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعت.

● وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال رسول اللّه ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم، وعبد الخميصة[1]، إن أعطي رضي، وإن لم يعط

---

(١) ثوب خز أو صوف معلم.

سخط، تعس وانتكس[١]، وإذا شيك[٢] فلا انتقش[٣]، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللّٰه، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وان كان في الساقة[٤] كان في الساقة. إن استأذن لم يؤذن له، وان شفع لم يشفع.

وعن عبد اللّٰه بن مسعود، قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يارسول اللّٰه! مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه! قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر.

## أحاديث رقاق رواها البخاري ومسلم

● عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره. إلا أن عند مسلم (حفت).

● فو اللّٰه لا الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا [illegible] على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم.

● وعن أبي هريرة أن رسول اللّٰه ﷺ قال: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: كفافاً».

● يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد. يتبعه أهله وماله وعمله. فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله.

● عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.

---

(١) أي صار ذليلاً، دعاء عليه.

(٢) أي دخل الشوك في عضوه.

(٣) أي لا يقدر على اخراجه.

(٤) مؤخرة الجيش.

# رقاق رواها الإمام مسلم

● عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: واللّه ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟

● وعن جابر، أن رسول اللّه ﷺ مر بجدي أسك[1] ميت، قال «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء! قال: «فواللّه للدنيا أهون على اللّه من هذا عليكم»[2].

● وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

● عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنهما: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه اللّه بما آتاه.

● وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي! وإن ماله من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى[3] وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس!».

وعن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: يقول ابن آدم مالي، مالي، قال: «وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[4].

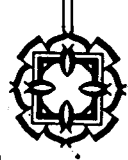
---

(١) ولد المعز مقطوع الأذن أو عديمها أو صغيرها.

(٢) راجع كتاب الدنيا في الجزء الثاني من هذا الكتاب لمعرفة ما يراد من مثل هذا الحديث.

(٣) أي جعله قنية وذخيرة للآخرة.

(٤) أمضيته من الافناء والابلاء، وأبقيته لنفسك يوم الجزاء.



# فهرس الجزء الأول

## من كتاب تهذيب موعظة المؤمنين

تهذيب

# موعظة المؤمنين

من

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

تأليف

العلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

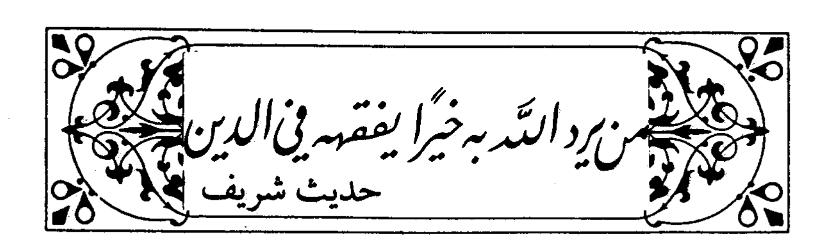
راجعه وحقق أحاديثه

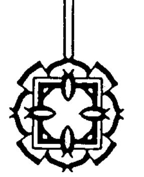
طائفة من الجامعيين

كتاب الاحياء اعظم ما الفه المصنفون في الوعظ والارشاد في قوة تأثيره، وعجيب سره وسرعة فعله في توجيه النفوس واصلاحها لولا ما فيه من بعض المجازفات والاحاديث غير الصحيحة ولاول مرة في هذه الطبعة نقدمه محققاً موجزاً، اشتمل على المزايا، وخلا من لعثرات.

## الجزء الثاني




من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين
حديث شريف



# كتاب رياضة النفس

## في علاجها وإصلاحها

فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ . وإهمالها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها بعونه تعالى .

## بيان فضيلة حسن الخلق ، ومذمة سوء الخلق

قال اللّه تعالى لنبيه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، ( القلم : ٤ ) وقالت عائشة رضي اللّه عنها : كان رسول اللّه ﷺ خلقه القرآن[١] . وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٢] وعنه ﷺ : « الدين حسن الخلق »[٣] : وهو أن لا تغضب ، وقال ﷺ : « اتق اللّه حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[٤] وقيل له : يا رسول اللّه ، إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد والحاكم والبيهقي وسنده صحيح ( مم ) .

(٣) رواه مسلم بلفظ : عن النواس بن سمعان سألت رسول اللّه ﷺ عن البر والإثم فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(٤) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم عن أبي ذر وسنده حسن ( مج ) .

ملاحظة : رمز ( مم ) في هذا الكتاب يشير إلى المحدث محقق مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي و ( مت ) إلى محقق الترغيب والترهيب للمنذري ، و ( مج ) إلى محقق الجامع الصغير وزيادته ( الفتح الكبير ) للسيوطي .

سيئة الخُلق تؤذي جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها ، هي من أهل النار »[1] . وقيل : يا رسول اللّه ، أي المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً »[2] . وقال وهب : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة ، لا تُرقع ولا تعاد طيناً . وقال الفُضيل : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق .

## ما قاله السلف في حسن الأخلاق وشرح ماهيته

أعلم أنه روي عنهم في ذلك ما هو كالثمرة ، والغاية من ذلك ما قاله الحسن رحمه اللّه : حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى . وقال أيضاً : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء ، وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق . وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ( الحجرات : ١٥ ) فالإيمان باللّه وبرسوله من غير ارتياب هي قوة اليقين وهي ثمرة العقل ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال ، فقد وصف اللّه الصحابة فقال : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ( الفتح : ٢٩ ) إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً ، فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال .

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد والبزار ، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وهو كما قال ( مت ) .

(٢) البزار رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وسنده صحيح .

## بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة[1]

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخيلته ، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، وأن الطباع لا تتبدل ، فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما أمر الشارع بوجوب تحسين الأخلاق في آيات وأحاديث كثيرة ! وكيف ينكر هذا في حق الآدمي ، وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ يُنقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق . والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول : الموجودات منقسمة إلى ما لا دخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله ، كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات .

وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله ، وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التربية إليها ، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية ، فإذاً صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً ، ولو أردنا سلاستهما وقوْدهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أُمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلّات مختلفة ، بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول .

---

(١) يتلخص كلام الغزالي في قوله ﷺ : « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتق الشر يوقه » رواه الخطيب عن أبي هريرة وسنده حسن ( مج ) وهذا الحديث العظيم أساس كل تربية وإصلاح ورد على القائلين بأن الطبع غلب التطبع .

وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات ، فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع أو الجماع لانقطع النسل ، ولو انقطع الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ، ومهما بقي أصل الشهوة ، فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الإعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط .

والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية ، وذلك بأن يخلو عن التهور عن الجبن جميعاً ـ وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل ـ ولذلك قال اللّه تعالى : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ( الفتح : ٢٩ ) وصفهم بالشدة ، وإنما تصدر الشدة عن الغضب ، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد ، وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية ، والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك ، إذ قال ﷺ : « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر »[١] . وكان إذا تُكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكن لا يقول إلا حقاً[٢] ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يخرجه غضبه عن الحق ، وقال تعالى : ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَـافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ( آل عمران : ١٣٤ ) ولم يقل والفاقدين الغيظ ، فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما . وهو المراد بتغيير الخلق . فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها على الانبساط إلى الفواحش ، وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال . فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها ، والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين ، أن السخاء خُلُق محمود

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

شرعاً ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير ، وقد أثنى اللّه تعالى عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾ ( الفرقان : ٦٧ ) وقال تعالى :﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ( الإسراء : ٢٩ ) وكذلك المطلوب في شهوة الطعام : الاعتدال دون الشره والجمود قال اللّه تعالى : ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ( الأعراف : ٣١ ) وقال في الغضب : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح : ٢٩).

## بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق على الجملة

عرفت أن حُسن الخُلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة ، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

**(أحدهما)** بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق ، وقد كُفي سلطان الشهوة والغضب بل خُلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع .

**(والوجه الثاني)** اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقة أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه به ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعاً ، ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد لنفسه خُلق التواضع وقد غلب عليه الكبر ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة ، وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف ، إلى أن يصير ذلك خُلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً . فالسخي هو الذي يستلذ بذلَ المال دون الذي يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع .

ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة ، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة ، وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ؛ كما قال ﷺ « وجُعلت قرة عيني في الصلاة »[1] .

ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال ، فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ، ولذلك قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾ ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخُلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام ، وفي جملة العمر ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين ومصير العبادات لذيذة ، فإن العبادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك ، فإنا نرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار ، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ، ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له ، وصرف نفسه إليه مدة .

وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحة الطيور وحركتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء ، فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ، ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف ، وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه ، فكيف لا تستلذ الحق لو رُدت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة .

فأما ميله إلى الحكمة وحب اللّه تعالى ومعرفته وعبادته ، فهو كالميل إلى الطعام والشراب ، فإنه مقتضي طبع القلب ، فإنه أمر رباني ، وميله إلى

(١) وللحديث تتمة ولفظه : « حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » رواه أحمد والنسائي وغيرهما بسند صحيح .

مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، إنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب اللّه عز وجل ، ولكن قد ينصرف عن مقتضى طبعه لمرضٍ قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب ، وهما سببان لحياتها ، فكل قلب مال إلى شيء سوى اللّه تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء ، لكونه معيناً له على حب اللّه تعالى وعلى دينه ، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض . فإذاً قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً . وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ـ أعني النفس والبدن فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا يتحرك إلا على وفقها لا محالة كل فعل يجري على الجوارحْ فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور .

وإذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ، ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً ، فهو غاية الفضيلة ، ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها ، فهو في غاية البعد من اللّه عز وجل ؛ وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ ( الزلزلة : ٧ : ٨ ) ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ( النحل : ٣٣ ) .

## بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس . والميل

---

(٢) رواه النسائي واسناده حسن ( مم) .

عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له . والميل عن الاعتدال مرض فيه ، فلنتخذ البدن مثالاً فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها . مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة وجلبها إليه ، كما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعتري المعدة المضرةُ بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[1] ، أي بالاعتياد والتعليم تُكتسب الرذائل ، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس منك ، إن كانت زكية طاهرة مهذبة ، فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد القوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء ، فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها ، كما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفاً ، وكما أنه لا بدّ من الاحتمال لمرارة الدواء شدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة . فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد!

وبالجملة فالطريق الكلي في معالجة القلوب هو سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

واحدة فقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ( النازعات ٤٠ ) والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم . فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ، ويكون ذلك ابتلاء من اللّه تعالى واختباراً . فينبغي أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عوَّد نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت . عافانا اللّه من فسادها .

## بيان الطريق الذي يعرف به الانسان عيوب نفسه

إعلم أن اللّه عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه . فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخَلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

( **الطريق الأول** ) أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس[1] ، مطلع على خفايا الآفات ويتبع إشارته في مجاهدته . وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه .

( **الطريق الثاني** ) أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً يلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه ، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضي اللّه عنه يقول : رحم اللّه أمرأً أهدى إليّ عيوبي ، وكان يسأل حذيفة ويقول له : أنت صاحب سر رسول اللّه ﷺ في المنافقين ، فهل ترى عليّ شيئاً من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه ، هكذا كانت تهمته لنفسه رضي اللّه عنه ، فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً ، وأعظم اتهاماً وفرحاً بتنبيه غيره على عيوبه . وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا

---

(١) لقد أصبح هذا الطريق ـ ويا للأسف ـ شائكاً ، كثير الخطر بسبب كثرة الأدعياء ، فينبغي أن يكون الطالب على حذر ، وعلى معرفة بسيرة الرسول ﷺ وسيرة علماء السلف لتتم المقارنة .

عيوبنا ، ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان .

فـإن الاخلاق السيئـة حيّات وعقـارب لدّاغـة ! فلو نبهنا منبـه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به ، واشتغلنا بإزالة العقرب وقتلها ، وإنمـا نكايتهـا على البـدن ، ولا يدوم ألمهـا يومـاً فما دونـه ، ونكايـة الأخلاق الرديئة على صميم القلب ، وأخشى أن تدوم بعد الموت أبد الآباد ـ ثم إنـا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها ، بـل نشتغل بمقـابلة النـاصـح بمثل مقالته ، فنقـول له : وأنت أيضـاً تصنع كيت وكيت ، وتشغلنـا العداوة معـه عن الانتفـاع بنصحه ، ويشبـه أن يكون ذلـك من قساوة القلب التي أثمـرتها كثرة الذنوب ، وأصل ذلك كله ضعف الإيمان . فنسأل اللّه تعالى أن يلهمنـا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتهـا ، ويوفقنـا للقيام بشكـر من يطلعنـا على مساوينا بمنه وفضله .

( **الطريق الثالث** ) أن يستفيد معرفة عيوب نفســه من ألسنة أعـدائه ، فإن عين السخط تبدي المساوياً . ولعل انتفـاع الإنسان بعـدو مشاحن يـذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مُداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبـول على تكـذيب العدو وحمـل ما يقـول على الحسـد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ، فإن مسـاويه لا بـدّ وأن تنتشر على ألسنتهم .

( **الطريق الرابع** ) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذمـوماً فيـما بين الخَلق فليطالب نفسه به وينسبه إليه ، فإن المؤمن مـرآة المؤمن فيرى من عيـوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فما يتصف به غيـره فـلا ينفك هـو عن أصله أو عن أعظم منـه أو عن شيء منه ، فليتفقـد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديباً ، فلو ترك الناس كل ما يكرهـونه من غيـرهم لاستغنوا عن المؤدب ، وهـذا كله من حيل من فقـد شيخاً[1] مربياً ناصحاً في الدين ، وإلا فمن وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه

(١) راجع تعليقنا السابق .

فإنه يخلصه من مرضه .

## بيان تمييز علامات حسن الخلق

إعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ، ربما يظن بنفسه أنه قد هذّب نفسه وحسّن خُلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخُلق ، فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر اللّه تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فلنورد جملة من ذلك لنعلم آية حسن الخلق ، قال اللّه تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ، ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١ ـ ١١).

وقال عز وجل: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١٢).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢ ـ ٣) وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣) إلى آخر السورة.

فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع

الصفات علامة حسن الخُلق وفقدُ جميعها علامة سوء الخُلق ، ووجـود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض ، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده . وقد وصف رسول اللّه ﷺ المؤمن بصفـات كثيرة وأشـار بجميعها إلى محاسن الأخلاق ، فقـال : « المؤمن يحب لأخيه مـا يحب لنفسه »[١] وقـال عليه السلام : « من كان يؤمن باللّه واليـوم الآخر فليكـرم جاره »[٢] وقـال : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[٣] .

وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخُلق فقال ﷺ : « أكمـل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً »[٤] وقال ﷺ : « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة اللّه عز وجل ، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه »[٤] . وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر عـلى الأذى واحتمال الجفـاء ، فقد ورد أن رسـول اللّه ﷺ كان يوماً يمشي ومعه أنس ، فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية ، فقال أنس رضي اللّه عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول اللّه ﷺ قد أثرت فيه حاشية البُرد من شدة جذبه، فقال : يا محمـد ، هب لي من مال اللّه الذي عندك ؛ فالتفت إليه رسول اللّه ﷺ وضحك ، ثم أمر بإعطائه[٥] . ولما أكثرت قريش إيذاءه قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »[٦] .

قيـل لـلأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ فقـال : من قيس ابن

---

(١) رواه البخاري ومسلم بلفظ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسـه » وفي رواية لغيرهما « من الخير » وسندها صحيح ( مم ) .

(٢) وهذان الحديثان من أصل حـديث واحد رواه البخـاري بلفظ : « من كان يؤمن بـاللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بـاللّه واليوم الآخـر ، فلا يؤذ جـاره ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليصل رحمه » .

(٣) تقدم ذكره وسنده صحيح .

(٤) لم يصح بهذا اللفظ ، وإنما صح بلفظ : « إنما المجالس بالأمانة » رواه مسلم وغيره .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٦) لم يصـح من قول النبي ﷺ عن نفسـه إنما حكـاه عن نبي من الأنبياء عـذبه قـومـه كـما رواه البخاري ومسلم .

عاصم ، قيل لِه : وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جـالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شِواء ، فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : لا رَوع عليك أنت حرة لوجه اللّه تعالى .

وروى أن علياً رضي اللّه تعالى عنه دعا غلاماً فلم يجبه ، فدعـاه ثانيـاً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً . فقال أما سمعت يـا غلام ؟ قـال بـلى ، قال : فـما حملك على تـرك إجابتي ؟ قـال أمِنتُ عقوبتـك فتكاسلت . فقال : امض فأنت حر لوجه اللّه تعالى .

فهذه نفوس قد ذُللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقهـا ، ونُقّيت من الغش والغل والحقد بواطنها، فأثمرت الرضا بكل مـا قدره اللّه تعـالى ، وهو منتهى حسن الخُلق ، فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغي أن يغـتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضـة والمجاهـدة إلى أن يبلغ درجـة حسن الخلُق ، فـإنها درجــة رفيعـة لا ينــالهـا إلا المقــربـون والصِّديقون .

## بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

إعلم أن الطريق في رياضـة الصبيان من أهم الأمـور وأوكدهـا ، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جـوهرة نفيسـة ساذجـة خاليـة عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليـه ، فإن عُـوّد الخير وعلمه ، نشأ عليه وسُعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم لـه ومؤدب ، وإن عوّد الشر وأُهمـل إهمال البهـائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه ، وقد قـال اللّه تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُوا۟ قُـوٓا۟ أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَـاراً﴾ ( التحريم : ٦ ) ومهما كان الأب يصـونه عن نـار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخـرة أولى ، وصيانتـه بأن يؤدبـه ويهذبـه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء .

ولا يعوّده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل لحضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال ، ومهما رأى فيه مخايل التمييز ، فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . وإن كان ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول : بسم اللّه عنده ، وأن يأكل مما يليه[1] .

وأن لا يبادر الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يُسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ وأن لا يوالي بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً ، وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبِّه كل من يكثر من الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن ، أي طعام كان ، وأن يحبب إليه من الثياب ما ليس بملون ولا حرير ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يشتنكفون منه ويكرر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبي ثوباً من الحرير أو ملوناً ، فينبغي أن يستنكره ويذمه ، وأن يحفظ عن الصبيان الذين عودوا التنعم[2] والرفاهية ، ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه .

---

(١) وفي الحديث : « يا غلام سمّ اللّه، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » رواه البخاري ومسلم .

(٢) إن في الاعتياد على التنعم خطراً رهيباً على الطفل ، وعلى مستقبل أمته ، فإذا شب عليه كره العمل ، وخشي الجهاد ، وأصبح عالة ، وقد نهى الرسول ﷺ عن التنعم بقوله : « إياك والتنعم ! فإن عباد اللّه ليسوا بالمتنعمين » رواه أحمد وغيره وسنده حسن (مج ) .

فإن الصبي مهما أهمل في إبتداء نشوئه ، خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بالتأديب ، ثم يشتغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار ، وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد[1] ، ثم مهما ظهر من الصبي خلُق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازي بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يُتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا يكاشفه ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي ، واجتهد في إخفائه ، فإن أظهر ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانياً ، فينبغي أن يعاقب سراً ، ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ويطلع عليك فتفتضح بين الناس .

ولا يكثر القول عليه بالعتاب في كل حين ، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ؛ وليكن الأب حافظاً هيئَة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح . وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً ، ولكن يمنع الفُرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يسمن بدنه ، فلا يصبر عن التنعم بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا منع تعود ترك فعل القبيح ، ويُعوّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة ، حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويعوّد أن لا يكشف أطرافه ، ويمنع من أن

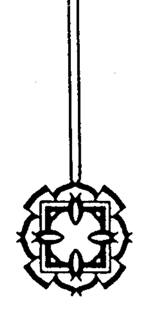
---

(١) أين هذا مما يجري في كثير كليات الآداب مما يحبب بحياة الفسق والفساق ! والشذوذ الجنسي تحت ستار تقوية اللغة ، كأن أدبنا خلا إلا من هذه الموبقات ؟ فهلا أدركنا بعض أسباب انحراف أبنائنا وبناتنا ؟!

يفتخر على أقرانه بشيء من مطاعمه وملابسه ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم .

ويُمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له ، بل يُعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ ، وبالجملة يقبح إلى الصبيان المبالغة في حب الذهب والفضة والطمع فيهما ، فإن آفة التكالب على حب الذهب والفضة أضر من آفة السموم على الصبيان بل وعلى الكبار أيضاً ، وينبغي أن يعوَّد أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ، بل ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل .

ويعلَّم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويُبيّن له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأساً صادقاً كان أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويعوّد حسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ، وأن يوسَّع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك ، فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء ، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً ! وينبغي أن يعلَّم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الاحترام ، وأن يترك اللعب بين أيديهم ، ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلَّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوَّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، فإذا وقع نشؤه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور .



# كتاب آفات اللسان

## بيان خطر اللسان

إعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير . وقال معاذ بن جبل قلت : يا رسول اللّه أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال: « يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »[1] وكان ابن مسعود رضي اللّه عنه يقول : يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم . وقال ﷺ : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »[2] .

قال عقبة بن عامر : قلت : يا رسول اللّه ! ما النجاة ؟ قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك »[2] ، وقال رسول اللّه ﷺ : « مَن يتكفل لي ما بين لحييه ، ورجليه ، أتكفل له الجنة »[3] ( الآثار ) كان أبو بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه يضع حصاة في فيه ، ويمنع نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ، ويقول : هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبد اللّه بن مسعود: واللّه الذي لا إله إلاّ هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال طاووس: لساني سَبعٌ، إن أرسلته أكلني وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. قال الأوزاعي رحمه اللّه تعالى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رضي اللّه تعالى عنه : أما بعد فإن مَن

(١) ابن ماجه والترمذي والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وقد سبق قبل قليل بلفظه .

(٣) رواه البخاري .

أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله ، قلّ كلامه إلا فيما يعنيه . وقال يونس بن عبد اللّه : ما من الناس يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله .

وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك : ملك الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقيصر ، فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ، ولا أندم على ما لم أقل . وقال الآخر : إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ، ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ، ولم تملكني . وقال الثالث : عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمة ضرته ، وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على ردّ ما لم أقل ، أقدر مني على رد ما قلت .

## جمل من آفات اللسان

## الأولى : الكلام فيما لا يعني

إعلم أن رأس مال العبد أوقاته : فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة ، فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] . وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه ، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان ، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

## الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم ، وهو يتناول الخوض فيما لا يعني ، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يُجسمه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة ، فإن ذكر كلمتين فالثانية

---

(١) رواه مالك وأحمد وسنده صحيح ( مم ) .

فضول ـ أي فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم لما سبق ، وإن لمْ يكن فيه إثم ولا ضرر . واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب اللّه تعالى ، قال اللّه عز وجل : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ( النساء : ١١٤ ) . قال عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب اللّه تعالى وسنة رسول اللّه ﷺ أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق لحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ؟! أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ وقال ابن عمر : إن أحق ما طهّر الرجل لسانه .

## الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق ، وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن ذلك مما لا يحل الخوض فيه ، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها ، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا . قال ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ﴾ ( المدثر : ٤٥) . وبقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء : ١٤٠) . وعنه ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ، فيكتب اللّه بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ، فيكتب

اللّه عليه بها سخطه إلى يوم القيامة »[1] .

## الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهي عنه قال ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل »[2] .

وقال بلال بن سعيد : إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه ؛ فقد تمت خسارته ، وقال ابن أبي ليلى : لا أماري صاحبي ، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه ، والمراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته ، فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه .

والواجب إن جرى الجدل في مسألة علمية السكوت ـ أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكاية ـ أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن ، وأما قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، فهي المجادلة المحظورة التي لا نجاة من إثمها إلا بالسكوت ، وما الباعث عليها إلا الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه ، وهما صفتان مهلكتان ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه ، على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتماريين ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره .

---

(١) رواه البخاري نحوه وقد تقدم .

(٢) وتمام الحديث : ثم قرأ رسول اللّه ﷺ هذه الآية : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وسنده صحيح ( مم ) .

## الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؟ وحقيقتها لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مغصوب . وفي الحديث : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »[1] ولا تكون الخصومة مذمومة إلا إن كانت بالباطل أو بغير علم ، كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أي جانب ، أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لا حاجة لها في نصرة الحجة وإظهار الحق ، أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ، مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدي عناده وكسر غرضه ، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي ، وهذا مقصود اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً ، فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف ، وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً ، فإن ضبط اللسان في الخصومة على قدر الاعتدال متعذر .

والخصومة تُوغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه ، فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة ، وذلك متعذر جداً ، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ ( البقرة : ٨٣ ) وقال ابن عباس رضي الله عنهما « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان

---

(١) رواه البخاري .

مجوسياً »[1] إن اللّه تعالى يقول : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَآ﴾ ( النساء : ٨٦ ) . وقال ابن عباس أيضاً : « لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه » وفي الحديث « الكلمة الطيبة صدقة »[2] .

وقال عمر رضي اللّه عنه : « البر شيء هين : وجه طليق وكلام لين » وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال آخر : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك ، فلا تكن به عليه بخيلاً ، فلعله يعوضبك منه ثواب المحسنين .

## الآفة السادسة : التقعر في الكلام

وهو التشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه ، فإنه من التكلف الممقوت ، إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا إغراب ، فلرشاقة اللفظ تأثير في ذلك .

## الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه ، ومصدره الخبث واللؤم ، قال عليه الصلاة والسلام : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء »[3] وعنه : « إن اللّه لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » وحد الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة

---

(١) وقد وضع الرسول ﷺ لذلك شروطاً موجودة في كتب الفقه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الترمذي والبيهقي وقال الترمذي : هذا حديث غريب . وهو حسن لذاته ، صحيح لغيره ( مم ) .

فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز والكناية ، قال ابن عباس : إن اللّه حيي كريم يعفو ويكني ، كنى باللمس عن الجماع ، فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوقاع وليس بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير ، وكل ما يستحى منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش .

والباعث على الفحش : وإما قصد الإيذاء ، إما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب .

ورد أن أعرابياً قال لرسول اللّه ﷺ : أوصني ، فقال : « عليك بتقوى اللّه ، وإن امرؤ عيَّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه ، وأجره لك ولا تسبن شيئاً [1] بعده » . وعنه ﷺ : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر [2] » وعنه ﷺ « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه » قالوا : يا رسول اللّه ، كيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل ، فيسب الآخر أباه » [3] .

## الآفة الثامنة : اللعن

اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، وكل ذلك مذموم ، قال رسول اللّه ﷺ : « المؤمن ليس بلعان [4] » واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من اللّه تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من اللّه عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، وفي لعن فاسق معين خطر غالباً ، فليتجنب ولو بعد

---

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد . قاله الحافظ العراقي .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) ورد بلفظ ( ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ، ولا البذيء ) وقد سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

موته ، بل قد يكون أشد إن كان فيه أذى للحي ، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر .

## الآفة التاسعة : الغناء والشعر

والمذموم منها ما اشتمل على محرم أو دعا إليه كتشبيب بمعين وهجاء وتشبه بالنساء ، وتهييج لفاحشة ولحوق بأهل الخلاعة والمجون وصرف الوقت إليه ونحو ذلك ، وما خلا ذلك فهو مباح[١] .

## الآفة العاشرة : المزاح

والمنهي عنه المذموم منه هو المداومة عليه والإفراط فيه ، فأما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك والضغينة في بعض الأحوال ، ويسقط المهابة والوقار ، وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً[٢] » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال عمر : من مزح استُخف به . وقال سعيد ابن العاص لابنه : يا بُني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيء فيجترىء عليك . وقيل : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح ويقال : المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء .

ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى لعب الزنوج في يوم عيد ، وهو خطأ . وبالجملة : فإن كنت تقدر على أن تمزح ولا تقول

---

(١) بشرط أن يخلو من المعازف لقوله ﷺ : « ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحِر ( الزنى ) والحرير والمعازف . . » رواه أبو داود وإسناده صحيح ( الأحاديث الصحيحة ١/١١٠ ) .

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن ( مج ) .

إلا حقاً ، ولا تؤذي قلباً ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه . ومن مطايباته ﷺ .

جاءت امرأة فقالت : يا رسول اللّه ، احملني على بعير . فقال : « بل على ابن البعير » فقالت : ما أصنع به ، إنه لا يحملني . فقال ﷺ « ما من بعير إلا وهو ابن بعير »[1] .

وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عُمير : وكان رسول اللّه يأتيهم ويقول : « أبا عمير ما فعل النُّغير»[2] النغير: كان يلعب به، وهو فرخ العصفور .

وقالت عائشة رضي اللّه عنها إنها كانت مع رسول اللّه ﷺ في سفر ، وهي جارية ، قالت : لم أحمد اللحم ، ولم أبدن . فقال لأصحابه : تقدموا ، فتقدموا ثم قال : تعالي أسابقك ! فسابقته ، فسبقته على رجلي . فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت . خرجت معه في سفر ، فقال لأصحابه : تقدموا ، فتقدموا ، ثم قال : تعالي أسابقك ، ونسيت الذي كان ، وقد حملت اللحم ، فقلت كيف أسابقك يا رسول اللّه وأنا على هذه الحال ! فقال: لتفعلن ! فسابقته ، فسبقني . فجعل يضحك ، وقال هذه بتلك السبقة[3] .

وقالت أيضاً : كان عند رسول اللّه ﷺ سودة بنت زمعة فصنعت خزيراً وجئت به فقلت لسوده : كلي ، فقالت : لا أحبه . فقلت : واللّه لتأكلن أو لألطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقته فأخذت بيدي من الصفحة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول اللّه بيني وبينها ، فخفض لها

---

(١) رواه أبو داود عن أنس بلفظ أن رجلاً استحمل ( طلب منه أن يحمله على دابة ) فقال : إني حاملك على ولد ناقة ! فقال : ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟! رواه الترمذي وأبو داود وسنده صحيح ( مم ) .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسنده صحيح .

ركبته لتستقيد فتناولت من الصفحة شيئاً فمسحتْ به وجهيْ ، وجعل رسول اللّه ﷺ يضحك[1]، وعن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن بن علي رضي اللّه عنهما فيرى الصبي لسانه فيهش له[5] .

وقال عيينة الفزري : واللّه ليكونن إلي الابن قد تزوج وخرج وجهه وما قبلته قط ، فقال ﷺ : « إن من لا يَرْحم لا يُرْحم »[2] .

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل .

وقال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً : « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : إنما آكل بالشق الآخر يا رسول اللّه ، فتبسم ﷺ[3] ، وقال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه .

فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم .

## الآفة الحادية عشرة

( السخرية والاستهزاء ) وهو مُحرّم ، قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ( الحجرات : ١١ ) ، ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل وقد يكون بالإشارة والإيماء ، ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه والاستهانة به والاستصغار له ، وعليه قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ( الحجرات : ١١ ) أي لا تستحقره

(١) رواه الزبير بن بكار في كتابه « الفكاهة » بإسناد جيد كما قال الحافظ العراقي .

(٢) رواه البخاري ومسلم بلفظ : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : أتقبلون الصبيان ؟! فما نقبلهم . فقال النبي ﷺ : « أو أملك لك أن نزع اللّه من قلبك الرحمة ؟!

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم ورجاله ثقات .

استصغاراً فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وفرح بمن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار ما يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذ تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته لعيب فيه ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها .

## الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي ﷺ : « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة[1] » وقال : « الحديث بينكم أمانة[2] » فإفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

## الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق . قال اللّه تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ ( المائدة : ١ ) وقد أثنى اللّه تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ ( مريم : ٥٤ ) ولما حضرت عبد اللّه بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إليّ ابنتي رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد ، فواللّه لا ألقى اللّه بثلث النفاق ، أشهدكم أني قد زوجته ابنتي .

---

(١) رواه احمد وأبو داود والترمذي والضياء وسنده حسن ( مج ) .

(٢) ورد مرفوعاً عن عثمان وعن ابن عباس بلفظ : « إنما المجالس بالأمانة » وسنده حسن (مج) .

وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا يقول : إن شاء اللّه وهو الأولى ، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد عن الوفاء إلا أن يتعذر ، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق ، وقال ﷺ : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان[1] » وقال ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر[2] » وهذا ينزل على من إذا وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر . فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً ، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة .

## الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهي من قبائح الذنوب وفواحش العيوب ، قال ﷺ : « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار[3] » وعنه « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب[4] » .

## بيان ما رخص فيه من الكذب

إعلم أن الكذب حرام لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره وقد ، يتعلق به مصلحة فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً كما إذا كان في الصدق سفك دم امرىء قد اختفى من ظالم ، فالكذب به واجب ، وكما إذا كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه ابن ماجه والنسائي واسناده حسن كما قال الحافظ العراقي .

(٤) رواه احمد والطبراني باسناد جيد قاله العراقي .

أو تعاشر الزوجين إلا بكذب ، فالكذب مباح ، إلا أنه يقتصر على حد الضرورة لئلا يتجاوز إلى ما يستغني عنه ، وفي معنى ذلك وردت أحاديث كثيرة ، قال ثوبان : الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً أو دفع عنه ضرراً .

## الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

قد نص اللّه سبحانه على ذمها في كتابه الكريم، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ( الحجرات : ١٢) وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه[1] » والغيبة تتناول العرض ، وعن مجاهد أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ( الهمزة : ١ ) الهمزة : الطعان في الناس ، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس ، وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب الناس فاذكر عيوبك . وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار محسودك كما قيل :

وإذا أراد اللّه نشر فضيلة طُويت أتاح لها لسان حسود

والقول الجامع في الغيبة ما جاء من قوله ﷺ : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره »[2] وإنما حرم الذكر باللسان لما فيه من تفهيم الغير نقصان أخيه ، وتعريفه بما يكرهه ـ ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول ، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة ـ وهو حرام ، فمن أومأ بيده إلى قصر أحد أو طوله ، أو حاكاه في المشي كما يمشي فهو غيبة ، والكتابة عن شخص في عيب به غيبة ، لأن القلم أحد اللسانين . وكذا قولك : من قدم من السفر أو بعض من مر بنا اليوم إذا كان المخاطب يفهمه فهو غيبة ـ وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة

---

(١) هو جزء من حديث رواه مسلم وأوله : المسلم أخو المسلم . .

(٢) رواه مسلم بلفظ : « هل تدرون ما الغيبة » ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال : « ذكرك أخاك بما يكره » .

الدعاء كقوله : الحمد للّه الذي لم يبتلينا بكذا ـ وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته ، فيقول ما أحسن أحوال فلان ولكنه ابتلى به كلنا ، وهو كذا ، فليذكر نفسه ، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين ، فيقول : سبحان اللّه ما أعجب هذا حتى يُصغى إليه ويعلم ما يقول فيذكر اللّه تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه ، وكذلك يقول ، ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به ، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام ، لأنه لو اغتم لاغتم بإظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب اللّه علينا وعليه ، وهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، واللّه مطلع على خبث ضميره وخفي قصده ، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت عظيم .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فإنه إنما يظهر التعجب ، ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها ، وكأن يستخرج منه بهذا الطريق فيقول : عجيب ! ما علمت أنه كذلك ، كنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا اللّه من بلائه فإنه كل ذلك تصديق المغتاب والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف ـ وفي الحديث : « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على اللّه أن يرد عن عرضه يوم القيامة[1] » .

## الأسباب الباعثة على الغيبة

(منها) التشفي ـ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضبه فيشتفي بذكر مساوئه ، فسبق اللسان إليه بالطبع ، إن لم يكن ثَم دين وازع ، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ،

---

(١) جاء في كتاب « الترغيب والترهيب » بلفظ : « من ذب عن عرض أخيه ، ردّ اللّه عنه عذاب النار يوم القيامة » وتلا رسول اللّه ﷺ : ( وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ) رواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ في كتاب « التوبيخ » وهو حسن الأسناد «مت» .

فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

(ومنها) موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، وقد يغضب رفقاؤه فيضطر إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء ، فيعوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء .

(ومنها) إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره .

(ومنها) الحسد ، وهو أن يحسد من يثني الناس عليه ، ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه ، حتى يكفوا عن الثناء عليه وإكرامه ، لأنه يثقل عليه ذلك .

(ومنها) اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والتعجب .

(ومنها) السخرية والاستهزاء استحقاراً له ، ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به .

## بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

إعلم أن مساوىء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وعلاج كف اللسان عن الغيبة إجمالاً ، أن يعلم أنه يتعرض لسخط الله تعالى إذا اغتاب ، لارتكابه ما نهى الله عنه ، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة[1] لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك ، وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه

---

(١) هناك أحاديث كثيرة في الترهيب من الغيبة نذكر منها : « من أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه » رواه البزار باسنادين أحدهما قوي . وهو صحيح « مت » وفي رواية لأبي داود « بغير حق » وهو صحيح . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي : « حسبك من =

فإن وجد فيها عيباً ، اشتغل بعيب نفسه .

ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمراً خَلقياً ، فالذم له ذم للخالق، فإن من ذم صنعة ، فقد ذم صانعها ، وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه ، فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف ، لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب ، جهل بنفسه ، وهو من أعظم الذنوب ، وينفعه أيضاً أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، إذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتاب ، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه ، وبالجملة فمن قوي إيمانه انكف عن الغيبة لسانه .

## بيان تحريم الغيبة بالقلب وذلك بسوء الظن

إعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره ظناً بأمر سيء . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه ، ولكن المنهي عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فقد قال تعالى ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ**﴾( الحجرات : ١٢ ) وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ، فإن لم ينكشف كذلك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه ، فإنه أفسق

---

= صفية كذا وكذا » قال بعض الرواة تعني : « قصيرة » فقال النبي ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » رواه البيهقي . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وهو كما قال : « مت » .

الفسق، وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ (الحجرات: ٦) وفي الحديث: «إن الله حرم من المسلم دمه وماله، وأن يُظن به ظن السوء» وحينئذ فإذا خطر لك وسواس سوء الظن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

## بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

إعلم أنه إذا لم يمكن التوصل إلى غرض صحيح في الشرع إلا بذكر مساوىء الغير، فإنه يُرخص فيه، ولا إثم، وذلك في أمور (**منها**) التظلم وذلك كمظلوم يرفع ظلامته على إنسان إلى أمير ليستوفي له حقه، لا يمكنه استيفاء حقه إلا بنسبته إلى الظلم، قال ﷺ: «إن لصاحب الحق مقالاً[1]» وعنه ﷺ «مطل الغني ظلم».

(**ومنها**) الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح.

(**ومنها**) الاستفتاء كأن يقول للمفتي: ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي إذا لم يفد الإبهام أو التعريض. وذلك لما ورد عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخذه من غير علمه؟ فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف[2]» فذكرت الشح والظلم لها ولولدها، ولم يزجرها عليه السلام إذ كان قصدها الاستفتاء.

(**ومنها**) تحذير المسلم من الشر، كما إذا علمت من إنسان ضرراً فحذرت شخصاً منه، وكالمزكي يطعن في الشاهد إذا سئل عنه، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) جاء في أصل «الأحياء». وفي الحديث الصحيح: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض =

(ومنها) أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه ، كالأعرج والأعمش ، فلا حرج في ذكره لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه ، لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى . ولذلك يقال للأعمش البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

(ومنها) أن يكون مجاهراً بالفسق متظاهراً به . ولا يكره أن يُذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به .

## بيان كفارة الغيبة

إعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج من حق اللّه سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من ظلمته ، إن قدر عليه ولم يخش محذوراً[٣] .

وليس المراد إباحة تناول عرضه بل العفو عن جريمته ، وقد قال تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

## الآفة السادسة عشر النميمة

قال اللّه تعالى : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ ( القلم : ١١ ) ، وقال اللّه تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قيل الهمزة : النمام ، وقال تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ

---

= أو مال فيستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم ، إنما يؤخذ من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات ، أخذت من سيئات صاحبه ، فزيدت على سيئات » رواه البخاري ومسلم .

وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشي إلى أخيك فتقول له : كذبت فيما قلت وظلمتك ، وأسأت ، فإن شئت أخذت حقك ، وإن شئت عفوت. قد يقول قائل : يخشى أن يؤدي ذلك إلى فتنة عند بعضهم . فأجيب إذا علم المغتاب كل ذلك تحاشى الغيبة من الأصل ولم يقربها .

الْحَطَبِ﴾ ( المسد : ٤ ) قيل إنها نمامة حمالة للحديث ، وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام »[1] .

وحد النميمة هو كشف ما يكره كشفه ، سواء كان كرهه المنقول إليه أو كرهه ثالث ، وساء كان الكشف بالقول أو بالكتابة . أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان عيباً ونقصاً في المنقول عنه ، أو لم يكن ، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس ، مما يكره ، فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له .

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه ، أو إظهار الحب للمحكي له ، والتفرج ( أي التسلي ) بالحديث والخوض في الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه نميمة فيجب أن لا يسارع إلى ظن صدق الحامل لقوله تعالى : ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ( الحجرات : ٦ ) وأن ينهاه وينصح له ، وأن لا يظن بالغائب سوءاً ، وأن لا يحمله ذلك على التجسس .

وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة ، فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال الحسن : من نم إليك نم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يُبغَض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين الناس ، وهو ممن يسعى في قطع ما أمر اللّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

﴿يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ( الشورى : ٤٢ ) وشر النمام عظيم يجب أن يتوقى .

قال حماد بن سلمة : باع رجل عبداً وقال للمشتري : ما فيه عيب إلا النميمة .

قال : رضيت ، فاشتراه ، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدي لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك ، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها ، فيحبك .

ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلاً ، وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك . فتناوم لها ، فجاءت المرأة بالموسى ، فظن أنها تريد قتله ، فقام إليها وقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين ، فنسأل اللّه حسن التوفيق .

## الآفة السابعة عشرة : كلام ذي الوجهين

وهو ذو اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه من الثناء عليه في معادلته ، وذمه الآخر ووعده بأن ينصره على خصمه ، وهو من علامات النفاق ، نعم إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما ، وكان صادقاً فيه ، لم يكن ذا لسانين ولا منافقاً ، فإن الإنسان قد يصادق متعاديين ، وأما نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين ، وهو شر من النمام ، لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط ، وهذا يريد النقل من الجانب الآخر ويريد أن يحسِّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه ، نعم من ابتلي بمراعاة أحد الجانبين في قول ما ، لضرورة وخاف من تركه ، فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز ، قال أبو الدرداء رضي اللّه عنه : إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة : استأذن رجل على رسول اللّه ﷺ ، فقال : « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » ، ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول اللّه قلت فيه

ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال : « يا عائشة : إن شر الناس الذي يُكرم اتقاء شره[1] » ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم ، وإلا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه ، وللضرورات حكمها .

## الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح ، فأما المادح ( **فالأولى** ) أنه قد يفرط فيه فينتهي به إلى الكذب ( **والثانية** ) أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً ( **والثالثة** ) أنه يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ( **والرابعة** ) أنه قد يفرح الممدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز ، قال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء ، فقد أحب أن يُعصي اللّه في الأرض .

وأما الممدوح فيضره من وجهين ( **أحدهما** ) أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً ، وهما مهلكان ( **والثاني** ) هو أنه إذا أثنى عليه فرح وفتر ورضي عن نفسه وقد تشميره للعمل .

فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح ، لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوباً إليه .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ويتذكر أنه يعلم من نفسه ما لا يعلمه المادح ، وأنه لو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره ، لكف المادح عن مدحه . وكان عليٌّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

رضي اللّه عنه إذا أثنى عليه يقول : « اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيراً مما يظنون » . وعلى المادح أن لا يجزم القول إلا بعد خبرة باطنة . سمع عمر رضي اللّه عنه رجلاً يثني على رجل فقال : أسافرت معه ؟ قال : لا ، قال : أخالطته في المبايعة والمعاملة ؟ قال : لا ، قال : أفأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : واللّه الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه ، وفي الحديث : أن رجلاً مدح رجلاً عند رسول اللّه ﷺ فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك ، إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل : أحسب فلاناً ، ولا أزكي على اللّه أحداً »[١] . وفي الحديث : « أحثوا في وجوه المداحين التراب »[٢] .

## الآفة التاسعة عشرة : الخطأ في دقائق لفظية

ينبغي التنبيه لدقائق الخطأ في فحوى الكلام، والحذر عن الغفلة عنها ، لا سيما فيما يتعلق باللّه وصفاته ؛ مثاله ما جاء في الحديث عنه ﷺ : « لا يقل أحدكم ما شاء اللّه وشئت ولكن ليقل ما شاء اللّه ثم شئت[٣] » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام ، وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ باللّه وبك ، ولولا اللّه وفلان . ويجوز أن يقول أعوذ باللّه ثم بك ، ولولا اللّه ثم فلان . وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول : لولاه لسُرقنا الليلة .

وقال عمر : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » قال عمر : فواللّه ما حلفت بها منذ سمعتها .

وقال أبو هريرة قال رسول اللّه ﷺ : « لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح .

كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي ، ولا يقل : ربي ولكن ليقل سيدي وسيدتي فكلكم عبيد الله »[1] .

وقال ﷺ : « لا تقولوا للمنافق : سيدي ، فإنه إن يكن سيداً أسخطتم ربكم[2] » فعلى المتكلم أن يوافقه ورع حافظ ، ومراقبة لازمة ليسلم من الخطر .

## الآفة العشرون : الخوض في صفات الله تعالى وكلامه

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح إلا أن الفضول خفيف على القلب ، والعامي قد يفرح بالخوض في العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنه من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر ولا يدري . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عامي ، وفي الحديث « نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال »[3] .

## كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

إن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد ـ وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين فمن استفزته نار الغضب ، فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال : ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ( الأعراف : ١٢ ) فإن

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أبو داود وسنده صحيح (مم) .

(٣) حديث النهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال . رواه البخاري ومسلم .

شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظي والاستعار والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساوئه ، ليحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن القلب إن كان وينفيه . وهاك بيان ذلك بعونه تعالى .

## بيان ذم الغضب

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح : ٢٦) الآية : ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة . وثبت أن رجلاً قال يا رسول اللّه مُرني بعمل وأقلل . قال : « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب »[١] . وقال ﷺ : « ما تعدون الصرعة فيكم » ؟ قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : « ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب »[٢] .

وعن جعفر الصادق : « الغضب مفتاح كل شر » وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجمل في فاقة ، وإحسان في رفاقة ، وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

بطنة ، ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ولا يبذر ، ولا يسرف ولا يقتر ، يغفر إذا ظُلم، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء .

## درجات الناس مع الغضب

إعلم أن قوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب وانتشاره في العروق ، وارتفاعه إلى أعلى البدن كما ترتفع النار والماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حُمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها .

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث : من التفريط ، والإفراط ، والاعتدال ( **أما التفريط** ) ففقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه : إنه لا حمية[1] له ، ولذلك قال الشافعي رحمه اللّه تعالى : من استغضب ، ولم يغضب ، فهو حمار ! فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً ، فهو ناقص : وجاء في حديث رواه جابر : « كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه » وفي رواية زيادة « كأنه مُنذر جيش ، ويقول : صبحكم ومساكم !»[2] ، وقد وصف اللّه سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية فقال : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ( الفتح :

---

(١) وهناك فريق من الناس فقدوا حميتهم الدينية ، ولكن حميتهم عن مالهم ودنياهم ، فشديدة وقوية . وعن مثلهم قال الشاعر :

| | |
|---|---|
| أبني إن من الرجال بهيمة | في صورة الرجل السميع المبصر |
| فطن لكل مصيبة في ماله | وإذا أصيب بدينه لم يشعر ! |

(٢) رواه مسلم وابن ماجة وابن حبان ، والحاكم ، والزيادة للثلاثة الآخرين وهي صحيحة ( مج ) أقول : فأين هذا النهج القوي في الخطبة ، التي تثير النفوس وتوقظ الغافلين ، من كثير من خطباء المساجد اليوم الذين يخطبون بلهجة واحدة مما يؤدي إلى نوم كثير من المستمعين ومللهم! وخاصة إذا كان موضوع الخطبة لا يتجاوب مع مشكلاتهم .

٢٩) وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ( التحريم : ٩ ) ، وإنما الغلظة والشدة من آثار قسوة الحمية وهو الغضب .

**﴿ وأما الإفراط ﴾** فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معه بصيرة وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطر . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان في حال غضبه قبح صورته ، لكف غضبه حياء من قبح صوته ، واستحالة خلقته . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً ؛ فتغيُّر الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فقس المثمر بالثمرة ، فهذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم ، والفحش من الكلام الذي يستحيي منه ذو العقل ، ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

وأما أثره على الأعضاء ، فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن ، وقد يمزق ثوب نفسه ، ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض وربما يعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات أو يكسر القطعة أو يشتم البهيمة أو ترفسه دابة فيرفسها ، ويقابلها بذلك كالمجنون !

وأما أثره في القلب ، فالحقد والحسد وإضمار السوء ، والشماتة بالمساءات ، والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر

والاستهزاء وغير ذلك من القبائح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط[1] .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس ، وهو أيضاً مذموم، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو صونها، قال ﷺ «إن سعداً لغيور، وأنا أغير من سعد والله أغير مني»[2]. وإنما خُلقت الغيرة لحفظ الأنساب. ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها، وضعت الصيانة في نسائها!

ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ ( النور : ٢ ) .

وفقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذي قالت فيه الحكمة : « خير الأمور أوسطها ! » .

## زوال الغضب بالرياضة وغيرها

إعلم أنه ما دام الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً ، فلا يخلو من الغيظ والغضب لأنه من مقتضى الطبع ، إلا أنه قد تفيد الرياضة في محو قوته ، وذلك بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً. فالرياضة ليست لينعدم غلظ القلب ، لأنه غير ممكن ، ولكن ليستعمله على حد يستحبه الشرح ويستحسنه العقل ، وذلك بكسر سورته

---

(١) حدثنا مصنف « الإحياء » فيما سبق عن أضرار الغضب على الدين والأخلاق ، ولا يخفى امتداد هذه الأضرار إلى الجسم والعقل ، وتأثير كل ذلك على القلب . ومما سبق ندرك حكمة الرسول ﷺ في وصيته العظيمة : في الحديث الصحيح : « لا تغضب » ! .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

وتضعيفـه حتى لا يشتد هيجـان الغيظ في البـاطن ، وينتهي ضعفـه إلى أن لا يظهر أثره في الوَجه ، وقد يتصور فقد الغيظ بغلبة نظر التوحيد ، أو بأن يعلم أن اللّه يحب منه أن لا يغتاظ ، فتـطفىء شدة حبـه للّه تعالى غيـظه ، أو بأن يشتغـل القلب بضـروري أهم من الغضب ، فـلا يكـون في القلب متسـع للغضب ، لاشتغـاله بغيـره ، فـإن استغـراق القلب ببعض المهمـات ، يمنـع الاحساس بما عداه !

## بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابهـا ، فلا بـد من معـرفة أسبـاب الغضب ، وأسبابـه المهيجـة لـه هي : الـزهـو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، ولا خـلاص من الغضب مـع بقـاء هـذه الأسبـاب ، فـلا بـد من إزالتهـا بـأضدادهـا . فينبغي أن تميت الزهـو بالتـواضـع ، وتميت العُجب بمعـرفتـك بنفسـك ، وتـزيـل الفخـر بـأنـك من جنس البشر ، إذ النـاس يجمعهم في الانتسـاب أب واحـد ، وإنمـا الفخـر بـالفضـائـل ، والفخـر والعجب أكبـر الرذائل ، وأما المزاح فتزيله بالتشـاغل بـالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه ! وأما الهزال فتـزيله بالحـد في طلب الفضائـل والأخلاق الحسنـة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخـرة[1] . وأما الهـزء فتزيله بـالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن مر الجواب .

وأمـا شـدة الحـرص ، فبـالصبـر علـى مـر العيش بـالقنـاعـة ، بقـدر الضرورة ، طلباً لعز الاستغناء ، وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكـل خلق من هـذه الأخـلاق وصفـة من هـذه الصفـات ، يفتقـر في

---

(١) وما أروع قولـه ﷺ في الحديث الصحيـح : « والذي نفسي بيـده لو تعلمـون ما أعلم لبكيتم كثيراً ، ولضحكتم قليلاً » رواه البخاري .

علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، حتى تصير بالعادة هينة مألوفة على النفس : فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً من الغضب الذي يتولد منها . وأشد البواعث للغضب عند أكثر الجهال تسميتهم أيضاً من الغضب شجاعة ، وعزة نفس ، حتى تميل النفس إليه ، وتستحسنه . وهذا من الجهل بل هو من مرض قلب ونقصان عقل وضعف نفس ، ودليل ذلك أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة ، أسرع غضباً من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته ، بل القوي من يملك نفسه عند الغضب »[1] كما قال رسول اللّه ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرعَة ، بل الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الجهلة والأغبياء الذي لا عقول لهم ولا فضل فيهم .

## بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما تقدم هو حسم لمواد الغضب ، حتى لا يهيج ، فإذا جرى سببٌ هيجه ، فعنده يجب التثبت ، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل ، أما العلم فهو أمور :

**(الأول)** أن يتفكر فيما ورد في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، ويمنعه الرغبة في الأجر عن الانتقام ، وينطفىء عنه غيظه .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(الثاني) أن يخوِّف نفسه بعقاب اللّه لو أمضى غضبه ، وهل يأمن من غضب اللّه عليه يوم القيامة وهو أحوج ما يكون إلى العفو . قيل كان فيمن كان قبلكم ملك ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : إرحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة : فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه .

(الثالث) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف الآخرة .

(الرابع) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري ، والسبع العادي ؛ ومشابهة الحليم الهادىء التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء . ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم ، لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان بقي معه مسكة من عقل .

(الخامس) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ، مثل قول الشيطان له : إن هذا يُحمل منك على العجز والذلة وتصير حقيراً في أعين الناس ، فيقول لنفسه ، ما أعجبك ! تأنفين من الاحتمال الأن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة ، ولا تحذرين من أن تصغري عند اللّه والملائكة والنبيين ، فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه للّه ، وذلك يعظمه عند اللّه ، فما له وللناس . وأما العمل ، فأن تقول بلسانك : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم[1] ، وإن كنت قائماً فاجلس ، وإن كنت جالساً

---

(١) الأمر بالتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم عند الغيظ حديث رواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبي ﷺ ، ورجلان يستبان ، فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه . الحديث ، وفيه لو قال أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد .

فاضطجع[1] ، فإن لم يُزل فليتوضأ بالماء البارد ، فإن الغضب من النار ، والنار لا يطفئها إلا الماء[2] .

قال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ، فيشتد غضبه ، فكتب ثلاث صحائف ، وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول : إذا غضبت فأعطني هذه ، وقال للثاني : إذا سكن بعض غضبي ، فأعطني هذه ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبي ، فأعطني هذه ، فاشتد غضبه يوماً فأعطي الصحيفة الأولى ، فإذا فيها : « ما أنت وهذا الغضب ؟! إنك لست بإله ! إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً » فسكن بعض غضبه ، فأعطي الثانية ، فإذا فيها : « ارحم من في الأرض ، يرحمك من في السماء » فأعطي الثالثة ، فإذا فيها : « خذ الناس بحق اللّه ، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك » أي لا تعطل الحدود.

## فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٣و ١٣٤) دلت الآية على أن الكاظمين من المتقين ،وأن مغفرة ربهم تنالهم وجنته أعدت لهم ، فما أفضل هذا الجزاء ، يروى أن رجلاً من جفاة الأعراب قال لعمر رضي اللّه عنه : واللّه ما تقضي بالعدل ولا تُعطي الجزل ، فغضب عمر حتى عُرف ذلك في وجهه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ ( الأعراف : ١٩٩ ) إن هذا من الجاهلين ، فسكن عمر رضي اللّه عنه وعفا عنه .

---

(١) وهو معنى حديث رواه أحمد والترمذي : « إذا غضب أحدكم ، وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضجع » وسنده صحيح (مم) .

(٢) وهو معنى حديث ولكنه ضعيف ، ولعل معناه صحيح .

# فضيلة الحلم

إعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلُّم ، أي تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة ، صار ذلك اعتياداً ، فلا يهيج الغيظ ؛ وإن هاج ، فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً ، وفي الحديث : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم »[1] إشارة إلى أن اكتساب الحلم طريقة التحلم أولاً وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقة التعلم ، وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰماً﴾ ( الفرقان : ٦٣ ) قال : حلماء ، إن جُهل عليهم لم يجهلوا ، وعن مجاهد في آية : ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ ( الفرقان : ٧٢ ) أي إذا أُوذوا صفحوا .

( **ومن الآثار** ) عن علي رضي اللّه عنه : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لا تباهي الناس بعبادة اللّه ، وإذا أحسنت ، حمدت اللّه تعالى ، وإذا أسأت ، استغفرت اللّه تعالى » وقال أكثم : دعامة العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر ، وقال معاوية : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهلَه وصبره شهوتَه ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : أي الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنياه لصلاح دينه ، وقال معاوية لعرابة : بم سدت قومك ؟ قال كنت أحلم

---

(١) وتمامة : « ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » ضعفه العراقي فلم يحالفه الصواب ، وهو حديث حسن . يراجع من أجل التثبت من ذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤٢) ولهذا الحديث تطبيقات تربوية وعلمية في منتهي الروعة ذكرها الإمام الغزالي في مبحث سبق عند الكلام على قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة !

عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ؛ وأسعى في حوائجهم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصّر عني ، فأنا خير منه .
وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ( فصلت : ٣٤ و ٣٥ ) هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذباً فغفر اللّه لك ، وإن كنت صادقاً فغفر اللّه لي ، وعن علي بن الحسين رضي اللّه عنهما أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يبعده من اللّه عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير .

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وسبّ رجل ابن عباس رضي اللّه عنهما ، فلما فرغ قال : يا عكرمة ! هل للرجل حاجة ، فتقضيها له ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه : أشهد أنك من المنافقين . فقال له : ليس تقبل شهادتك ـ وقال رجل لجعفر بن محمد : إنه وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإني أريد أن أتركه ، فأخشى أن يقال لي : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال رجل لبعض الحكماء : واللّه لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك ، فقال : معك يدخل لا معي .

وقال محمود الوراق :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه عليّ الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت أن الفضل بالحلم حاكم

ومر المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم ، فقالوا له شراً ، فقال لهم خيراً فقيل له : إنهم يقولون شراً وأنت تقول لهم خيراً ؟ فقال : كل ينفق مما عنده . وقال لقمان : ثلاثة لا يُعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . وضرب رجل قدم حكيم ، فأوجعه ، فلم يغضب ، فقيل له في ذلك ، فقال : أقمته مقام حجر تعثرت به ، فذبحت الغضب[1] !

## بيان القدر الذي يجوز به الانتصار من الكلام

إعلم أن كل ظلم صدر من شخص ، فلا يجوز مقابلته بمثله ، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي ، والذي يرخص فيه أن تقول : من أنت - ويا أحمق - ويا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه حمق وجهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب ، وكذلك قوله : يا سيء الخُلق ، يا ثلاباً للأعراض ، وكان ذلك فيه ، وكذلك قوله : لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، واستدلوا بالحديث : « المستبَّان ما قالا فعلى البارىء منهما حتى يعتدي المظلوم[2] » فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي .

فهذا القدر الذي أباحه هؤلاء ، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إذائه السابق ، قال الغزالي : ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجره إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب ، لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع . ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ، ولكن يعود سريعاً ، وورد أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحمراء - أي السوداء - في خصومة بينهما ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : يا أبا ذر بلغني

---

(١) كل هذه الرقائق المؤثرة حذفها المختصر ، فأثبتناها .

(٢) رواه مسلم .

أنك اليوم عيرت أخاك بأمه ! فقال نعم : فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه فسبقه الرجل . . فسلم عليه ، فذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال : يا أبا ذر ! ارفع رأسك فانظر . ثم إعلم أنك لست أفضل من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى[1] .

## معنى الحقد ونتائجه الوخيمة وفضيلة الرفق

إعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجعل إلى الباطن واحتقن فيه ، فصار حقداً ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى ؛ والحقد ثمرة الغضب ، وهو يثمر أموراً منكرة **(الأول)** الحسد وهو أن يحمِّلك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه ، فتغتم بنعمة إن أصابها ، وتسر بمصيبة إن نزلت به . وهذا من فعل المنافقين **(الثاني)** أن يزيد على إضمار الحسد في الباطن ، فيشمت بما أصابه من البلاء **(الثالث)** أن تهجوه وتصارمه وتنقطع عنه ، وإن طلبك وأقبل عليك **(الرابع)** وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له **(الخامس)** أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر وهتك ستر وعورة **(السادس)** أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه **﴿السابع)** إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه **( الثامن )** تمنعه حقه من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة ، وكل ذلك حرام ، وأقل درجات الحقد لو احترز عن هذه الآفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق ، والعناية والقيام بحاجاته ، أو المعاونة على المنفعة له ، وكله مما ينقص الدرجة في الدِّين ، ويفوت الثواب الجزيل .

ولما حلف أبو بكر رضي اللّه عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه ، لأمر ما نزل قوله تعالى : **﴿وَلَا يَأْتَلِ[2] أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾** إلى قوله **﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾** ( النور : ٢٢ )

---

(١) إسناده صحيح كما قال الحافظ العراقي ، ورواه البخاري ومسلم بنحوه .

(٢) لا يحلف .

فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك ، وعاد إلى الإنفاق عليه[1] . والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهداً للنفس وإرغاماً للشيطان ، فذلك مقام الصِّديقين وهو من فضائل أعمال المقربين .

## فضيلة العفو والإحسان

إعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرىء عنه من قصاص أو غرامة قال الله تعالى: **﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾** (الأعراف: ١٩٩)، وقال تعالى: **﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾** (البقرة: ٢٣٧).

ومن الآثار عن الحسن البصري رحمه اللّه : أنه دخل على أمير يعرض له بالعفو ، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب ، فقال : « باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم » وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ، ثم : قال أيها الأمير ماذا صنع اللّه به ، أداله منهم ، ورفع ذكره ، وأعلى كلمته ، وجعله على خزائن الأرض ، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال :**﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾**( يوسف : ٩٢ ) فعفا ذلك الأمير ، وعن ابن مسعود أنه سرقت له دراهم ، فجعلوا يدعون على من أخذها ، فقال لهم : « اللهم إن كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كان حملته جراءة على الذنب ، فاجعله آخر ذنوبه » ، وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال ، فإذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والإفضال .

**(ومن الآثار)** عن ابن عمر عن أبي بكر رضي اللّه تعالى عنهم جميعاً قال : بلغنا أن اللّه تعالى يأمر منادياً يوم القيامة ، فينادي : من كان له عند اللّه شيء فليقم ، فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم اللّه بما كان من عفوهم عن الناس . وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبد اللّه في وفد من أهل

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

البصرة إلى أبي جعفر المنصور ، قال : فكنت عنده ، إذ أتى برجل ، فأمر بقتله ، فقلت : يقتل رجل من المسلمين ، وأنا حاضر ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا أحدثك حديثاً سمعته من الحسن ، قال : وما هو ؟ قلت : سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع اللّه عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادي : من له عند اللّه يد ، فليقم ، ولا يقوم إلا من عفا . فقال أبو جعفر : واللّه لقد سمعتَه من الحسن ؟! فقلت : واللّه لسمعته منه . فقال خلينا عنه . وجاء أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر رضي اللّه تعالى عنهما بصفين ، فقيل له : اقطعه ، فإنه من أعدائنا ! فقال : بل أستر عليه ، لعل اللّه تعالى يستر عليّ يوم القيامة .

## فضيلة الرفق

إعلم أن الرفق محمود ويضاده العُنف والحِدة ، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة ، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وحفظها على حد الاعتدال ، ولأجل هذا أثنى رسول اللّه ﷺ على الرفق وبالغ فيه . وقال ﷺ : « إذا أحب اللّه أهل بيت أدخل عليهم الرفق[1] » وقال ﷺ لعائشة « عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه[2] » .

وسر الترغيب في الرفق والثناء عليه ، هو كون الطباع إلى العنف والحدة أميل ، وإن كان العنف في محله حسناً ، فأن الحاجة قد تدعو إليه ولكن على الندرة ، والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطي كل أمر حقه .

---

(١) رواه أحمد بسند جيد . قاله الحافظ العراقي .

(٢) رواه مسلم ، وهناك أحاديث عديدة في الرفق في « الإحياء » وغيره نذكر منها : «يا عائشة! إن اللّه يحب الرفق في الأمر كله » رواه البخاري ومسلم ، « إن اللّه رفيق يحب الرفق » رواه مسلم و« من يحرم الرفق يحرم الخير كله » رواه مسلم .

(**ومن الآثار**) بلغ عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله ، فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه ، قام خطيباً ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! أيتها الرعية ! إن لنا عليكم حقاً ، النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيتها الرعاة ! إن للرعية عليكم حقاً، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى اللّه، ولا أعز من حلم الإمام ورفقه. وليس جهل أبغض إلى اللّه، ولا أعم من جهل إمام وخرْقه. واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه.

وقال عمر بن عبد العزيز : جاء عن عمرو بن العاص أنه كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني ، فكتب إليه معاوية : (**أما بعد**) فإن التفهم في الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب، أو كاد أن يكون مصيباً. وإن العجل مخطىء، أو كاد أن يكون مخطئاً، وإن من لا ينفعه الرفق، يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب، لا يدرك المعالي.

وعن أبي عون الأنصاري قال : ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين تجري مجراها ! . وقال أبو حمزة الكوفي : لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه ، فإن مع كل إنسان شيطاناً ، واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً ، إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن : إن المؤمن وقاف متأنٍ ، وليس كحاطب ليل ! فهذا ثناء أهل العلم على الرفق ، وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على الندور ! وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطي كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة ، كان ترغيبه في الرفق أفضل ، فإنه أنجح معه في الأكثر .

وقد قيل :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

## ذم الحسد

إعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد الذميم ، وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى ، وقد ورد في ذمه أخبار كثيرة ، منها قوله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد إخواناً كما أمركم اللّه[1] » **(ومن الآثار)** قول بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هي الحسد : حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له ، فحمله الحسد على المعصية . وعن ابن سيرين رحمه اللّه : « ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا ، وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا ، وهو يصير إلى النار » وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً . ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً . وقال معاوية رضي اللّه عنه كل أحد أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها ، وقد قيل :

كل العداوات قد تُرجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال الشاعر :

للّه در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله

## حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه

الحسد نوعان : **(أحدهما)** كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعَم عليه .
**(وثانيهما)** عدم محبة زوالها مع تمني مثلها ، وهذا يسمى غِبطة .

فالأول حرام بكل حال ، إلا نعمة أصابها فاجر ، وهو يستعين بها على مُحرم كإفساد وإيذاء ، فلا يضر محبة زوالها عنه من حيث هي آلة الفساد .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها ، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء اللّه في تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة ، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم ، من غير أن يكون لك منه مضرة ، وإلى هذا أشار القرآن بقوله : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ ( آل عمران : ١٢٠ ) وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ ( الحشر : ٩ ) أي لا تضيق صدورهم ولا يغتمون ، فأثنى عليهم بعدم الحسد . وأما المنافسة فليست بحرام ، بل قد تكون مطلوبة ، قال تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ ( المطففين : ٢٦ ) وقال تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[١] ( الحديد : ٢١ ) وقال ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه اللّه مالاً ، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللّه علماً ، فهو يعمل به ويعلمه الناس »[٢] فلا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها ، ما دام لم يحب زوالها عنه ، ولم يكره دوامها له . وأما تمني عين نعمة الغير ، بانتقالها إليه لرغبته فيها ، بحيث يكون مطلوبه تلك النعمة لا زوالها فهو مذموم لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ( النساء : ٣٢ ) وأما تمنيه لمثل ذلك فليس مذموماً ، فاعرف الفرق .

## أسباب الحسد

للحسد المذموم مداخل كثيرة وأسباب عديدة ( **فمنها** ) العداوة والبغضاء ، وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه وغضب عليه ، ورسخ في نفسه الحقد . والحقد يقتضي منه التشفي والانتقام ، فإن عجز المتنغص عن أن يتشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة

---

(١) أي فليرغبوا في المبادرة إلى طاعة اللّه .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

نفسه عند اللّه تعالى ، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة اللّه على بغضه وأنها لأجله !

ومهما أصابته نعمة ، ساءه ذلك ، لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أن لا منزلة له عند اللّه حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقها ، وإنما غاية التقى أن لا يبغي ، وأن يكره ذلك من نفسه .

(ومنها) التعزز ، وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره .

(ومنها) حب الرياسة وطلب الجاه ، بأن يكون منفرداً عديم النظير ، غير مشارَك في المنزلة ، يسوؤه وجود مناظر له في المنزلة .

(ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد اللّه ، بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد ، فيما أُنعم عليه ، ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد واضطراب أموره وتنغص عيشه ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة اللّه على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه ، وهذا ليس له سبب ظاهر ، إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع . ومعالجته شديدة لأنه خبث في الجبلة ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد ، فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينتهك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة ، أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه .

## . بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب

إعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك ، فارقت الحسد لا محالة ـ أما كونه ضرراً عليك

في الدِّين ، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء اللّه تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته ، وهذه جناية في صدقة التوحيد ، وقذى في عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين ، وقد انضاف إلى ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس والكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ؛ وأما كونه ضرراً في الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال في كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم اللّه تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك ، وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزه في الحال محنتك وغمك نقداً ، ولا تزول النعمة عن المحسود بحسده .

ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب ، لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته ، مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ؟ فما أعجب من يتعرض لسخط اللّه ، من غير نفع يناله ، بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه ، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة . وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه ، فواضح ، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك . وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره ، وذكر مساوئه فهذه هدايا تهديها إليه إذ تهدي إليه حسناتك ، حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً ، كما حرمت في الدنيا من النعمة . فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك ، إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة ، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة ، وصرت مذموماً عند الخالق ، شقياً في الحال والمآل ، ونعمة

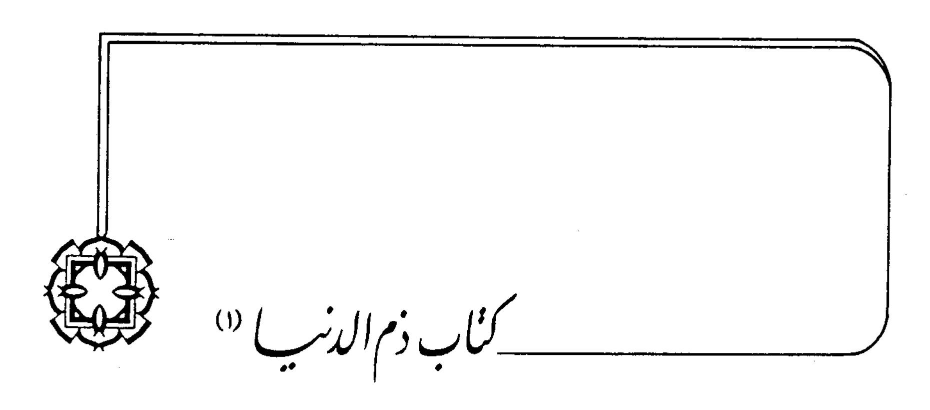
المحسود - شئت أم أبيت - دائمة باقية ، ومن تفكر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر ، انطفأت نار الحسد من قلبه ، لذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي أن تطول حياتك وتكون في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة اللّه عليه فيتقطع قلبك حسداً ولذلك قيل :

لا مات أعداؤك بل خُلدوا ... حتى يروا فيك الذي يكمِد
لا زلت محسوداً على نعمة ... فإنما الكامل من يُحسد

ومن تفكّر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه .

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد ، وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة ، فتعود القلوب إلى التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض ، فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ، ولكن النفع في الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء .





# كتاب ذم الدنيا [1]

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ . . . إلى قوله : ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ الآية ( آل عمران : ١٤ ـ ١٥ ) وقوله : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران : ١٨٥ ) ، وقوله :﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

---

(١) كل ما ورد من الآيات والأحاديث في ذم الدنيا، يراد منه التكالب عليها والغفلة عن الآخرة ، وإلا فالدنيا مزرعة للآخرة إذا طلبت باعتدال وتعقل ولا يترك الدنيا بما خطط لها الاسلام بصير ، وما أصاب المسلمين من تأخر وضعف إلا بسبب فهمهم الخاطىء للآيات والأحاديث الواردة في الدنيا . وقد اتخذها الرسول ﷺ صحبه رضي الله عنهم مطية للآخرة ، فأكثروا فيها من الأعمال الصالحة والجهاد في سبيل الله ، مما جعلهم سادة الدنيا والسعداء في الآخرة . هذا وكم كان يحسن بالمؤلف لو جعل عنوان البحث وصف الدنيا ، لا ذمها ! وقد كان من دعائه ﷺ حينما يستيقظ من نومه : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور » وهو إن دل على شيء ، فإنما يدل على حرصه على البقاء في الحياة الدنيا ، ليزداد من عمل الصالحات ، وفي ذلك تعليم لأمته . . .

ومهما كان من شأن الدنيا ، فهي شديدة السحر ، وكم فتنت من البشر ، وأحلت عشاقها ( دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ) . والحكيم الحكيم من يجتازها بسلام وغنيمة . وما أحسن وصية الشاعر :

عليك بتقوى الله واقنع برزقه ... فخير عباد الله من هو قانع
فلا تهلك الدنيا ، ولا طمع بها ... فقد تهلك المغرور فيها المطامع

أنزلْنَهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (يونس : ٢٤) ، وقوله : ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ ( الحديد: ٢٠ ) ، وقولـه : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ( زخرف : ٣٥ ) ، وقولـه : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا. ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ (النجم: ٢٩ ـ ٣٠).

وأما الأحاديث فعن المسور بن شداد ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع[١] ؟ » . وفي حديث آخر : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[٢] » ، وفي حديث آخر : « لو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء[٣] » .

وقال النبي ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن اللّه مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون[٤] » .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً جاء فيه : أما بعد فإن الدنيا دار طعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة ، وكن أسرَّ ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً ، لكانت قد أيقظت النائم . ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من اللّه عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند اللّه سبحانه قدر ولا وزن .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الترمذي وصححه وهو صحيح لغيره (مم) .

(٤) رواه مسلم .

ولقد عرضت على نبينا ﷺ مفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، وكره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، زوّاها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه كرم بها ؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر ، والله ما أحد من الناس بُسط له في الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مُكر به ، إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها ، إلا نقص عقله وعجز رأيه أيضاً .

وقال مالك بن دينار : اتقوا السَّحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعني الدنيا .

ومن أمثلة الدنيا : قال يوسف بن عبيد : شبهت الدنيا كرجل نائم ، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه .

ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا .

والمعنى أنهم ينتبهون بالموت ، وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به .

قيل : إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء[1] عليها من كل زينة . فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت لا أحفظهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت . فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : يُؤتى بالدينا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء[2] زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ، فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال :

---

(١) ليس لها أسنان ، وفي نسخة : سماء ، وهي الداهية .

(٢) طويلة القامة .

هـذه الدنيـا التي تشاجـرتم عليها ، وبهـا تقاطعتم الأرحـام ، وبها تحـاسـدتم وتبـاغضتم واغتررتم ، ثم تُقـذف في جهنم ، فتقـول : يـا رب أين أتبـاعي وأشياعي ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها . هذا مثل واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الـركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة .

ومن النـاس من قطع نصف القنـطرة ، ومن الناس من قـطع ثلثيهـا ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفما كان فلا بـد من العبور ، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها ، فهو في غاية الجهل والحمق .

وقيل : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

وكـان بعض السلف يقول لأصحـابه : انـطلقوا حتى أريكم الـدنيـا ، فيـذهب بهم إلى مـزبلة فيقـول : أنـظروا إلى ثمـارهم ودجـاجهم وعسلهم وسمنهم .

وعن الحسن قـال بلغني عن رسـول اللّه ﷺ أنـه قـال : « إنمـا مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قـوم سلكوا مفـازة غبراء ، حتى إذا لم يـدروا ، ما سلكـوا منها ، أكـثر أو ما بقي ، أنفـذوا الزاد وخسـروا الظهـر ، وبقـوا بـين ظهراني المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فـأيقنوا بـالهلكة ، فبينـما هم كذلـك ، إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه . فقالوا : إن هذا قريب عهد بـريف ، ومـا جاءكم هـذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قـال : يـا هؤلاء ، عـلام أنتم ؟ قالوا على ما ترى . قال : أرأيتم إن هديتكم إلى ماءٍ رواءٍ ، وريـاضٍ خضرٍ ، مـا تعملون ؟ قالـوا : لا نعصيك شيئـاً . قال عهـودكم ومـواثيقكم باللّه . قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بـاللّه . لا يعصونـه شيئاً . قـال :

فأوردهم ماء ورياضاً خضراء . فمكث فيهم ما شاء اللّه ، ثم قال : يا هؤلاء : الرحيل . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم ، وإلى رياضٍ ليست كرياضكم ، فقال أكثر القوم : واللّه ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة قليلة : ألم تُعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم باللّه لا تعصوه ؟ وقد صدقكم في أول حديثه ، فواللّه ليصدقنكم في آخره . قال : فراح فيمن اتبعه ، وتخلف بقيتهم ، فنزل بهم عدو ، فأصبحوا من بين أسير وقتيل[1] .

ومن حديث أبي موسى رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن مثلي ومثل ما بعثني اللّه به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ! إني رأيت الجيش بعيني ، وأنا النذير العُريان ، فالنجاة . فأطاعة طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا . وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش في مكانهم ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل ما أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق[2] .

## بيان الدينا المذمومة

إعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي ، وما الذي ينبغي أن يُجتنب منها ، وما الذي لا يجتنب ، فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق اللّه، ما هي ، فنقول :

إن جميع مالك إليه ميل في الدنيا ، وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام :

## فضل بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس واسناده صحيح قاله الحافظ العراقي .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

الموجودات التي خُلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب .

وقد وضع اللّه في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكلما تاقت منعوها ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلاً بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر المتزهدين ، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

إعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان ، فيها حظ ، وهي الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الآدمي . وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى اللّه عز وجل ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح ، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به ، مُدح ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره ، وقع في الذم ، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه ، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ؛ ويشغل عن طلب الأخرى ، فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ويرد لها الماء ، ويغير عليها ألوان الطعام ، وينسى أن الرفقة قد سارت ، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هي الوسطى ، وهي أن يُؤخذ من الدنيا قدر ما يُحتاج إليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهىً ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها ، وقضاء لحقها .

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه في السفر الفالوذج .

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض أوقات ، ويقول : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال !

ولينظر في سيرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وصحابته ، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا ، ولا تفريط في حقوق النفس .

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى ، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها ويبسطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة ، فذلك حظ مذموم ، والزهد فيه يكون .

قال ابن مسعود : ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة ، وفي ذلك أنشد الشاعر :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بدَّ يوماً أن تُرد الودائع

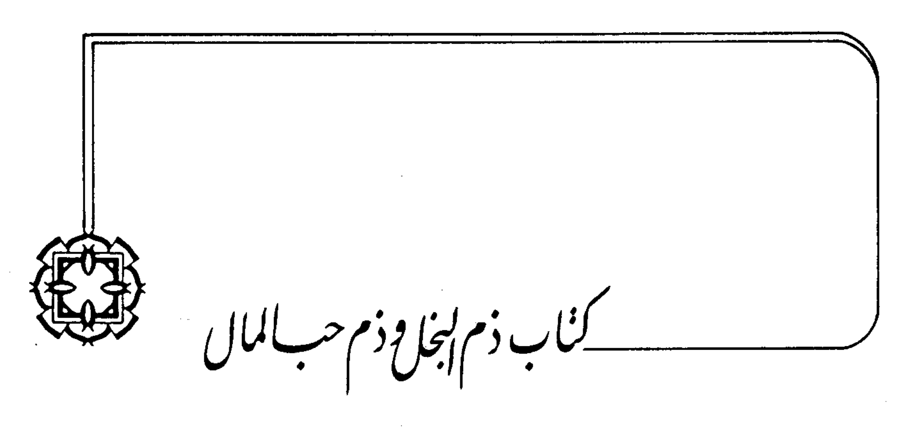
وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقع
فطوبى لعبد آثر اللّه ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وقال آخر :

وإن امرأ دنياه أكبر همه مستمسك منها بحبل غرور





# كتاب ذم البخل وذم حب المال

ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل الدنيا عامة ، والمال بعض أجزائها الجدير بإفراد البحث عنه ، إذ فيه آفات وغوائل ، وللانسان من فقده صفة الفقر . ومن وجوده صفة الغنى ، وهما اللتان يحصل بهما الاختبار والامتحان ، ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة ، وللحريص حالتان : طمع فيما في أيدي الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخَلق . والطمع شر الحالتين . وللواجد إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان : تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد . . وهذه أمور متشابهة ، وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ، ونحن نشرحه بعونه تعالى .

## بيان ذم المال وكراهة حبه

إعلم أن المال لا يُذم لذاته ، بل يقع الذم لمعنى من الآدمي ، وذلك المعنى ، إما شدة حرصه ، أو تناوله من غير حِلّه أوحبسه عن حقه ، أو إخراجه في غير وجهه ، أو المفاخرة به ، ولذا قال اللّه تعالى : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ** ﴾ ( المنافقون : ٩ ) وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ ( الأنفال :٢٨ ) فمن اختار ماله وولده على ما

عند اللّه فقد خسر وغُبن خسراناً مبيناً ، وقال تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق : ٦ و٧) . فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وقال تعالى : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ( التكاثر : ١ ) ، وقال ﷺ : « تعِس عبد الدينار وتعس عبـد الدرهم . تعس ولا انتعش ، وإذا شيـك فلا انتقش »[١] بيّن أن محبهما عابد لهما ، ومن عبد حجراً فهو عابد صنم ، أي من قطعة ذلك عن اللّه تعـالى ، وعن أداء حقه ، فهـو كعابـد صنم ، وهـو شـرك ، إلا أن الشرك خفي وجلي نعوذ باللّه منهما ، وقال ﷺ : « يقول ابن آدم مالي مـالي ، وهـل لك من مـالـك إلا مـا أكلت فـأفنيت أو لبست فـأبليت ، أو تصـدقت فـأمضيت »[٢] ؟ . وقال ﷺ : « هلك المكثـرون إلا من قال بـه في عباد اللّه هكذا وهكذا وقليل ما هم »[٣] وعن يحيى بن معـاذ قال : الـدرهم عقرب ، فـإن لم تُحسن رقيته فـلا تأخـذه ، فإنـه إن لدغـك قتلتك سمه ، وقيـل : وما رقيته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه في حقه ، وعنه رحمـه اللّه : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند مـوته ، قيـل : وما همـا ؟ فقال : يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله .

## بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

إعلم أن اللّه تعـالى قد سمى المـال خيراً في مـواضع من كتـابه العـزيز فقال عز وجل : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً ﴾ ( البقرة : ١٨٠ ) وقال ممتناً على عباده : ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰراً﴾ (نـوح : ١٢ ) وقال ﷺ . « نعم المال الصالح للرجل الصالح »[٤] ولا تقف على وجه

---

(١) رواه البخاري ولم يقل وانتقش ، وإنما علق آخره بلفظ : « تعس وانتكس » .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخاري ومسلم بلفظ : « الأخسرون فقال أبو ذر : يـا رسول اللّه فـداك أبي وأمي من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً ، إلا من قال هكـذا ، وهكذا ، وهكـذا ( من بين يـديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ) وقليل ما هم . . . » والسياق لمسلم .

(٤) رواه أحمد وسنده صحيح (مم) .

الجمع بين الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده . وآفاته ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . بإنه ليس بخير محض ولا هو شر محض ، بل هو سبب الأمرين جميعاً ، وما هذا وصفه ، فيمدح تارة ويذم أخرى .

## بيان تفصيل المال وفوائده

قدّمنا أن المال فيه خير وشر ، فمن عرف فوائده وغوائله ، أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره ، أما الفوائد فدنيوية ودينية ، أما الدنيوية فمعروفة ، وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع :

**(النوع الأول)** أن ينفقه على نفسه : إما في عبادة كالسفر والحج والعلم ، وإما فيما يقويه على العبادة من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وضرورات المعيشة ، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة .

**(النوع الثاني)** ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض . وأجرة الاستخدام .

**(أما الصدقة)** فلا يخفى ثوابها .

**(وأما المروءة)** فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ، وما يجري مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج ، إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود إلا من يصنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه ، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها .

**(وأما وقاية العرض)** فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء ودفع شرهم ، وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته في العاجلة ، من الحظوظ

الدينية ؛ وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل على مجاوزة حدود الشريعة .

**(وأما الاستخدام)** فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته .

**(النوع الثالث)** ما يصرفه إلى إنسان معيّن ، ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر والرباطات[1] ودور المرضى وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت ، المستجلبة بركة أدعية الصالحين وناهيك بها خيراً . فهذه جملة فوائد المال في الدين .

**( وأما الآفات)** فدينية ودنيوية ؛ أما الدينية فثلاث :

**(الأولى)** أن يجر إلى المعاصي ، فإن المال يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور .

**(الثانية)** أنه يجر إلى التنعم في المباحات لو فات والتمرن عليه حتى يصير عنده ومحبوباً لا يصبر عنه . وإذا اشتد أنسه به ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ويخوض في الكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، وذلك من شؤم المال .

**(الثالثة)** أنه يلهيه إصلاح ماله ، عن ذكر اللّه تعالى ، وكل ما شغل العبد عن اللّه فهو خسران ! وأما الآفات الدنيوية فكثيرة كالخوف والحزن ، والغم ، والهم والتعب في دفع الحساب ، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه في خصومة الشركاء ومنازعتهم ، وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها ، فإذا ترياق المال أخذه من حله وصرفه في الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات . نسأله تعالى السلامة والعون بلطفه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير .

## بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد

ينبغي للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى

---

(١) للجهاد وطلب العلم ، لا للكسل !

ما في أيديهم ، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ، لئلا يتدنس بذل الحرص ، فيجره إلى مساوىء الأخلاق ، وارتكاب المنكرات ، وقد جُبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول اللّه ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً »[1] وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور :

**(الأول)** الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق ، وهو الأصل في القناعة ، فإن من كثر خرجه واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة .

**(الثاني)** أن يتحقق بأن الرزق الذي قُدر له لا بدّ وأن يأتيه ، وإن لم يشتد حرصه .

**(الثالث)** أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء ، وما في الحرص والطمع من الذل والمداهنة .

**(الرابع)** أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى ، ثم ينظر أحوال الأنبياء والأولياء ، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجار أو الأبرار ، فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير .

**(الخامس)** أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى دونه في الدنيا[1] لا إلى من فوقه ، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خُلق القناعة . وعماد الأمر الصبر .

## وقد قيل في ذم البخل والحرص

| | |
|---|---|
| يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه | مقدراً أي باب منه يغلقه |
| مفكراً كيف تأتيه منيته | أغادياً أو رائحاً بل كيف يتركه |
| جمعت مالاً فقل لي هل جمعت له | يا جامع المال - أياماً تفرقه |
| المال عندك مخزون لوارثه | ما المال مالك إلا يوم تنفقه |

(١) رواه البخاري ومسلم .

إرفق ببـال فتى يعـدو عـلى ثقـة    أن الـذي قسم الأرزاق يـرزقـه
فـالعـرض منه مصـون مـا يـدنسـه    والـوجـه منـه جديـد ليس يُخلقـه
إن القنـاعـة من يحلل بسـاحتهـا    لم يـبـق في ظـلهـا هـم يـؤرقـه

## بيان فضيلة السخاء

إعلم أن المال إن كان مفقـوداً ، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف ، والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة . وقد ورد عن النبي ﷺ فيه أحاديث كثيرة منها قال أنس إن رسول اللّه ﷺ لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه ، فقال يا قوم . . أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة[1] ، وقال ﷺ « كل معروف صدقة[2] » وعن الحسن بن علي « الكرم هو التبرع بالمعروف قبل السؤال ، والإطعام في المحل ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل » وعن عبد اللّه بن جعفر : أمطِر المعروف مطراً ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً ، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً .

ومن سخاء السلف ما حكى أن ابن عامر اشترى داراً بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهلها ، فسأل فقيل يبكون لدارهم . فقال : يا غلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمئة وستين مسكيناً . وعن أسماء بن خارجة قال له عبد الملك : بلغني عنك خصال فحدثني بها ، فأجابه أسماء ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمنّ عليّ مني عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط ، يسألني

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم لما جاء أسنى المطالب .

شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه . وعن الشافعي أن حماد بن أبي سليمان انقطع زره وهو راكب ، فمر على خياط وأراد النزول ، فبادره الخياط ، وحلف عليه أن لا ينزل وأصلح له زره ، وهو راكب ، فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير وسلمها له ، واعتذر إليه من قلتها ! وأنشد الشافعي لنفسه :

يا لهف قلبي على مال أجود به على المقلِّين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ما ليس عندي ، من إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان : قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال : أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني . وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى ، وجاء أن علياً رضي الله عنه بكى فقيل ما يبكيك . فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله قد أهانني . وجاء أن رجلاً أتى صديقاً له فدق عليه الباب فقال ما جاء بك ؟ قال عليّ أربعمائة درهم ، دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي فقالت له امرأته : لِمَ أعطيته إذ شق عليك ؟! فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي ، فرحم الله من هذه أخلاقهم وغفر لهم .

## بيان ذم البخل

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ( التغابن : ١٦ ) وقال تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ ( آل عمران : ١٨٠ ) وقال ﷺ : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم »[١] وعن علي رضي الله عنه : « سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر فيه على ما في يده ولم

(١) رواه مسلم بلفظ : اتقوا الشح فإن الشح . . الحديث .

يؤمر بذلك . قال اللّه تعالى : ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ( البقرة : ٢٣٧ ) وقال الشعبي : لا أدري أيهما أبعد غوراً في نار جهنم البخل أو الكذب . وقال ﷺ لوفد بني لحيان : « من سيدكم ؟ » قالوا جد بن قيس إلا أنه رجل[١] فيه بخل ، فقال ﷺ : « أي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو ابن الجَموح » وكان عمرو يولم على رسول اللّه ﷺ إذا تزوج . وعن علي رضي اللّه عنه قال : واللّه ما استقصى كريم قط حقه . قال اللّه تعالى : ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ ( التحريم : ٣ ) وقال بِشر : النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بما له أجودهم بعرضه !

## بيان الإيثار وفضله

إعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات ، فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه ، وإنما السخاء عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو غير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد ، وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة ، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يُمسك المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن . ولو وجدها مجاناً لأكلها ، فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ، وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه ، فانظر ما بين الرجلين !

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء ، وقد أثنى اللّه على الصحابة رضي الله عنهم به فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ( الحشر : ٩ ) وقد ورد أنه نزل برسول اللّه ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وهو حديث حسن .

بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بـإطفاء السِّـراج ، وجعل يمـد يده إلى الـطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعـام . فلما أصبح قـال له رسـول اللّه ﷺ : « لقـد عجب اللّه من صنيعكم اللّيلة إلى ضيـفكـم »(٢) ونـزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر : ٩) فـالسخـاء خُلق من أخلاق اللّه تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء ، وكـان ذلك من دأب رسـول اللّه ﷺ حتى سماه اللّه تعـالى [ خُلُقاً ] عـظيماً . فقـال تعـالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ( القلم : ٤ ) .

قيل خرج عبد اللّه بن جعفر رضي اللّه عنهما إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم ، وفيه غلام أسود يعمل فيه ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنـا من الغلام فـرمى إليه الغـلام بقرص فـأكله ، ثم رمى إليه الثـاني والثالث فأكلها ، وعبد اللّه ينظر إليه ، فقال يا غُلام كم قوتُك كل يوم ؟ قال ما رأيتَ ؟ قال : فلِمَ آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بأرض كـلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جـائعاً ، فكـرهت أن أشبع وهـو جائـع . قال فـما أنت صـانع اليـوم ؟ قال أطـوي يومي هـذا . فقال عبـد اللّه بن جعفر ألام عـلى السخاء وإن هذا الغلام لأسخى مني ، فاشتـرى الحائط والغـلام وما فيـه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه . ؟

وقال عمر رضي اللّه عنـه أُهدي لـرجل من أصحـاب رسول اللّه ﷺ رأس شاة ، فقال إن أخي كان أحوج مني إليه ، فبعث به إليه ، فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى تداوله سبعة أبيات ، ورجع إلى الأول .

وقال حذيفة العدوي : انطلقت يوم اليـرموك ـ من أيـام فتوح الشـام ـ أطلب ابن عم لي ومعي شيء من مـاء ، وأنا أقـول : إن كان بـه رمق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت أسقيك ؟ فأشار إليّ : أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ، فـأشار ابـن عمي إليّ ؛ أن انطلق بـه إليه . قـال فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيـك فأشـار إليّ : أن نعم ، فسمع بـه

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

آخر فقال آه ، فأشار هشام : أن أنطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو قد مات رحمة اللّه عليهم أجمعين .

## بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما

إعلم أن المال خُلق لحكمة ، وهو صلاحه لحاجات الخلق ، فيمكن إمساكه عن صرفه إلى ما خُلق الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يُحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل ، فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبَذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط ، وهو المحمود ، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذ لم يؤمر رسول اللّه ﷺ إلا بالسخاء وقد قيل له **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾** ( الإسراء : ٢٩ ) وقال تعالى : **﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾** ( الفرقان : ٦٧ ) .

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا بد أن يكون قلبه طيباً به غير منازع له فيه ، ثم إن الواجب بذله قسمان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة ، والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل ، كالذي يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة ـ أو يؤديها ، ولكنه يشق عليه فإنه بخيل بالطبع ـ أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يطيب أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل .

ومن واجب المروءة ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات ، فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فمن كثر ماله استقبح ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ، ما لا يستقبح مع الأجانب ويُستقبح مع الجار ما لا يُستقبح

مع البعيد ، ويُستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يُستقبح في المعاملة . وبالجملة ، فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع ، إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، ومن أدّى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ، ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء ، فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد ، فإنه يشتري المدح بماله ، ومثله من يبعثه عليه الخوف من الهجاء أو ملامة الخَلق ، فإنه ليس بالجود لأنه مضطر إليه بهذه البواعث وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد .

## حكايات الأسخياء

قد صح عن النبي ﷺ : أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا ، وأن رجلاً سأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى الرجل قومه ، فقال : يا قوم : أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

وقيل : كان لعثمان على طلحة رضي اللّه عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك .

وجاء أعرابي إلى طلحة ، فسأله ، وتعرف إليه برحم . فقال : إن هذه الرحم ، ما سألني بها أحد قبلك ، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم .

وقال عروة : رأيت عائشة رضي اللّه عنها تقسم سبعين ألفاً ، وهي ترقع درعها . وعنها أنها قسمت في يوم ثمانين ومئة ألف بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية ، عليَّ فطوري . فجاءتها بخبز وزيت : فقالت لها أم درة : أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر

عليه ؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت .

واشترى عبد اللّه بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد. فقال لأهله : ما هٰؤلاء ؟ قالوا : يبكون على دارهم . قال : يا غلام : ائتهم ، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وبعث رجل إلى عبد اللّه أنه قد وصف لي لبن البقر ، فابعث لي ببقرة أشرب من لبنها . فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها ، وقال : القرية التي كانت ترعى فيها لك .

ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه ، فجعل يبكي : فقال : ما شأنك ؟ قال : عليّ دين . قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار أو بضعة عشرة ألف دينار . فقال : فهي عليّ .

وجاء رجل إلى معن ، فسأله . فقال : يا غلام ، ناقتي الفلانية وألف دينار ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه .

وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه . فقال لبعض خدمه : إذا دخل الأمير البستان فعرّفني . قال : فلما دخل عرّفه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، فلما بصُر معن بالخشبة ، أخذها ، فإذا فيها مكتوب :

أبا الجود معن ناج معناً بحاجتي فمالي إلى مَعنٍ سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعا الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقاله ، فأمر له بعشر بدر[1] ، فأخذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ، وقرأ ما فيها ، ودعا الرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى ، فلما أخذها الرجل ، خاف أن يعود

(١) البدرة : عشرة آلاف درهم .

فيستعيدها منه ، فخرج ، فلما كان اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، فدعا الرجل فلم يوجد . فقال معن : حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار .

ومرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه . فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى اللّه مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادي : من كان عليه لقيس حق ، فهو منه في حِل . قال : فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى . فقال : سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكي على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بألف أخرى .

**(الآثار)** : قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه : إذا أقبلت عليك الدنيا ، فأنفق منها ، فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك ، فأنفق منها ، فإنها لا تبقى ، وأنشد :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة     فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها     فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن رضي اللّه تعالى عنهما عن المروءة والنجدة والكرم فقال : أما المروءة فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيفه ، وحسن المنازعة والإقدام في الكراهة ، وأما النجدة ، فالذّب عن الجار ، والصبر في المواطن ، وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والطعام في المحل ، والرأفة بالسائل مع بذل السائل .

ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي اللّه تعالى عنهما رقعة . فقال : حاجتك مقضية ، فقيل له : يا ابن رسول اللّه ، لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟! فقال : يسألني اللّه عز وجل عن ذل مقامه بين يدي ، حتى أقرأ رقعته . وقال ابن السمَّاك : عجبت لمن يشتري

المماليك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب : مَن سيدكم ؟ فقال : من احتمل شتمنا ، وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وعن الأحنف بن قيس أنه رأى رجلاً في يده مال ، فقال : لمن هذا المال ؟ فقال : لي ، فقال : أما أنه ليس لك حتى يخرج من يدك ، وفي معناه قيل :

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنقصته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزَّال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً ، وقيل لسفيان بن عيينة : ما السخاء ؟ قال : السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال ، وقال : وورث أبي خمسين ألف درهم ، فبعث بها صرراً إلى إخوانه ، وقال : قد كنت أسأل اللّه تعالى لإخواني الخير في صلاتي ، أبخل عليهم بالمال ؟!

## بيان علاج البخل

إعلم أن البخل سببه حب المال ، ولحب المال سببان :

(أحدهما) حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل .

(الثاني) أن يحب عين المال ويتلذذ بوجوده ، وإن علم أنه زائد عن حاجاته وبقية عمره ، وقدّمنا أن علاج كل علة بمضادة سببها . فيعالَج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران ، وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ، ويعالج إلتفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله ، أحسن ممن ورث ، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر ، ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء ، وما توعد اللّه به على البخل من العقاب العظيم .

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم

واستقباحهم له فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل البخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستثقل ومستقدر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج قلبه أيضاً ، بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لماذا خُلق فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقي يدخره لنفسه في الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله ـ فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً ، فإذا تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه البذل ويصده عنه .

## من حكايات البخلاء

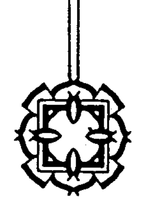
عن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : كان الحاجب رجلاً من أجل العرب ، وكان بخيلاً ، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راءٍ فينتفع بضوئها ، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم إذا بصُر بمستضيء بها أطفأها .

وقيل : كان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس ، فخرج يريد المهدي ، فقالت له امرأته : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟

قال : إن أُعطيت مائة ألف درهم ، أعطيتك درهماً ، فأعطي ستين ألف درهم ، فأعطاها أربع دوانق .

وقيل : كان بعض البخلاء موسراً كثير المال ، وكان ينظر في دقائق الأشيا فاشترى شيئاً من الحوائج ، ودعا حمالاً وقال : بكم تحمل هذه الحوائج ؟ قال : بحبة . قال : أبخس . قال ما أقل من حبة ؟ لا أدري ما أقول . قال : نشتري بالحبة جزراً ، فنجلس جميعاً ناكله .





# كتاب ذم الجاه والرياء

إعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم بل المحمود الخمول[1] إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال الله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ (القصص : ٨٣ ) جمع بين إرادة الفساد والعلو في الأرض ، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً، وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥ و١٦) وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه ، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا ، وأكثر زينة من زينتها . وفي الحديث : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[2] وورد في فضيلة الخمول عنه ﷺ : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »[3] وعنه ﷺ : « ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف

---

(١) هناك درجة وسطى بين طلب العلو وطلب الخمول ، ينبغي أن تكون سمة المسلم ومن دعاء ابراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم : ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم بلفظ « رب أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره » ورواه البزار بلفظ « رب ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » وسنده صحيح (مج) .

لو أقسم على اللّه لأبره ، وأهل النار كل متكبـر مستكبر جـواظ(١) » والأخبار في مذمة الشهرة وفضيلة الخمول كثيرة . ومعلوم أن المطلوب بالشهرة وانتشـار الصيت هـو الجاه والمنـزلة في القلب ، وحب الجـاه منشأ كـل فسـاد . ثم إن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عليها ، فأما وجودها من اللّه تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم .

## بيان الحد الذي يباح فيه الجاه

إعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفـع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب ، المطلوب تعظيمها وطاعتها ، أي القدرة على التصرف فيها ، ليستعمل بوساطتها أربـابها في أغـراضه ، فحكم الجـاه حكم ملك الأمـوال ، فإنـه عرض من أعـراض الحياة الـدنيا ، وينقـطع بالمـوت ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ما خُلق في الدنيا يمكن أن يتزود منـه للآخـرة ؛ فحب الجاه والمال لأجل التوسل بهما إلى مهمـات البدن غـير مذمـوم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذمـوم ، ولكنه لا يـوصف صاحبـه بالفسق والعصيان ، ما لم يحمله الحب على مباشرة معصيـة وما لم يتـوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور ، وما لم يتوصل إلى اكتسابـه بعبادة ، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين ، وهو حرام .

والقول الفصل في طلب المنزلة والجـاه في قلوب الناس أن يُقـال يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان مباحان ، ووجه محظور .

(**أما الوجه المحظور**) فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها ، مثـل العلم والورَع والنُسـك ، فيظهـر لهم أنه عـالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام ، لأنـه كذب وتلبيس ، إمـا بالقـول أو المعاملة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والجواظ المختال في مشيتـه ، والطمر : الثوب الخلق .

**(وأما أحد المباحين)** فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يوسف ﷺ فيما أخبر عنه الرب تعالى : ﴿**ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ (يوسف : ٥٥) فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً ، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه .

**(والثاني)** أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه ، حتى لا يُعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضاً مُباح ، لأن حفظ الستر على القبائح جائز ، ولا يجوز هتك الستر كالذي يخفي عمن يريد استئجاره أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع ، فإن قوله إني ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب ، لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب .

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبِّس ، إذ يخيل له أنه من المخلصين الخاشعين للّه ، وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصاً . فطلب الجاه بهذا الطريق حرام ، وكذا بكل معصية وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره ، فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن مُلك القلوب أعظم من ملك الأموال .

## سبب حب المدح وبغض الذم

لا يُعرف طريق العلاج لذلك ، ما لم يعرف سببه ، لأن ما لم يعرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض .

لحب المدح والتذاذ القلب به أسباب : **(الأول)** وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال ، ومهما شعرت بكمالها وارتاحت ، اهتزت وتلذذت ، والمدح يُشعر نفس الممدوح بكمالها **(والسبب الثاني)** أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ **(الثالث)** أن ثناء المثني ومدح المادح ، سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لا سيما إن كان ممن يعتد بثنائه في ملأ ، فيكون المدح ألذ ، والذم أشد على النفس . فأما العلة الأولى وهي

استشعار الكمال ، فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب[1] أو سخي أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه ، وما بعدها ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه فبطلت اللذات كلها .

## بيان علاج حب الجاه

إعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلْق ، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يُعظم منزلته عندهم ، وذلك بذْر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، فإذاً حب الجاه من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلوب ، وعلاجه مُركّب من علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه ، وهو كمال القدرة على قلوب الناس ، وإن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، فلا ينبغي أن يترك به الدِّين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ، وأما العمل فبأن يأنس بالخمول[2] ، ويستعين عليه بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول ، وبنظره في أحوال السلف وإيثارهم ثواب الآخرة على زخرف الحياة الدنيا .

## بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

إعلم أن أكثر الخلق إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم ،

---

(١) أي من آل بيت رسول الله ﷺ .

(٢) بل بالتواضع وكره الشهرة .

فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجاء للمدح وخوفاً من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته ، وطريقة : ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم . فمن الأسباب استشعار الكمال بسبب قول المادح ، فطريقتك أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها ، أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفاً بها ، فإن كانت كالثروة والجاه ، فهذه لا تستحق المدح كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل ، وإن كانت كالعلم والورَع ، فهذه وإن استحقت المدح إلا أنه لا ينبغي الفرح بها ، لأن الخاتمة غير معلومة ، وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومن الأسباب : الخشية التي اضطرت المادح إلى المدح ، وهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ، ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ، كما نقل عن السلف ، لأن آفات المدح على الممدوح عظيمة كما تقدم في آفات اللسان ، وقال النبي ﷺ مرة للمادح « ويحك قصمت ظهره »[1] .

## بيان علاج كراهية الذم

يُفهم ذلك مما تقدم والقول الوجيز فيه. أنّ من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال ، وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقاً ، ولكن قصده الإيذاء والتعنت . وإما أن يكون كاذباً . فإن كان صادقاً وقصده النصح ، فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغي أن تتقلد منه ، فإن من أهدى إليك عيوبك ، فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه ، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه ، فإنه

(١) وفي الأصل المختصر ( ظهري ) وهو تصحيف . ورواه البخاري ومسلم بنحوه بلفظ : « ويلك قطعت عنق أخيك » ثلاثاً « من كان منكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب فلاناً ، والله حسيبه إن كان يرى أنه كذلك ، ولا يزكي على الله أحداً » .

غاية الجهل . وإن كان قصده التعنت ، فأنت قد انتفعت بقوله ، إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به لتُقلع عنه ، وذلك من أسباب سعادتك ، فينبغي أن تفرح به ، لأن تنبهك بقوله غنيمة ، وجميع مساوىء الأخلاق مُهلكه في الآخرة، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغي أن تغتنمه . وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك ، فلمَ تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به !؟

**(الحالة الثالثة)** أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند اللّه تعالى ، فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر في ثلاثة أمور :

**(أحدها)** إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه . وما يستره اللّه من عيوبك أكثر ، فاشكر اللّه تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ، ودفْعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه **(والثاني)** إن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك ، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك ، فقد قطع ظهرك ، فما بالك تفرح بقطع الظهر ، وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وأنت تزعم أنك تحب القرب من اللّه **(وأما الثالث)** فهو المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين اللّه ، وأهلك نفسه بافترائه وتعرَّض لعقابه الأليم . فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب اللّه عليه ، فتشمت به الشيطان ، وتقول : اللهم أهلكه ، بل ينبغي أن تقول : اللهم أصلحه ، اللهم تُب عليه ، اللهم ارحمه كما قال ﷺ « اللهم اغفر لقومي ، اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون »[1] .

ومما يُهوّن عليك كراهية المذمة قطع الطمع ، فإن من استغنيت عنه مهما ذمك ، لم يعظم أثر ذلك في قلبك ، وأصل الدين لقناعة ، وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائماً ، كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه

---

(١) قاله رسول اللّه ﷺ على لسان نبي لما عذبه قومه ، وقد تقدم ، رواه البخاري ومسلم .

مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين ، لا ينبغي أن يطمع طالب الجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جداً .

## بيان ذم الرياء

وهو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات إعلم أن الرياء حرام ، والمرائي عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار (أما الآيات) فقوله تعالى **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾** ( الماعون : ٤ و ٦ ) وقوله عز وجل : **﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾** ( فاطر : ١٠ ) قال مجاهد : هم أهل الرياء . وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً﴾** ( الانسان : ٩ ) فمدح المخلصين : بنفي كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء ضده، وقال تعالى: **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحَاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً﴾** ( الكهف : ١١٠ ) نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته له[١] (ومن الأحاديث) قوله ﷺ : « يقول الله عز وجل «من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري ، فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[٢] وقال ﷺ « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء » يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جاز العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء »[٣] وقال ﷺ : « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكان يخفيها عن شماله »[٤]

---

(١) والحديث في ذلك لم يصح .

(٢) رواه مسلم بلفظ : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه » وفي رواية : « فأنا منه بريء ، هو الذي عمله » .

(٣) رواه أحمد والبغوي واسناده جيد « سلسلة الأحاديث الصحيحة ٩٥١ » .

(٤) رواه البخاري ومسلم في حديث طويل ، أوله : « سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله » جاء فيه « ورجل تصدق بصدقة ، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » .

وعن المسيح عليه السلام كان يقول : « إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم ، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه » .

ومن الآثار ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه رأى رجلاً يطأطيء رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب . ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا بيتك . وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا لوجه اللّه ولوجهك . ولا يقولن هذا اللّه وللرحم ، فإن اللّه تعالى لا شريك له .

## بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى له

إعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بأرائهم خصال الخير ، والمراد به كثير ، ويجمعه خمسة أقسام ، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو : البدن ، والزي ، والقول ، والعمل ، والأتباع ، والأشياء الخارجة . فأما الرياء في الدين بالبدن فكإظهار النحول والصغار ، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظِم الحُزن على أمر الدين ، غلبة خوف الآخرة ، وكتشعيث الشعب ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر ، ومثله خفض الصوت وإغارة العينين ، ليستديل بذلك على أنه مواظب على الصوم أو متوقر للدين .

وأما الرياء بالهيئة والزي ، فمثل تشعيث الشعر وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه ، كل ذلك يراءى به ، ومنه التقنع فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين . ومنه الطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم . والمراؤون بالزي على طبقات ، كل طبقة منهم يرى منزلته في زي مخصوص ، فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه وإلى ما فوقه ، وإن كان مباحاً بل هو عنده بمنزلة الذبح . وذلك

لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا .

وأما الرياء بالقول ، فرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لإظهار شدة العناية بأحوال الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه[1] ، والمجادلة على قصد إفحام الخصم .

وأما الرياء في العمل فكمراءاة المصلي بطول القيام وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات .

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين والمحافظين ، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ، ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العباد ، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون عليه ، أو أميراً من الأمراء ، ليقال إنهم يتبركون به ، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ وطواف البلاد ليتباهى عند خصمه ، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون ، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد ، لاعتقادهم أنه نوع قدرة وكمال في الحال ، وإن كان سريع الزوال ، ولا يغتر به إلا الجهال ، ولكن أكثر الناس جهال !

ومن المرائين من لا يقتنع بقيام منزلته ، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد ، ومنهم من يريد انتشار الصيت ، ومنهم من يريد الاشتهار عند الأمراء ، لتقبل شفاعته فيقوم له جاه عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام الدنيا وكسب المال ، ولو كان من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرائين .

---

(١) كل هذا واجب إذا قصد به إظهار الحقيقة ، لا الرياء . وقد أعلمني بعضهم أن أحد الشيوخ الجريئين بدمشق سمع خطيباً يخطب يوم الجمعة ، مكثراً من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، فغضب لله ووبخه وأمره بترك ذلك .

# حكم الرياء

اعلم أن الرياء إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات ـ فأما المراءاة بما ليس في العبادات، فقد تكون مباحة كتسوية العمامة والشعر وتحسين الثوب، لئلا تزدريه أعين الناس واحترازاً من ألم المذمة وطلباً لراحة الأنس بالإخوان، وقد تكون طاعة كما إذا كان متبوعاً، وعمله المذكور يرغب في اتباعه واستمالة القلوب إليه، وقد تكون مذمومة كما إذا حملت على ما لا يجوز، أودعت إلى أمور محظورات، وبالجملة فحكمها تابع للغرض المطلوب بها، وأما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج، فالمرائي فيما يبطل عبادته ويعصي ويأثم والمعنى فيه أمران:

(**أحدهما**) يتعلق بالعبادة، وهو التلبيس والمكر، لأنه خُيِّل إليهم أنه مخلص مطيع للّه وأنه من أهل الدين وليس كذلك.

(**الثاني**) يتعلق باللّه، وهو أنه مهما قصد بعبادة اللّه تعالى خَلْق اللّه، فهو مستهزيء باللّه، ومثاله أن يمتثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواريه أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك، إذ لم يقصد التقرب إليه بخدمته، بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة اللّه مراءاة عبد ضعيف لا يملك ضراً ولا نفعاً، وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من اللّه، وأنه أولى إليه بالتقرب من اللّه، إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته، وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى، فهذا من كبائر المهلكات، ولذا سماه رسول اللّه ﷺ: «الشرك الأصغر»[1] ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير اللّه،

---

(١) رواه احمد في «المسند» والبغوي في «شرح السنة» بلفظ: «إن اخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر. قالوا: وما الشرك الاصغر؟ قال: الرياء، يقول اللّه عز وجل لأصحاب ذلك يوم القيامة إذا جازى الناس: اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!» وإسناده جيد كما جاء في سلسلة الاحاديث الصحيحة (٩٥١).

لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى اللّه، فقد قصد غير اللّه. فعن هذا كان شركا خفياً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان، وأوهم عنده أن العباد يملكون من مصالح حاله أكثر مما يملكه اللّه تعالى، مع أن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم، لا يملكون لها ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لغيرهم؟ هذا في الدنيا فكيف في يوم ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان: ٣٣) بل تقول الأنبياء فيه: نفسي نفسي؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس، فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة اللّه في سخط اللّه تعالى.

## درجات الرياء

اعلم أن أغلظ الرياء هو الرياء بأصل الإيمان، وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب، وهذا هو النفاق المذكور في القرآن الكريم في مواضع شتى، وذلك مما يقل في زماننا ويلحق به من يجحد الجنة والنار والدار الآخرة، أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة أو يعتقد كفراً وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين في النار.

وقسم من الرياء دون الأول بكثير كمن يحضر الجمعة أو الصلاة، ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه، لا عن رغبة لكن خوفاً من الناس، أو يزكي أو يحج كذلك، فيكون خوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب اللّه، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت.

وقسم يرائي بالنوافل يكسل عنها في الخلوة، ثم يبعثه الرياء على فعلها كحضور الجماعة[1]، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وصوم عرفة وعاشوراء

(١) صلاة الجماعة: ليست نافلة، وقد صح أنه ﷺ لم يسمح حتى للأعمى الذي ليس له قائد، بتركها وقال له: «أجب الداعي» كما جاء في الحديث الصحيح. وهناك أحاديث عديدة في التشديد على تاركي صلاة الجماعة مذكورة في كتب فقه السنة.

خوفاً من المذمة وطلباً للمحمدة، ويعلم اللّه تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض وهذا عظيم ولكن دون ما قبله.

وقسم يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين، وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة. فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، فيُقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر.

وقسم يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على الصورة المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، ومما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

وقسم يرائي بزيادات خارجة عن النوافل نفسها أيضاً، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام، وما يجري مجراه، وكل ذلك مما يعلم اللّه منه أنه لو خلا بنفسه، لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة، فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به، وبعضه أشد من بعض والكل مذموم.

# بيان المرائي لأجله

اعلم أن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض، وله درجات: **(أحداها)** أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع، وغرضه أن يُعرف بالأمانة، فيولى منصباً أو يسلم إليه تفرقة مال، ليستأثر بما قدر عليه منه، أو يودع الودائع فيأخذها، أو يتوصل إلى التحبب بامرأة لفجور ونحوه، أو يحضر مجالس العلم والتذكير، وقصده النظر لأمرد، هؤلاء أبغض المرائين إلى اللَّه تعالى، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سُلماً إلى معصيته، ويقرب منهم من يقترف جريمة وهو مصِر عليها، فيظهر التقوى لينفي التهمة عن نفسه.

**(ثانيها)** أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر العلم والعبادة ليرغب في تزويجه أو إعطائه، فهذا رياء محظور، لأنه طلب بطاعة اللَّه متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول.

**(الثالثة)** أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويعتقد أنه من جملة العامة، كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي، ويترك العجلة[1]، كيلا يقال إنه من أهل السهو، لا من أهل الوقار.

وكذلك من يسبق إلى الضحك أو يبدو منه المزاح، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار، فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء، وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، واللَّه يعلم منه أنه لو كان في خلوة

---

(١) أخشى أن يكون الغزالي في هذا الكلام متأثراً بحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» وهو حديث منكر جداً كما قال الذهبي. وقد صحت الاحاديث في ان الرسول ﷺ كان إذا مشى اسرع...

لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير.

**(وكالذي)** يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك.

**(وكالذي)** يعطش يوم عرفة أو عاشوراء فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، أو يدعي إلى الطعام فيمتنع، ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأني صائم، ولكن يقول لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص، ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس، فيكون مرائياً، فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر على أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض، يقتضي فرط العطش، ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان، لأنه محب للاخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألحّ علي اليوم ولم أجد بُداً من تطييب قلبه، ومثل أن يقول إن أبوي أو أحدهما يشفقان علي يظنان أني لو صمت لمرضت، فلا يدعاني أصوم، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، فلا يسبق إلى الإنسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن.

**(أما المخلص)** فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه، فإن لم يكن له رغبة في الصوم، وقد علم اللّه ذلك منه، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم اللّه، فيكون مُلبساً، وإن كان له رغبة في الصوم للّه، قنع بعلم اللّه تعالى، ولم يشرك فيه غيره، وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به، وتحريك رغبة الناس فيه، وفيه مكيدة وغرور. فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت اللّه وغضبه، وهو من أشد المهلكات.

## بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل، ويحمل عليه ولو قصد الثواب، وهو أجلاه، وأخفى منه قليلاً، وهو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أن يخف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة، ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، وأجلى علاماته أن يُسر باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص في عمله ولا يعتقد الرياء، بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس، سره ذلك وارتاح له، وروَّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس، ما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر، فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور؛ ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية، صار قوتاً وغذاء للعِرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض، أو بالشمائل كخفض الصوت وآثار الدموع.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه، كأنه يتقص ى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها، ومهما لم يكن وجود العادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفي من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصدّيقون.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في إخفائه أعظم

مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم اللّٰه في يوم القيامة بإخلاصهم، إذ علموا أن لا يقبل في القيامة إلا الخالص، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا يجزي والد عن ولده.

فإذاً شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان، ففيه شعبة من الرياء، فلو كان مخلصاً لما بالى بالناس، لعلمه أنهم لا يقدرون له على رزق، ولا أجل، ولا زيادة ثواب ولا نقصان عقاب، فإن قلت فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله، أو بعضه محمود وبعضه مذموم، فنقول: السرور منقسم إلى محمود ومذموم، فالمحمود مثل أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص للّٰه، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن اللّٰه أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع اللّٰه به وألطافه به إذ لا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر اللّٰه له لا بحمد الناس، وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾(يونس: ٥٨).

ومثل أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر وأجر السر بما قصده أولا، ومن اقتدى به في طاعة، فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور.

ومثل أن يحمده المطلعون على طاعته، فيفرح بطاعاتهم للّٰه في مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة، فهذا فرح بحسن إيمان عباد اللّٰه، وعلامة الإخلاص في هذا الورع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه. وأما السرور المذموم فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام فهذا مكروه.

## بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالماً عن الرياء، إلا إذا ظهرت له بعده رغبة في الإظهار، فتحدّث به وأظهره، فهذا مخوِّف، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط، وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل، وكان عقد على الإخلاص، فإن كان مجرد سرور، فلا يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل وختم العبادة به، حبط أجره، لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه اللَّه، والخالص ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوْب، وأما الرياء الذي يقارن حال العقد كأن يبتديء الصلاة على قصد الرياء، فإن استقر عليه حتى سلم فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، فالأرجح أنه لا تنعقد صلاته مع قصد الرياء، فليأتنف، لأن باعثه الرياء في ابتداء العقد دون امتثال الأمر فلم ينعقد افتتاحه، فلم يصح ما بعده.

## بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

عرفت مما سبق أن الرياء محبط الأعمال، ومسبب للمقت عند اللَّه تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفي علاجه مقامان: **(أحدهما)** قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

**(والثاني)** دفع ما يخطر منه في الحال.

## المقام الأول في قلع عروقه وأصوله

وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي:

حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند اللّه تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر، فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال، فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه.

ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم اللّه لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيديهم، فبأن يعلم أن اللّه تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون إليه ولا رازق إلا اللّه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند اللّه برجاء كاذب ووهم فسد، وقد يصيب وقد يخطيء، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته، وأما ذمهم فلمَ يحذر منه؟ ولا يزيده ذمهم شيئاً، ما لم يكتبه اللّه عليه، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يُبغضه إلى اللّه إن كان محموداً عند اللّه. فالعباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؛ فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على قلبه، والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء، وأما الدواء العملي فهو أن يُعوِّد نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فلا تنازعه نفسه إلى طلب غير اللّه بها[1].

(١) وقد جاء في أصل «الاحياء» أن اعرابياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل اللّه؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا، فهو في سبيل اللّه» رواه البخاري ومسلم. وذكره مصنف

## المقام الثاني في دفع العارض منه أثناء العبادة

وذلك لا بد أيضاً من تعلمه، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة، بل يعارضه بخظرات الرياء، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق، دفع ذلك بأن قال لنفسه: مالك وللخلْق، علموا أو لم يعلموا، واللّه عالم بحالك، فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد، ذكر ما رسخ في قلبه من قبل آفة الرياء، وتعرضه للمقت الإلهي وخسرانه الأخروي.

## بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص، والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء. قال الحسن: إن السر أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة، ولذلك أثنى اللّه تعالى على السر والعلانية. فقال: **﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** (البقرة: ٢٧١) والإظهار قسمان:

**(أحدهما)** في العمل نفسه. **(والآخر)** بالتحدث بما عمل.

**(القسم الأول)** إظهار العمل نفسه كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، كما ورد عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال النبي ﷺ: «من سن سُنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه»[1] وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره. ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب، فالسر أفضل من علانية، لا

---

= «الاحياء» بغير هذا اللفظ.

(١) ولفظ الحديث كما رواه مسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء... الحديث. ويراجع في أسباب وروده كتاب «رياض الصالحين» وقد فهم منه الكثيرون غير المراد. كالقول بالبدعة الحسنة، وهو غير صحيح.

قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر، ويدل على ذلك أن اللّه عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء. وقوله عليه السلام: «له أجرها وأجر من عمل بها» ولكن على من يظهر العمل وظيفتان.

**(إحداهما)** أن يظهره حيث يعلم أن يقتدي به أو يظن ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه. وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق. وربما يقتدي به أهل محلته. وإنما العالِم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نُسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به، فليس له الإظهار من غير فائدة، و إنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به.

**(الثانية)** أن يراقب قلبه، فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء. وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به. فليحذر العبد خدع النفس. فإن النفس خدوع! والشيطان مترصد، وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً. والسلامة في الإخفاء. وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا. فالحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

**(القسم الثاني)** أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة، وللنفس لذة في إظهار الدعاوي عظيمة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من قوي قلبه، وتمّ إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به، والرغبة في الخير بسببه، فهو جائز بل مندوب إليه، إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد نُقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء.

## بيان الخطأ في ترك الطاعات خوفاً من الرياء

من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط وموافقة للشيطان وجر إلى البطالة وترك للخير؛ فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل، فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من اللّه إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه، وخوفك منه وحياتك من اللّه تعالى، وإن لم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء، فاترك العمل عند ذلك.

## بيان ما على المريد قبل العمل وبعده فيه

اعلم أن أولى ما يزلم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم اللّه في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم اللّه إلا من لا يخاف إلا اللّه، ولا يرجو إلا اللّه، فأما من خاف عيره وارتجاه، واشتهى إطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة، فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان، لما فيه من خطر التعرض للمقت وإحباط العمل، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة، فإن النفس تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء، فينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله، ملك الآخرة ونعيم الجنة أبد الآباد، وعظم غضب اللّه على من طلب بطاعته ثواباً من عباده. ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به. وإذا فعل جميع ذلك، فينبغي أن يكون وجلاً من عمله، خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي، ما لم يقف عليه. فيكون شاكا في قبوله ورده، مجوزاً أن يكون اللّه قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها، ورد عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده، وأما الابتداء فيكون متيقناً أنه مخلص ما يريد بعمله إلا اللّه، حتى يصح عمله وخوفه لذلك الشك، جدير بأن يكفر خاطر الرياء،

إن كان قد سبق وهو غافل عنه.

والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم، ينبغي أن يُلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر. فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه، ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا يريده ولا يستبعده منه لو قطعه، ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا، حتى أن بعضهم، وقع في بئر، فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه، فحلف عليهم أن لا يقف فيهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً خشية أن يحبط أجره، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله ويتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله، لا ليكون له في قلبه منزلة ولا في قلب الخلق، فإن العباد ما أُمروا إلا أن يعبدوا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً، فرده علي، فقلت: يا عبد الله، لست أنا ممن يسمع الحديث منك حتى ترده علي! قال علمت ذاك، ولكن أخاك يسمع مني الحديث، فأنا أخاف أن يلين قلبي لأخيك، أكثر مما يلين لغيره.

قال ابراهيم بن أدهم: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان، دخلت عليه في صومعته، فقلت: يا سمعان! منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة. قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي، وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة حمصة[1]. قلت: فما الذي

---

(١) لعله حمصات.

يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة. قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتونني في كل سنة يوماً واحداً، فيزينون صومعتي، ويطوفون حولها، ويعظمونني. فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة. فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبي المعرفة.

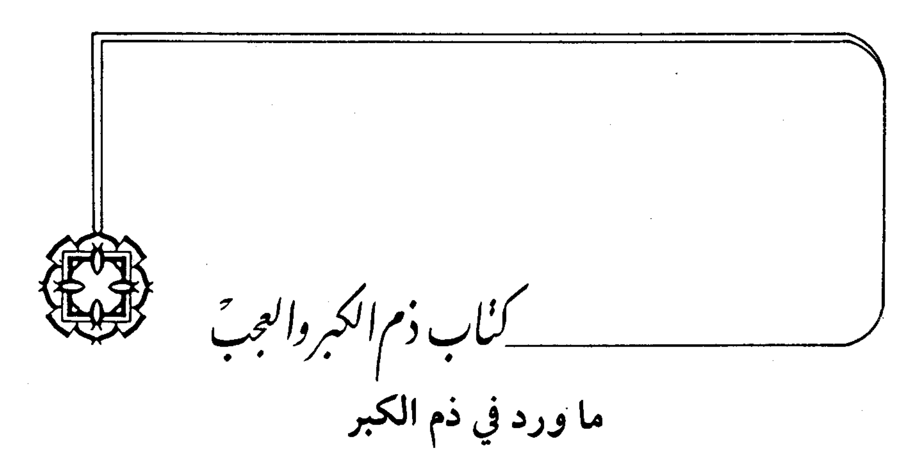
ثم قال الراهب: حسبك أو أزيدك؟ فقلت: بلى. قال: انزل عن الصومعة فنزلت، فأدلي لي ركوة فيها عشرون حمصة. فقال لي: ادخل الدير، فقد رأوا ما أدليت إليك. فلما دخلت الدير، اجتمع علي النصارى، فقالوا: يا حنيفي، ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته. قالوا: فما تصنع به، ونحن أحق به. ثم قالوا: ساوم قلت عشرين ديناراً. فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الراهب: فقال يا حنيفي! ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً. قال: أخطأت. لو ساومتهم بعشرين ألف دينار، لأعطوك. هذا عز من لا تعبده، فكيف يكون عز من تعبده يا حنيفي. أقبل على ربك...

وأما المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر اللّه والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله، فإن ذلك يغرس الرياء في صدره. حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب، يكون باعثاً في الخلوة. فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه. وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق به ذرعاً، إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، ولو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه، ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما

غني والآخر فقير فلا يجد من إقبال الغني زيادة هـزة في نفسه لإكـرامه إلا إذا كان في الغني زيادة علم، أو زيادة ورع، فيكون مُكرّماً لـه بذلـك الوصف لا بالغنى. فمن كان استرواحه الى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طمّاع.

ومكايد النفس وخفاياهـا في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيـك منها إلا أن تخرج ما سوى اللّه من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضي لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة.



# كتاب ذم الكبر والعجب

## ما ورد في ذم الكبر

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦) وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥) وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: ٢٣) وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردك من كبر»[١] وقال عليه السلام: «يقول اللّه تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[٢] وقال ﷺ: «لا ينظر اللّه إلى رجل يجر إزاره بطراً»[٣] وجاء في فضل التواضع قوله ﷺ: «ما زاد اللّه عبداً يعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد للّه إلا رفعة اللّه»[٤] (الآثار) وقال الفُضيل ـ وقد سئل عن التواضع ـ أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من جهّال الناس قبلته.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم بنحوه.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه مسلم.

وقال أبو بكر رضي اللَّه عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن حق المسلمين عند اللَّه كبير، وقال وهب: لما خلق اللَّه جنة عدن نظر إليها، فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب ابن الزبير على سريره، فجاء يوماً، ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما، فقعد الأحنف، فزحمه بعض الزحمة، فرأى أثر ذلك في وجهه، فقال: عجباً لابن آدم يتكبر، وقد خرج من مجرى البولين مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين، ثم يعارض جبار السموات. وقال محمد بن الحسين: ما دخل امرأ شيء من الكبر قط، إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلّ أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة، فقال: الكبر[1]. نسأل اللَّه تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه.

## بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خُلق في النفس والظاهر، وهو أعمال تصدر من الجوارح، وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى، وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وكيف لا تعظم آفته. وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2] وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلقان تلك الأبواب كلها، لأن المتكبر لا يقدر على أن

---

(١) وما أحسن ما قاله الشاعر:

لو فكر الناس فيها في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة ... وهو بخمس من الاقذار مضروب

أنف يسيل، وأذن ريحها سهك ... والعين مرفضة والثغر ملعوب

يا ابن التراب، ومأكول التراب غداً ... أقصر! فإنك مأكول ومشروب

سهك: كريه. مرفضة: سائلة. ملعوب: ذو لعاب.

(٢) رواه البخاري.

يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع، وهو رأس أخلاق المتقين، ولا يقدر على ترك الحقد، ولا يقدر أن يدوم على الصدق، ولا يقدر على ترك الغضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، ولا يقدر على ترك الحسد، ولا يقدر على النصح اللطيف، ولا يقدر على قبول النصح، ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيابهم، وبالجملة فما من خُلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه. وما من خُلق محمود إلا وهو عاجز عنه، خوفاً من أن يفوته عزه. فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه! وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين.

ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره، ولذلك شرح رسول اللّٰه ﷺ الكبر بهاتين الآفتين بقوله: «الكبر بطر الحق وغمط الخلق»[1] أي ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد اللّٰه أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى، وبطر الحق هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه، واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه، فقد تكبر ونازع اللّٰه حقه.

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع اللّٰه تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت، وما أعظم استهدافه للخزي والنكال، وما أشد استجراءه على مولاه، وما أقبح ما تعاطاه! فالخلق كلهم عباد اللّٰه، وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على

---

(١) رواه مسلم بلفظ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «ان اللّٰه تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس» ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم واحتقارهم.

عبد من عباد اللّه، فقد نازع اللّه في حقه.

ووجه الآفة الثانية: أن من سمع الحق من عبد من عباد اللّه واستنكف عن قبوله وتشمر لجحده، فما ذاك إلا للترفع والتعاظم واستحقار غيره، حتى يأبى أن ينقاد له، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم اللّه تعالى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦) فكل من يتضح له الحق على لسان أحد، ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والإفحام، لا ليغتنم الحق إذا ظفر به، فقد شاركهم في هذا الخُلق، وكذلك من تحمله الأنفة على عدم قبول الوعظ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ (البقرة: ٢٠٦).

## بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

**(الأول العلم)** وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء! فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم، فيستعظم نفسه ويستحقر الناس، ويستجهلهم، ويستخدم من خالطه منهم، وقد يرى نفسه عند اللّه تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وسبب كبره بالعلم أمران:

**(أحدهما)** أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً، وليس علماً في الحقيقة، فإن العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء اللّه والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٧).

**(ثانيهما)** أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخيلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضرب وهْب لهذا مثلاً، فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة. فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع علمه، فازداد علماً، علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً.

**(الثاني العمل والعبادة)** وليس يخلو عن رذيلة الكبر، واستمالة قلوب الناس، كحال العباد فترشح منهم الكبر في الدين والدنيا، أما في الدنيا، فهو أنهم يوقعون ذكرهم بالوَرَع والتقوى، وتقويمهم على سائر الناس، وكأنهم يرون عبادتهم مِنة على الخلق. وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك، قال ﷺ: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»[1] وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدرٍ بخلق اللّه، مغتر باللّه، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شرّاً، احتقاره لغيره. قال ﷺ: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم»[2] وكثير من العباد إذا استخف به مستخف أو آذاه مؤذ، استبعد أن يغفر اللّه له، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند اللّه، وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل، وجمع بين الكبر والعجب والاغترار باللّه، وقد ينتهي الحُمق والغباوة ببعضهم، إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري

---

(١) رواه مالك واحمد ومسلم.

(٢) رواه مسلم (١٢١/١٦ من شرح النووي عليه) بلفظ «بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وهو جزء من حديث طويل.

عليه، وإذا أَصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن اللَّه ما أراد إلا الانتقام له، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون اللَّه ورسوله، وعُرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، فمنهم من قتلهم، ومنهم من ضربهم، ثم إن اللَّه أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم، فلم يُصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على اللَّه من أنبيائه؟! وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه به؟! ولعله في مقت اللَّه بإعجابه وكبره، وهو غافل؟ هلاك نفسه.

فهذه عقيدة المغترين. وأما الأكياس من العباد، فيقولون ما كان يقوله بعض السلف بعد انصرافه من عرفات: «كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم» فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقي اللَّه ظاهراً وباطناً، وهو وجل على نفسه مزدر لعمله، وذاك يضمر من الرياء والكبر والغِل ما هو ضحكة للشيطان به! ثم إنه يمتن على اللَّه بعمله، ومن آثار الكبر في العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزه عن الناس مستقذر لهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الرقبة حتى تُطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب. قال رسول اللَّه ﷺ: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره[1]، فقد كان ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خُلقاً وأكثرهم بشراً وتبسما وانبساطاً[2] كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

**(الثالث)** الكبر بالحسب والنسب: فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً. وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقد يجري على لسانه التفاخر به، فيقول لغيره: من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان بن فلان، ومع مثلي تتكلم، وقد جاء أن أبا ذر رضي اللَّه عنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ، فعيرته بأمه.

---

(١) رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق.

(٢) وقد صح ذلك من سيرته ﷺ راجع ذلك في القسم الاخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

فغضب ﷺ. وقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية! هم إخوانكم»[1].

**(الرابع)** التفاخر بالجمال: وذلك أكثر ما يجري بين الناس، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس.

**(الخامس)** الكبر بالمال: وذلك يجري بين الأمراء والتجار في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى.

**(السادس)** الكبر بالقوة وشدة البطش والكبر به على أهل الضعف.

**(السابع)** التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة والأقارب، فهذه مجامع ما يتكبر به بعضهم على بعض، نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته.

## بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن الكبر في شمائل الرجل كصعر في وجهه، ونظره شزراً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض. فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه، ومنها أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع، ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته، والتواضع خلافه. جاء أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف، وكان يكتب، فكاد السراج يُطفأ فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن

(١) رواه البخاري ومسلم، وهذا اللفظ مختصر عن رواية مسلم.

يستخدم ضيفه! قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند اللّٰه متواضعاً.

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين، وكان رسول اللّٰه ﷺ يفعل ذلك، وقال علي: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر[1] والتواضع، وعلامة المتكبر فيه حرضه على التزين للناس للشهرة والمخيلة، وأما طلب التجمل لذاته في غير سرف ولا مخيلة، فليس من الكبر، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة، وقد قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة»[2] وقال ﷺ: «إن اللّٰه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[3]. ومنها أن لا يتواضع بالاحتمال إذا سُب واوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل.

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فينبغي أن يُقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم، وقد قال ابن أبي سلمة قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال: يا ابن أخي كُل للّٰه، واشرب للّٰه، والبس للّٰه، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة، فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك

---

(١) وما أحسن ما قاله الشاعر:

فلا تمش يوماً في ثياب مخيلة ... فإنك من طين خلقت وماء
وللّٰه نعماء علينا عظيمة ... وللّٰه إحسان وفضل عطاء
وما الدهر يوماً واحداً في اختلافه ... وما كل أيام الفتى بسواء
ازور قبور المترفين فلا ارى ... بهاء، وكانوا قبل أهل بهاء

(٢) رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه بلفظ: «كلوا واشربوا وتصدقوا، والبسوا ما لم يخالط إسراف ولا مخيلة» واسناده حسن.

(٣) رواه الترمذي والحاكم وسنده حسن. (مج).

من الخدمة ما كان يعالج رسـول اللَّه ﷺ في بيته، كـان يحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه ويشتري الشيء من السـوق، ولا يمنعه الحياء أن يلعق الإناء بيده، ويصافـح الغني والفقير، ويسلم مبتـدئاً عـلى كل من استقبله من صغير أو كبير، يجيب إذا دُعِي، ولا يحقـر ما دُعي إليـه، ليّن الخُلق، جميل المعاشرة. طليق الوجه، شديداً في غير عنف؛ متـواضعاً في غـير مذلة، جواداً من غير سرف؛ رقيق القلب، زادت عائشة رضي اللَّه عنها[١]، وأنه ﷺ لم يمتليء قط شبعـاً، ولم يبث إلى أحد شكـوى وكان يقـول: «البذاذة من الإيمان»[٢] فقال هرون: سألت عن معنى البـذاذة، فقال: هـو الدون من اللباس. فمن طلب التواضع فليقتد بـه ﷺ ومن لم يرض لنفسـه بذلـك، فما أشد جهله! فلقد كـان أعظم خَلق اللَّه منصبـاً في الدنيـا والدين فـلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به.

**(ومن الآثـار)** قال جـرير بن عبـد اللَّه، انتهيت مرة إلى شجـرة تحتهـا رجل قد استظل بنطع[٣] له، وقد جاوزت الشمس النطع، فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ، فإذا هو سلمان الفارسي، فـذكرت لـه ما صنعت، فقـال لي: يا جرير تواضع للَّه في الدنيا، فإنـه من تواضـع للَّه في الدنيـا، رفعه اللَّه يوم القيامة، يا جرير! أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا. وقـال كعب: ما أنعم اللَّه عـلى عبد من نعمة في الدنيا، فشكرها للَّه وتواضع بها للَّه، إلا أعطاه اللَّه نفعها في الدنيا، ورفع بها درجتـه في الآخرة. وقـال موسى بن القـاسم: كانت زلـزلة وريـح، فذهبت إلى محمد بن مقاتل، فقلت: يا أبا عبد اللَّه! أنت إمامنا فادع اللَّه عز وجل لنا. فبكى ثم قـال: ليتني لم أكن سبب هلاككم. قـال موسى: فـرأيت

---

(١) راجع تفصيلها ومصدرها في القسم الاخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وسنده صحيح (مج).

(٣) النطع بساط من الجلد.

النبي ﷺ في المنام[1] فقال: إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وعن عمر بن شعبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة، فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان، وإذا هم يفضّون الناس عنه، قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد، فكنت على الجسر، فإذا برجل حاف، حاسر طويل الشعر، فجعلت أنظر إليه وأتأمله. فقال لي: مالك تنظر إليّ؟! فقلت له: شبهتك[2] برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة. فقال: أنا ذلك الرجل: فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع الناس فيه، فوضعني الله حيث يترفع الناس.

## بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم أن الكبر من المهلكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة، وفي معالجته مقامان **(أحدهما)** قلع شجرته من مغرسها في القلب. **(الثاني)** دفع العارض منه بالأسباب التي قد يتكبر فيها.

## المقام الأول في استئصال أصله

علاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما، **(أما العلمي)** فهو أن يعرف نفسه ويعرف صفات ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف صفات ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول. وأما معرفته نفسه، فهو أيضاً يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿**قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ،**

---

(١) راجع بحث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في القسم الأخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) لا مانع من سعي الحاج راكباً وقد فعله السلف.

مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَـهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ ٱلسَّبِيـلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَـاتَهُ فَـأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَـآءَ أَنشَـرَهُ﴾ (عبس: ١٧ ـ ٢٢) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية.

أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حين العدم دهوراً، وأي شيء أخس من العدم، ثم خلقه اللّه من أقذر[١] الأشياء، إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم جعله عظماً ثم كسا العظم لحماً. فهذه بداية وجوده، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً، بل خلقه جماداً ميتاً، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يحس، ولا يتحرك، ولا ينطق، ولا يبطش، ولا يدرك، ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه؛ وببكمه قبل نطقه، وبضلاله قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَـةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (عبس: ١٩) ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت، وإنما خلقه من التراب الذليل، الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة[٢] بعد عدمها ليعرف خِسة ذاته فيعرف بها نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا له جل وعلا، فمن كان هذا بدؤه، وهذه أحواله، فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء، وهو على التحقيق أضعف؟! ولكن هذه عادة الخسيس إذا رُفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره، لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض

---

(١) لو قال: أضعف الأشياء لكان أفضل، فقد كرم سبحانه بني آدم.

(٢) من قال بأن نطفة الانسان قذرة؟ وقد خلق سبحانه منها الانسان الذي كرمه، وما جاء في قوله تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ أراد به الضعيف كما قال كثير من المفسرين.

والآفـات، يهدم البعض من أجـزائـه البعض، شـاء أم أبى، فيجـوع كـرهـاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً، ويموت كرهـاً لا يملك لنفسه نفعـاً ولا شراً، ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينسـاه، ويـريد أن ينسى الشيء ويغفـل عنـه، ولا يـأمن في لحـظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله، وتخطف روحـه، ويسلب جميع ما يهـواه في دنياه، فهـو مضطر ذليـل، إن ترك بقي وإن اختـطف فني، عبد مملوك لا يقدر عـلى شيء من نفسه ولا شيء من غيـره، فأي شيء أذل[1] منـه لو عـرف نفسـه، وأنى يليق الكبـر بـه لـولا جهله، فهـذا وسط أحـوالـه فليتأمله.

وأما آخره فهو الموت المشار إليه بقوله تعـالى: ﴿ثُمَّ أَمَـاتَهُ فَـأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ (عبس: ٢١) ومعنـاه أنه يُسلب روحـه وسمعه وبصـره، وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعـود جماداً كـما كان أول مـرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حسّ فيه ولا حركة، ثم يـوضع في التـراب جيفة منتنـة، ثم تبلى أعضـاؤه، وتُفتت أجـزاؤه، وتنخـر عـظامـه، ويـأكـل الـدود أعضاءه، فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهـرب منه الحيـوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لشدة الإنتان.

وليته بقي كذلك، لا بل يحييه بعد طول البلى، ليقـاسي شديـد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج الى أهوال القيامة، فينظر إلى قيـامة قـائمة، وسـماء مشققة ممـزقة، وأرض مبـدلة، وجبـال مسيرة، ونجـوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكـة غلاظ شـداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر.

ويـرى صحائف منشـورة فيقال لـه: «اقرأ كتـابك» فيقـول: وما هـو؟ فيقـال: كـان قـد وكـل بـك في حيـاتـك التي كنت تتكبـر بنعيمهـا، وتفخـر

---

(١) لو قال: اضعف لكان افضل.

بأسبابها، ملكان رقيبان، يكتبان عليك ما تنطق به، أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير، وقد نسيت ذلك وأحصاه اللّه عليك، فهلُمّ إلى الحساب، واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب، قبل أن تنشر الصحيفة، ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (الكهف: ٤٩) فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح[1] فضلا عن البطر؟! فقد ظهر له أول حاله ووسطه، ولو ظهر آخره، والعياذ باللّه تعالى، ربما اختار أن يصير مع البهائم تراباً، ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو اللّه عنه وهو على شك من العفو، فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر، حقاً يكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً، فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

(**وأما العلاج العملي**) فهو التواضع للّه بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه من شمائل[2] رسول اللّه ﷺ، ومن أحوال الصالحين، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أُمر العرب، الذي تكبروا على اللّه ورسوله، بالإيمان والصلاة جميعاً، وقيل الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً، وبالركوع والسجود. وقد كان العرب قديماً يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه، فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة، أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم، ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلوبهم.

---

(١) لقد جاء في الحديث الصحيح: «لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً!».

(٢) راجع هذا البحث الهام في القسم الاخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

## المقام الثاني فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة

ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفني بالموت، فكمال وهمي، ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع أسبابه السبعة (**الأول النسب**) فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه، بمعرفة أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قال الشاعر:

لئن فخُرت بآباء ذوي نسب    لقد صدقت، ولكن بئس ما ولدوا

ومن كان خسيساً، فمن أين تجبر خسته بكمال غيره، وبمعرفة نسبه الحقيقي أعني: أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة وجده البعيد تراب، وقد عرف اللّه تعالى نسبه فقال:﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَـٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ**﴾(السجدة: ٦ ـ ٨) فإذاكان أصله من التراب وفصله من النطفة، فمن أين تأتيه الرفعة؟! فهذا هو السبب الحقيقي للانسان، ومن عرفه لا يتكبر بالنسب.

(**الثاني الكبر بالجمال**) ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال! إذ خلق من أقذاروكل به في جميع أجزائه الأقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار، وجماله لا بقاء له، بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو سبب من الأسباب، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب، فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

(**الثالث الكبر بالقوة**) ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سُلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده، لصار أعجز من كل عاجز، أو شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمي يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة، فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته، ثم

إن قـوي الإنسان فـلا يكون أقـوى من حمـار أو بقـرة أو فيـل أو جمـل، وأي افتخار في صفة يسبقك بها البهائم؟!

(**السبب الـرابع والخـامس**) الغني وكثرة المـال، وفي معناه كثـرة الأتباع والأنصـار، والتكبر بـالمناصب والـولايات، وكـل ذلك تكبـر بمعنى خارج عن ذات الإنسان، وهذا أقبح أنواع الكبر، فلو ذهب مالـه أو احترقت داره لعـاد ذليلاً، وكم في اليهود من يزيد عليه في الغني والثروة والتجمل، فأف لشـرف يسبقه به يهودي، أو يأخذه سارق في لحظة فيعود ذليلاً مفلساً!

(**السادس الكبر بالعلم**) وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين: (**أحدهما**) أن يعلم أن حجة اللّه على أهل العلم آكد، وأنـه يُحتمل من الجـاهل، مـا لا يحتمـل عُشره من العـالم، فإن عصى اللّه تعـالى عن معـرفـة وعلم، فجنـايتـه أفحش وخطره أعظم. (**ثانيهما**) أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا باللّه عز وجل وحده، وأنه إذا تكبـر صار ممقـوتاً عنـد اللّه بغيضاً، فهـذا مما يـزيل التكبـر، ويبعث عـلى التواضـع، وإذا دعتـه نفسـه للتكبـر عـلى فـاسق أو مبتـدع[1]، فليتذكر ما سبق من ذنوبـه وخطايـاه، لتصغر نفسـه في عينه، وليـلاحظ إبهام عاقبته، وعـاقبة الآخـر، فلعله يختم له بـالسوء ولـذاك بالحسنى، حتى يشغله الخـوف عن التكبر عليـه، ولا يمنعـه تـرك التكبـر عليـه أن يكـرهـه ويغضب لنفسه، بل يبغضه ويغضب لربه، إذ أمره أن يغضب من تكبر عليه.

(**السابع**) التكبـر بالـورع والعبادة ، وذلـك فتنة عـظيمة عـلى العبّاد ، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، قال وهب بن منبه : مـا تم عقل عبد حتى يكون فيه خصال ، وعدّ منها خصلة التواضع ، قال : بها ساد مجده وبها علا ذكره : أن يرى الناس كلهم خيراً منه ، وإنما الناس عنده فـرقتان : فـرقة هي أفضـل منـه وأربـع ، وفـرقـة هي شر منـه وأدنى ، فهـو يتـواضـع

---

(١) عليه أن يسارع لنصحهما ولا يهملهما بسبب التكبر.

للفرقتين[1] جميعاً بقلبه ، وإن رأى من هو خير منه ، سره ذلك وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ، ويقول : لعل برّ هذا باطن[2] ، فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خُلقاً كريماً بينه وبين اللّه ، فيرحمه اللّه ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال ، ويرى ظاهر عمله ، فيقول ذلك شر لي ، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلتها الآفات فأحبطتها ، قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه .

والذي يدل على فضيلة هذا الإشفاق قوله تعالى :﴿وَيُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ، أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ ( المؤمنون : ٦٠ ) أي أنهم يُؤتون الطاعات، وهم على وجل عظيم من قبولها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ( الطور : ٢٦ ) وقد وصف اللّه تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقديسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدؤوب على الإشفاق فقال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ ( الأنبياء : ٢٨ ) فمتى زال الإشفاق والحذر ، غلب الأمن من مكر اللّه ، وذلك يُوجب الكبر وهو الهلاك ، فالكبر دليل الأمن ، والأمن مهلك ، والتواضع دليل الخوف وهو مُسعد .

فإذاً ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخَلق ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال ، فهذه معارف بها يُزال داء الكبر عن القلب ، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة ، قد تضمر التواضع ، وتدعي البراءة من الكبر ، وهي كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ، فمن هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة ، بل ينبغي أن تكمل بالعمل ، وتُجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس .

---

(١) لا نرى التواضع للاشرار، إلا إذا كانت الغاية هدايتهم.

(٢) لا يصح ان يبالغ في ذلك، فيعتمد على الباطن إذا فسد الظاهر!

وبيانه أن تُمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج ما في الباطن ، والامتحانات كثيرة ، **(فمنها)** وهو أولها : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله ، والانقياد له والشكر له على تنبيهه ، فذلك يدل أن فيه كبراً دفيناً ! فليتق اللّه فيه ويشتغل بعلاجه ، أما من حيث العلم ، فبأن يذكر نفسه خستها وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا باللّه تعالى ، وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول ما أحسن ما فطنتَ له ، وقد كنتُ غافلاً عنه ، فجزاك اللّه خيراً كما نبهتني له فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلّه عليها ، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله ، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه كبر .

**(الامتحان الثاني)** أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشي خلفهم[1] ، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، فبذلك يزايله الكبر .

وههنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس في صف النعال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأراذل ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن !

**(الامتحان الثالث)** أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة

---

(١) في هذا مبالغة لا تصح ، فالحركات الظاهرة لها آدابها في الإسلام ، فلا تصح مخالفتها ، ومع ذلك لا يكتفى بها!

الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ، ليس إلا لخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه ، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر .

**(الامتحان الرابع)** أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء .

وكل ذلك من أمراض القلوب وعلله المهلكة له ، إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تُدرك السعادة إلى بسلامتها . إذ قال تعالى ﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ ( الشعراء: ٨٩ ) .

## بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

إعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان ووسط ، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يمسى تكبراً ، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة ، والوسط يسمى تواضعاً ، والمحمود أن يتواضع في غير مذلة وتخاسس ، فإن كلا طرفي الأمور ذميم ، وأحب الأمور إلى اللّه تعالى أوساطها ، فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه . والعالم إذا دخل عليه دنيء فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو أيضاً غير محمود ، بل المحمود عند اللّه العدل ، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه . فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ، ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوقي ، فبالبِشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيراً منه ، فلا يحتقره ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

## بيان ذم العُجب وآفاته

إعلم أن العُجب مذموم في كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾ (التوبة: ٢٥) ذكر ذلك في معرض الإنكار ، وقال عز وجل : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ (الحشر: ٢) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم ، وقال تعالى : ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف: ١٠٤) وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل ، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه ، وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه[(١)] » وقال ﷺ : « بينما رجل يتبختر في بُردين ، وقد أعجبته نفسه ؛ خسف اللّه به الأرض ؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[(٢)] . وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين : القنوط والعُجب ، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير ، والقانط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجَب يعتقد أنه قد سعد ، وظفر بمراده ، فلا يسعى ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿ فلا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ( النجم : ٣٢ ) أي لا تعتقدوا أنها بارَّة ، وقال تعالى : ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ ( البقرة : ٢٦٤ ) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العُجب .

## بيان آفة العجب

إعلم أن آفات العُجب كثيرة ، فإن العجُب يدعو إلى الكبر ، لأنه أحد

---

(١) رواه البيهقي بلفظ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، فأما المنجيات، فتقوى اللّه في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغني والفقر، وأما المهلكات، فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن» والحديث حسن لطرقه (مم).

(٢) رواه البخاري ومسلم، وتجلجل في الأرض ساخ فيها.

أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى . هذا مع العباد ، وأما مع اللّه تعالى ؛ فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها ، وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد في إزالته ، بل يظن أنه يُغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويمن على اللّه بفعلها وينسى نعمة اللّه عليه بالتوفيق والتمكن منها ، ثم إذا أُعجب بها عمي عن آفاتها ، وذلك أن المعجَب يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر اللّه وعذابه ، ويظن أنه عند اللّه بمكان ، وأن له عند اللّه منةً وحقاً بأعماله التي هي نعمة من نعمه . ويخرجه العُجب إلى أن يُثني على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أُعجب برأيه وعمله وعقله ، منعه ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأي الخطإ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستهجان ، ويصر على خطاياه .

فهذا وأمثاله من آفات العُجُب ، فلذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي ، لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح . نسأل اللّه العظيم حسن التوفيق لطاعته .

## بيان علاج العجب على الجملة

إعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العُجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، وذلك أن المعجب بجماله أو قوته أو نسبه وما لا يدخل تحت اختياره ، إنما يعجب بما ليس له ، لأن كل ذلك من فضل اللّه ، وإنما هو محل لفيضان جوده تعالى ، فله الشكر والمنة إذا أفاض على عبده ما لا يستحق ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فإذاً منشأ العجب بذلك هو الجهل ، وإزالة ذلك بالعلم المحقق ،

بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند اللّه تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق . وهذا ينفي العجب والإدلال ، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . قال اللّه تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً** ﴾ ( النور : ٢١ ) ، قال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس : « ما منكم من أحد ينجيه عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمته »[١] . ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة ، عن الإعجاب بها ، وأنى لذي بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه ؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب .

## بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

إعلم أن مجموع ما به العجب ثمانية أقسام : **(الأول)** أن يعجب ببدنه في جماله ، وهيئته ، وصحته وقوته ، وحسن صوته ، وينسى أنه نعمة من اللّه تعالى ، وهو عرضة للزوال في كل حال ، وعلاجه التفكر في أقذار باطنه في أول أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة ، كيف تمزقت في التراب ، وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع .

**(الثاني)** البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر اللّه عنهم : ﴿ **مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** ﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمّى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها اللّه تعالى بأدنى آفة يسلطها عليها .

**(الثالث)** العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستبداد بالرأي ، وترك المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل ، وعلاجه أن يشكر اللّه تعالى على ما رزقه من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه ، كيف يوسوس ويجن بحيث

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

يُضحـك منـه ، فـلا يـأمن أن يُسلب عقله إن أعجب بــه ، ولم يقم بشكـره ويستقصر علمـه وعقله ، وليعلم أنه مـا أوتي من العلم إلا قليـلاً وإن اتسع علمه ، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم اللّه تعالى ، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ، فيحذر أن يكون منهم ، وهو لا يدري ، فإن القاصر العقـل لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعـرف مقدار عقله من غيـره لا من نفسه ، ومن أعدائـه ، لا من أصدقـائه ، فـإن من يداهنـه يثني عليه فيـزيده عجبـاً ، وهو لا يـظن بنفسه إلا الخير ولا يفـطن لجهـل نفسـه ، فيـزداد بـه عجباً .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجـو بشرف نسبه ، ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آبـاءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنـه ملحق بهم فقد جهـل ، وإن اقتدى بـآبائـه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس (**الأمـارة بالسـوء**) . ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليشـرف بما شـرفوا بـه ، ولذلك قـال تعالى : ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّـاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُـم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾ أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال : ﴿**وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ**﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقـال :﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنـدَ ٱللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ**﴾ (الحجـرات : ١٣ ) وقـال ﷺ : « إن اللّه أذهب عنكم عيبة الجاهليـة[١] ـ أي كبرهـا ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب » ولما نـزل قولـه تعالى : ﴿**وَأَنـذِرْ عَشِـيرَتَكَ ٱلْأَقْـرَبِينَ**﴾ ( الشعراء : ٢١٤ ) ناداهم بطناً بعد بـطن حتى قال : « يـا فاطمـة بنت محمد ، يـا صفية بنت عبد المطلب عمـة رسول اللّه إعمـلا لأنفسكما ، فـإني لا أغني عنكما من اللّه شيئاً »[٢] فبيّن أنهم إذا مـالوا إلى الـدنيا لم ينفعهم نسب الـرسول . فمن

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة وهو جيد الاسناد.

(٢) رواه مسلم.

عرف هذه الأمور ، علم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع ، فاقتدى بهم في التقوى والتواضع ، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله ، مهما انتمى إليهم ، ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

(الخامس) العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدّين ، وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في منكراتهم وما جروا على الناس من المحظورات ويشكر اللّه أن عصمه من تبعاتهم .

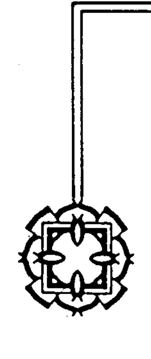
(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما أخبر تعالى عن الكفار إذ قالوا : ﴿ **نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰداً** ﴾ ( سبأ : ٣٥ ) وكما قال المؤمنون يوم حُنين : لا نُغلب اليوم من قلة . وعلاجه ما ذكرناه في الكبر ، وهو أن يتفكر في صعفه وضعفهم ، وأن كلهم عجزه لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودُفن وحده ذليلاً مهاناً ، ويسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب ولا يغنون عنه شيئاً ، ويهربون منه يوم القيامة ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾ ( عبس : ٣٤ ـ ٣٦) فكيف تعجب بمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ، وكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك ؟!

(السابع) العجب بالمال . كما أخبر تعالى عن ذلك الكافر إذ قال : ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**﴾ ( الكهف : ٣٤ ) وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه ، أن في اليهود من يزيد عليه في المال ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم ، وكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير في القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضعه في حقه ، وأن مآل المتهور في الجمع والمنع إلى الخزي والبوار .

(الثامن) العجب بالرأي الخطإ . قال تعالى : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ**

عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ ( فاطر : ٨ ) وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ ( الكهف : ١٠٤ ) وقد أخبر رسول اللّه صلوات اللّه عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افترقت فرقاً وكل معجب برأيه ، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم: ٣٢) وعلاجه أن يتهم رأيه أبداً ، فلا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة ، أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة ، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد ، وتشمير في الطلب ، وممارسة للكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ، ومدارسة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور ، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب[1] بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات وبالشفقة على المسلمين . نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

(١) الخوض في المذاهب الفلسفية خطر وحرام، وقد ضل فيها الكثيرون.



# كتاب ذم الغرور

إن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، والمغرور هو الذي لم تتفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً[1]. ولما كان الغرور أبا الشقاوات، ومنبع المهلكات، لزم شرح مداخله ومجاريه، وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه. فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد، فأخذ منها حذره، وبنى على الحزم والبصيرة أمره.

## بيان ذم الغرور وأمثلته

أعلم أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (لقمان: ٣٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ (الحديد: ١٤) كاف في ذم الغرور. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه بالطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة

(١) وما أروع ما قاله الشاعر:

أيها الشامت المغتر بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور؟!
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلد أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير؟!

فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم.

وأشد الغرور غرور الكفار، وغرور العصاة والفساق. فأما غرور الكفار[1] فقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٨٦) وعلاج هذا الغرور إما التصديق بالإيمان، وإما بالبرهان، أما التصديق بمجرد الإيمان، فهو أن يصدق اللّه تعالى في قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) وفي قوله عز وجل: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ (القصص: ٦٠) وقوله ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (الأعلى: ١٧) وقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾. وقد أخبر رسول اللّه ﷺ بذلك طوائف من الناس فصدقوه وآمنوا به، ولم يطالبوه بالبرهان[2]، ومنهم من قال: نشدتك اللّه أبعثك اللّه رسولاً؟ فكان يقول: نعم[3] فيصدق وهذا إيمان العامة، وهو يخرج من الغرور.

وأما المعرفة بالبيان والبرهان، فأن تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور بالتبصر في دعوى الأنبياء وعلماء السنة وتصديفهم، فإنه أيضاً يزيل الغرور، وهو مدرك يقين العلوم وأكثر الخواص، ومثالهم مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة عن آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني، فإنّ نفس المريض تطمئن إلى تصديقهم، ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به، ولو بقي معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه علماً وأغزر منه فضلاً، وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيُعلم كذبه بقولهم ولا

---

(١) يدخل في الكفار الدهرية الطبيعية، فهذا البحث والاحتجاج ينفعان في إلقامهم الحجر، فليكن على بال منك فإنه مهم جداً ا هـ مختصره.

(٢) الرسول لا يطالب بالبرهان.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمه بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً.

فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هي الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير الناس وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل: وهم الأنبياء، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم الشهوة، ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظُم عليهم ترك الشهوات، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار. فجحدوا الآخرة وكذّبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي والمعتوه لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء، وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة، والغرور يزول به.

وأما غرور العصاة من المسلمين فبقولهم: إن اللّٰه كريم وإنا نرجو عفوه، وكما أحسن في الدنيا، فهو يحسن أيضاً في الآخرة، كما قال الشاعر:

لقد أحسن فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

إذ يقول: لولا أني كريم عند اللّٰه، ومحبوب، لما أحسن إليّ. والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أن انعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر باللّٰه، إن ظن أنه كريم عنده، بدليل لا يدل على الكرامة[1]، بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران، يبغض أحدهما، ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه اللعب (أحياناً) ويلزمه المكتب، ليعلمه الأدب، ويمنعه من ملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه.

(١) قال اللّٰه تعالى: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول: ربي أكرمن، وما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه، فيقول ربي اهانن، كلا!﴾ (الفجر: ١٥ ـ ١٦) وقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ (آل عمران: ١٧٨).

والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد، فيلعب، ولا يدخل المكتب، ويأكل كل ما يشتهي. فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم، لأنه مكنه من شهواته، ولذاته، وساعده على جميع أغراضه، فلم يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور.

واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة اللَّه واسعة ورحمته شاملة، وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار كرمه، وإنا موحدون! فنرجوه بوسيلة الإيمان، وربما كان مستدرجاتهم: التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم، كاغترار بعض آل البيت بنسبهم، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم على اللَّه من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون!

وذلك نهاية الاغترار باللَّه تعالى. أينسى المغرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة، فلم يرد اللَّه، فكان من المغرقين **﴿فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾** فقال تعالى: **﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾** (هود: ٤٦) وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه، ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروي بشرب أبيه، ويصير عالماً بعلم أبيه، ويصل الكعبة ويراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين، فلا يجيز فيه والد عن ولده شيئاً، وكذا العكس.

## بيان الغلط في تسمية التمني والغرور رجاء

**(فإن قلت)** فأين الغلط في قول العصاة والفجار: إن اللَّه كريم نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال «أنا عند ظن عبدي بي»[1] (فالجواب) أن الحكمة البالغة وهي: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللَّه الأماني» هذا هو التمني على اللَّه تعالى غيَّر الشيطان

---

(١) رواه أحمد والحاكم والطبراني وإسناده صحيح (مج).

اسمه، فسماه رجاء حتى خدع به الجهال[1]، وقد شرح اللّه الرجاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢١٨) يعني أن الرجاء بهم أليق. وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال اللّه تعالى: ﴿جَزَآءَ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الواقعة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) أفترى أن من استُؤجر على إصلاح أوانٍ، وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريماً، يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها، ثم جلس ينتظر الأجر، ويزعم أن المستأجر كريم؟ أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟! وهذا الفرق بين الرجاء والخوف. قيل للحسن: قوم يقولون: نرجو اللّه ويضيعون العمل، فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجحون فيها. من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه[2].

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً، وهو بعد لم ينكح، فهو معتوه، كذلك من رجا رحمة اللّه، ولم يعمل صالحاً، ولم يترك المعاصي، فهو مغرور[3]، فكما أنه إذا نكح بقي متردداً في الولد، يخاف ويرجو فضل اللّه في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم، إلى أن يتم فهو كيِّس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات، وبقي متردداً بين الخوف

---

(١) وقد قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| قل للمؤمل: إن الموت في أثرك | وليس يخفى عليك الأمر في نظرك |
| فيمن مضى لك إن فكرت معتبر | ومن يمت كل يوم فهو من نذرك |
| دار تسافر عنها في غد سفراً | فلا تؤوب إذا سافرت من سفرك |
| تضحي غداً سمراً للذاكرين كما | كان الذين مضوا بالأمس من سمرك |

(٢) إلا اللّه تعالى، فإن المؤمن إذا خافه لجأ إليه.

(٣) وما أحسن ما قاله الشاعر:

| | |
|---|---|
| يا أيها الواقف بالقبور | بين أُناس غيب حضور |
| قد سكنوا في خرب معمور | بين الثرى وجندل الصخور |
| ينتظرون صيحة النشور | لاتك في حظك في (غرور) |

والرجاء يخاف أن لا يقبل منه، ويرجو أن يُثبته حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبة عن الميل إلى الشهوات بقية عمره، حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيّس، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون باللّه. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٢).

## موضع الرجاء المحمود

فإن قلت: فأين موضع الرجاء المحمود؟ فأعلم أنه محمود في موضعين:

(أحدهما) في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة اللّه تعالى، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر أن اللّه يغفر الذنوب جميعاً، وأن اللّه كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راجٍ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور.

(الثاني) أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، فيُرجّي نفسه نعيم اللّه تعالى وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الآيات. (المؤمنون: ١ و٢).

فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير، فكل توقع حث على توبة أو على تشمير في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرور، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل، ففتّره الشيطان عن التوبة والعبادة وقال له: لك رب كريم، فهذا غرة، وعند هذا يجب أن يستعمل الخوف، فيخوّف نفسه بغضب اللّه وعظيم عقابه، ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب: شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم خلّد الكفار

في النار أبد الآباد، وقد خوفني عقابه، فكيف لا أخافه وكيف أغتر به[1]؟!

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان، يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمنٍ وغرور، ورجاء كافة الخلق، هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن اللّه تعالى وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور، وقد كان السلف يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات، وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين، غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي، وإنهماكهم في الدنيا، وإعراضهم عن اللّه تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم اللّه وعفوه، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا، فعلام كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟! وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . .﴾ (الرحمن: ٤٦) ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (ابراهيم: ١٤) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حُزنه ويعظُم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه!

## بيان بعض أصناف المغترين

فمنهم (فرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند اللّه تعالى بمكان لا يُعذب مثلهم، ولو نظروا بعين البصيرة، لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة، وكيفية علاجها، والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون

---

(١)

| | |
|---|---|
| يا ناظراً يرنو بعيني راقد | ومشاهداً للأمر غير مشاهد |
| تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي | درج الجنان، ونيل فوز العابد |
| أنسيت ربك حين أخرج آدماً | منها إلى الدنيا بذنب واحد؟! |

العمل، وقد ورد فيمن لا يعمل بعمله، ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾، فأي خزي أعظم من التمثيل بالحمار؟!

(وفرقة) أخرى أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم، ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء، وطلب الجاه وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «إن اللّٰه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1] فتعهدوا الأعمال، وما تعهدوا القلب، والقلب هو الأصل! إذ لا ينجو إلا من أتى اللّٰه بقلب سليم، ومثال هؤلاء قبور الموتى، ظاهرها مزين وباطنها جيفة!

وفرقة اقتصروا على علم الفصل في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها.

وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات، هؤلاء مغرورون من وجهين: من حيث العمل، ومن حيث العلم، أما من حيث العمل فقد قدمنا أولا وجه الغرور فيه، ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء، واشتغل بتكرارها وتعليمها للمرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟! هيهات هيهات، فلا بد من شربه والصبر على مرارته، على أنه بعد على خطر من شفائه.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم المعاملات، وظن

(١) رواه مسلم.

أنه علم الدين، وترك علم كتاب اللّه تعالى وسنة رسول اللّه ﷺ، وربما طعن في المحدثين[1]! وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون! وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن اللّه تعالى، بإدراك جلاله وعظمته، وهو الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، فإن الفقه هو الفقه عن اللّه ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف، ويلازم التقوى إذ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(التوبة: ١٢٢) وما الذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم؟!

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم في أخلاق النفس والزهد والإخلاص وهم مغرورون، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند اللّه، لحرصهم على السمعة وحسدهم لمن يتقدمهم من أقرانهم، وغيظهم على من يثني على معاصريهم، وجمعهم لحطام الدنيا، فهؤلاء أعظم الناس غرة.

(وفرقة) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها ولو في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزهاد فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفوراً له، من غير أن يحفظ باطنه عن الآثام، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

(وفرقة) اشتغلوا بعلم النحو واللغة، والشعر وغريب اللغة، واغتروا به وزعموا أنهم قد غُفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، فأفنوا أعمارهم في ذلك وأعرضوا عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها، كمن ضيع عمره في تصحيح

---

(١) إن الإيمان وبغض أهل الحديث الصالحين، قل أن يجتمعا، فإن لهم فضلا على الناس، وقد حدثني بعضهم أن شيخه كان يقول له ولسائر طلابه: «بارك اللّه تعالى لنا بأهل الحديث، فإنهم كلما رأونا انحرفنا عن الجادة أرشدونا إليها» وللّه در القائل:

أهل الحديث همو أهل النبي وإن ... لم يصحبوا نفسه، أنفاسه صحبوا!

مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه. وهو في غرور، إذ المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف أدوات، فاللب هو العمل والذي فوقه كالقشر للعمل، فالقانعون به مغترون إلا من اتخذه منزلاً فلم يعرج عليه إلا بقدر حاجته، فتجاوزه حتى وصل إلى لباب العمل. فحمل نفسه عليه، فصفاها من الشوائب والآفات.

## غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة

منهم (فرقة) تعمقوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه، ولا يرضى المحكوم بطهارته في الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، إذ توضأ عمر رضي اللّه عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام.

ومنهم (فرقة) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة. فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ـ على زعمه ـ وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ـ على زعمهم ـ يفعلون ذلك في أول الصلاة، ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم، ويغترون بذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم.

(وفرقة) تغلُب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح المخارج في جميع صلاته لا يهمه غير ذلك، ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره، وهذا هو أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عاداتهم في الكلام، ومثل هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان، وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف،

ويكررها ويعيدها، مرة بعد أخرى، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة، ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل!

(وفرقة) اغتروا بقراءة القرآن: فيهذرمونه هذرمة، وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة، ولسان أحدهم يجري وقلبه يتردى في أودية الأماني، إذ لا يتفكر في معاني القرآن، لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه، فهو مغرور، يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به، مع الغفلة عنه. ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً وأشار عليه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه، فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مئة مرة، فهو مستحق للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور، نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب، فهو يقرؤه ويلتذ به، ويغتر باستلذاذه، ويظن أن لذة مناجاة اللّٰه تعالى وسماع كلامه، إنما هي لذته في صوته، فليتفقد قلبه وليخش ربه.

(وفرقة) اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر[1] أو الأيام الشريفة، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، وخواطرهم عن الرياء، وبواطنهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، فيهملون الفرائض ويطلبون النفل، ثم لا يقومون بحقه، وذلك غاية الغرور.

(وفرقة) اغتروا بالحج: فيخرجون إلى الحج من غير إخراج المظالم وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض، ولا

(١) صوم الدهر منهي عنه بقوله ﷺ: «لا صام من صام الدهر» وهو قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم، وذلك ليبقى المسلم قوياً قادراً على العمل والجهاد.

يحذرون من الرفث والخصام، ثم يحضر الواحد منهم البيت بقلب ملوث بذميم الأخلاق، لم يقدم تطهيره على حضوره، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه، فهو مغرور.

**(وفرقة)** جاوروا بمكة والمدينة، واغتروا بذلك، ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم، ملتفتة إلى قول من يقول إن فلاناً مجاور بمكة كذا وكذا سنة، ثم إنه قد يجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس، ويظهر فيه الرياء، وجملة من المهلكات، كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن أحب المحمدة، وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل، فهو أيضاً مغرور.

**(وفرقة)** أخرى اشتغلوا بعلم الكلام، والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين، وتتبع مناقضاتهم، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك ـ بسبب علم الكلام ـ فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد إيمان وعمل إلا بأن يتعلم جدلهم، وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف باللّه وصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم.

وعلماء الكلام فرق كثيرة، يكفر بعضهم بعضاً. وإنما أوتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها، فرأى أحدهم الشبهة دليلا، والدليل شبهة، وزعموا أن من صدّق اللّه ورسوله من غير تعلم علم الكلام، فليس بمؤمن، أو ليس كامل الإيمان، ولا مقرباً عند اللّه، فلهذا الظن الفاسق قطعت أعمارها في تعلم الكلام والجدل وهذيان المبتدعة ومناقضاتهم، وعميت أبصارهم فلم يلتفتوا الى القرن الأول، فإن النبي ﷺ شهد لأهله بأنهم خير الخلق، وإنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات[1].

---

(١) لقد نقلنا هذا التفصيل في محاذير علم الكلام من أصل «الاحياء» للغزالي، بسبب وقوع كثير من المسلمين ومعاهد الدينية في هذا الضلال، وتركوا تعلم التوحيد من كتاب اللّه تعالى وسنة

(وفرقة) زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدون، ومن المسكن بالمسجد أو المدارس، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهي مع ذلك راغبة بالرياسة والجاه، إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، ومن كان هذا شأنه، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين، فهذا مغرور! إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا، وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة، وأن الراغب فيها لا بدّ وأن يكون منافقاً، وحسوداً، ومتكبراً ومرائياً، ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق، وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور، إذ يتطاول بذلك على الناس، وينظر إليهم بعين الاستحقار،

---

= نبيه ﷺ، على الرغم من تحذير جميع علماء السلف وأئمة المذاهب رضي الله تعالى عنهم جميعاً من تعلم هذا العلم. حتى إن كثيراً من علماء الكلام ندموا في آخر عمرهم على الأوقات التي أضاعوها في هذا العلم ورجعوا الى دراسة التوحيد من القرآن والسنة. جاء في شرح العقيدة الطحاوية (طبعة ٣ ص ١٦٥):

قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم، في كتابه: «تهافت التهافت»: «ومن الذي قال في الإلهيات (أي علم الكلام) شيئاً يعتد به؟!» وكذلك الغزالي، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق، واقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات، وكتاب البخاري على صدره وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه (اقسام الذات) (نادماً على ما أضاعه في حياته بعلم الكلام):

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق ـ أي في تعلم التوحيد ـ طريقة القرآن.. ثم قال: «ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي» وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: «إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم! حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقنه أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: «يا اصحابنا لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت ان الكلام يبلغ بي الى ما بلغ ما اشتغلت به»ا هـ باختصار.

ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب، وربما يُعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يُقال بَطُل زهده، فهو راغب في حمد الناس، وهو من ألذ أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور.

ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الأغنياء، وتقديمهم على الفقراء، والميل إلى المريدين له، المثنين عليه، والنفرة على المائلين إلى غيره، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان، نعوذ باللّه منه، وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح. ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقده، وتطهيره من الرياء والكبر والعُجْب وسائر المهلكات، ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته، وهيهات!! ذرة من ذي تقوى وخُلق واحد من أخلاق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح! ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خُلقه مع الناس وخشونته، وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء؛ فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأولياء اللّه وأحبابه، فرح المغرور وصدّق به، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند اللّه. ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

**(وفرقة)** أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة منه. وطلب الأسانيد الغريبة العالية. فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان. ولقد رأيت فلاناً، ومعي من الأسناد ما ليس مع غيري. وغرورهم من وجوه. منها أنهم حملة أسفار!. فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة. فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم. ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضاً ولا يعملون به[1].

---

(١) لا شك أن علماء الحديث هم مصابيح الهدي ومنارات العلم، فمن تركهم ضل، ومن تبعهم اهتدى، ولا يضرهم! اصابة بعضهم بالغرور احياناً.

ومن هذا الغرور فبعض أهل الحديث اشتغالهم بهذا العلم ليل نهار، وإهمال تعليم فئة=

(**وفرقة**) حرصت على النوافل. ولم يعظم اعتدادها بالفرائض. ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل. ولا يجد للفريضة لذة. ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت. وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1].

## غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة

(**ففرقة**) منهم اغتروا بالزي والهيئة والنطق، فيجلسون على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصُّعداء، وفي خفض الصوت في الحديث، ولم يُتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل الزهد مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يكلفوا أنفسهم شيئاً منها.

(**وفرقة**) ادعت علم المعرفة، والوصول إلى القلب، ويظن فاعل ذلك أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلا عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها، كأنه يتكلم على الوحي، ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد! والعلماء، ويقول إنهم عن اللّه محجوبون، ويدعي لنفسه

---

= من طلابهم الشباب هذا الفن العزيز الغريب على الرغم من رجاء هؤلاء الشبان والحاحهم والحاح الغيورين ويحتجون بعدم الوقت ناسين أو متناسين ان إعداد خلفاء لهم من أوجب الواجبات ومهما عاشوا، فلن يستطيعوا إنجاز ما يأملون، ولو اعدوا هؤلاء الخلفاء، لأتموا ما عجزوا عنه. والغريب انهم يحتجون بضيق الوقت، بينما يضيعون كثيراً منه في الذهاب الى العمرة والحج من عام إلى آخر بعد أن حجوا حجة الإسلام، فنسأل اللّه تعالى لهم طول العمر وبعد النظر والنجاة من الغرور..

(١) رواه البخاري بنحوه.

الـوصول إلى الحق، وأنـه من المقربـين، وهو عنـد اللّه من المنافقـين، وعنـد أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين! لم يحكم قط علماً، ولم يهـذبُ خلقاً، ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً، سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

(وفرقة) وقعت في الإبـاحة، وطـووا بساط الشـرع، ورفضوا الأحكـام وسووا بين الحلال والحرام؛ فبعضهم يقـول: إن اللّه مستغن عن عملي، فلمَ أتعب نفسي، وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النـظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب اللّه، وواصلة إلى معـرفة اللّه، وإنمـا نخوض في الـدنيا بـأيدينـا، وقلوبنا عـاكفة في حضـرة الربـوبيـة، فنحن مـع الشهـوات بالظواهر لا بالقلوب! ويزعُمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العـوام، واستغنوا عن تهـذيب النفس بالأعمـال البدنيـة، وأن الشهوات لا تصـدهم عن طريق اللّه لقوتهم فيها. وكل هذا من وساوس الشيطان يخدعهم بها، ومن إباحية الكفار المارقين، نعوذ باللّه أن نكون من الجاهلين.

(وفـرقة) ادعـوا حسن الخُلق والتواضـع والسماحـة. فتصدوا لخـدمـة الزّهاد فجمعوا قوماً وتكلفوا بخـدمتهم، واتخذوا ذلـك شبكة للريـاسة وجمـع المـال، فيجمعون من الحـرام والشُبُهـات، وينفقـون عليهم لتكـثر أتبـاعهم، وينتشر بالخدمة اسمهم، وما باعثهم إلا الرياء والسمعة.

وثمـة (فرق أخـر) لا يحصى غرورهـا، والغرض من ذلـك التنبيه عـلى أمثلة تُعرف الأجناس دون الاستيعاب، فإن ذلك يطول.

## غرور أرباب الأموال

والمغترون منهم فِرق: (فرقة) منهم يحـرصون عـلى بناء المسـاجد، ومـا يظهر للناس ليخلُد ذكرهم أو يـذيع صيتهم، وهم يـظنون أنهم قـد استحقوا المغفرة بذلك، وقد يكون بناؤها من جهات محظورة، تعرضـوا لسخط اللّه في كسبها، وكان الواجب ردها إلى مُـلاكها، إمـا بأعيـانها، وإما بـردّ بدلهـا عند العجز، وقد يكون الأهم التوسعة على المساكين، وهم لا يفعلون ذلـك خيفة

أن لا يظهر ذلك للناس، فيكون غرضهم في البناء الرياء وجلب الثناء، مع أن صرف المال إلى من في جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل، وأولى من الصرف إلى المساجد وزينتها، فما خف عليهم الصرف إلى المساجد إلا ليظهر ذلك بين الناس، وهناك محظور آخر، وهو أنه قد يصرف المال إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهي عنها، لشغلها قلوب[1] المصلين. والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين، فوبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات! مع أنه تعرض لما لا يرضي اللَّه تعالى. إذ المساجد للتواضع ولحضور القلب مع اللَّه تعالى.

قال الحواريون للمسيح عليه السلام: انظر إلى هذا لمسجد ما أحسنه! فقال: أمتي! أمتي، بحق أقول لكم، لا يترك اللَّه من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إن اللَّه تعالى لا يعبأ بالذهب والفضة، ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً، وإن أحب الأشياء إلى اللَّه تعالى القلوب الصالحة، بهذا يعمر اللَّه الأرض، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك.

وقال أبو الدرداء: «إذا زخرفتم مساجدكم، فالدمار عليكم»[2].

(وفرقة) ينفقون الأموال في الصدقات على المساكين ويطلبون أن يكون ذلك في المحافل الجامعة، ويعطون من الفقراء من عادته الشكر وإفشاء

---

(١) ومن أضرار زخرفة المساجد علاوة على شغلها قلوب المصلين، إضاعة أموال المسلمين سدى، بدلاً من إنفاقها على التسليح والجهاد والمشروعات العامة المفيدة.

(٢) الاصل في بناء المساجد الإيواء والبساطة، والمتانة إذا تيسرت، قال الخليفة عمر بن الخطاب لمن أراد أن يبني المسجد: «أكن الناس، ولا تحمر، ولا تصفر»، ومما يؤسف له ان كثيراً من اللجان تسارع الى جمع الأموال من المسلمين لبناء المساجد، وهي لا تعرف الاصول التي اوجبها الإسلام لهذا البناء وأهمها عدم الزخرفة، والاقلال من السواري مهما امكن، خشية قطع صفوف المصلين، وعدم الغلو في فرشه... فتهمل كل ذلك وتبذر الاموال جزافاً على بناء القباب التي لا فائدة منها، وهي آثمة في ذلك، وكل ذلك من الغرور...

المعروف، ويكرهون التصدق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفراناً، وربما تركوا جيرانهم جياعاً، ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه، وقال أبو نصر التمار: إن رجلاً جاء يودع بِشر بن الحارث وقال: عزمت على الحج، أفتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: لأي شيء تبتغي لحجتك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة اللّه؟ قال: ابتغاء مرضاة اللّه، قال: لأن أصبت مرضاة اللّه تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم، وتكون على يقين من مرضاة اللّه تعالى، أتفعل ذلك[1]؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها لعشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يلم شِعثَه، ومعيل يحيي عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب مسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مئة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسم بِشر رحمه اللّه تعالى، وأقبل عليه وقال له: المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشُبهات، اقتضت النفس أن تقضي به وطراً، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى اللّه على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

(وفرقة) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، والواحد منهم يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل، وهو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية، وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء، ومن قتلته

---

(١) ويقصد بذلك غير حجة الفرض.

الحية متى يحتاج إلى دواء!؟ ولذلك قيل لبِشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله، ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذه أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه، مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

**(وفرقة)** غلبهم البُخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم، أو من يحتاجون إليه في المستقبل، للاستسخار في خدمة، أو من لهم فيه على الجملة غرض. أو يسلمون إلى من يعينه واحد من الأكابر، ممن يستظهر بحشمة، لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته. وكل ذلك من مفسدات النية ومحبطات العمل، وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع للّه تعالى وهو فاجر، إذ طلب بعبادة اللّه عوضاً عن غيره. وغرور أصحاب الأموال لا يُحصى، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

**(وفرقة)** أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذِّكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً. وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإن لم يُهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة، لأنها تبعث على العمل، فإن ضُعفت عن الحمل على العمل، فلا خير فيها، وما يراه لغيره، فإذا قصّر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له. وربما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاما مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم!! أو نعوذ باللّه أو سبحان اللّه، ويظن أنه أتى بالخير كله، وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية، ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل

بها، لا يغني من اللَّه شيئاً، فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تُقبل على اللَّه تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتُعرض عن الدنيا، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك! فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً.

**(فإن قلت)**: ما ذكرته من مداخل الغرور، أمر لا يمكن الاحتراز منه، إذ لا يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات.

**(قلت)**: الإنسان إذا فترت همته في شيء، أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صحّ منه الهوى اهتدى إلى الحِيَل، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أردا أن يستنزل الطير المحلِّق في جو السماء مع بعده منه، استنزله، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي، كل ذلك لأنه أهمه أمر دنياه، فلو أهمه أمر آخرته، فليس عليه إلا شغل واحد، وهو تقويم قلبه، ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا، وليس ذلك بمحال، لأنه شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضاً، من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونُظم أسبابها:

**(فإن قلت)**: قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور، فيمَ ينجو العبد من الغرور؟

فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل، والعلم، والمعرفة، فهذه ثلاثة أمور لا بدّ منها، أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية، والنور الأصلي الذي به يُدرك الإنسان حقائق الأشياء، لأن أساس السعادات كلها العقل والكياسة.

وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه، ويعرف الدنيا والآخرة، فإذا عرف ذلك ثار في قلبه بمعرفة اللَّه حُب اللَّه، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى اللَّه تعالى وينفعه

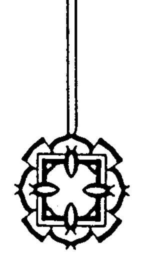
في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عن كل غرور، منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال. وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة، وهوى نفسه أحب إليه من رضاء اللّه تعالى، فلا يمكنه الخلاص من الغرور. فإذا غلب حب اللّه على قلبه بمعرفته باللّه، وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث، وهو العلم.

أعني العلم بما يقربه من اللّه وما يبعده عنه[1]، فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها، وآفاتها فينقيها. ومن العادات أسرار المعايش، وما هو مضطر إليه، فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه. ومن المهلكات، يعلم جميع العقبات المانعة في طريق اللّه، فإن المانع من حب اللّه الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم، ويعلم طريق علاجه، ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدّ وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حبُّ اللّه على القلب، ويسقط حب الدنيا منه، حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها، نسأل اللّه العون والتوفيق وحسن الخاتمة آمين.

---

(١) وهو علم الكتاب والسنة لقوله (صلى اللّه عليه وآله وسلم): «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب اللّه، وسنة رسوله» رواه في الموطإ وسنده حسن (مم).





# كتاب التوبة

## شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب.

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع.

وقد أمر اللَّه تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١) وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ (التحريم: ٨) الآية. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى اللَّه في اليوم مائة مرة»[١].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «للَّهُ أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دويَّة[٢] مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت،

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الأرض الدوية: الصحراء التي لا نبات فيها.

فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فاللّه أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته[1] الحديث».

والاحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن اللّه تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

## بيان وجوب التوبة وفضلها

والتوبة واجبة على الدوام: فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو خلا عن معصية الجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر اللّه تعالى، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم باللّه تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بدّ منه.

ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر اللّه في اليوم والليلة سبعين مرة»[2]. ولذلك أكرمه اللّه تعالى بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢)، فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة. قال اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ (الشورى: ٢٥).

وفي الحديث: أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[3]. والأحاديث في ذلك كثيرة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم إلا أنه قال: مئة مرة وكذلك عند إبي داود، وللبخاري من حديث ابي هريرة: إني لأستغفر اللّه في اليوم أكثر من سبعين مرة.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه وسنده حسن (مم).

# وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام

أما وجوبها على الفور، فلا يستراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات هي من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهوفاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن»[1]. وما المراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى العلوم، كالعلم باللَّه، ووحدانيته، وصفاته، وكتبه، ورسله، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان، لكون الزنا مبعداً عن اللَّه تعالى، موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سُم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال: تناوله وهو غير مؤمن، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيباً، وغير مصدق به، بل المراد أنه غير مصدق بقوله: إنه سم مهلك. فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان.

إن الإيمان كالإنسان، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية، كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة للَّه بالألوهية ولنبيه بالرسالة، هو كإنسان مقطوع الأطراف، مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة، لا أصل الروح، وكما أن مَن هذا حاله قريب من أن يموت، فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان، وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه، إذا صدمتها الرياح العاصفة، فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله، ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا كمن يسقي بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت.

وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كما أنك مؤمن، كقول شجرة القرع

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

لشجرة الصنوبر: أنا شجرة، وأنت شجرة. وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك، وتتناثر أوراقك، وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرسٌ تحتك أم حمار

وهذا يظهر عند الخاتمة. وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقوماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون.

وأما وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال، فهو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فان خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر اللّه، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم باللّه وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بضدها رجوع عن طريق إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون بالمقادير، فأما الأصل فلا بدّ منه ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر اللّه في اليوم والليلة سبعين مرة»[1] الحديث، ولذلك أكرمه اللّه تعالى بأن قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢) وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟

وإنما أطلقنا الوجوب في كل حال. والتوبة عن بعض ما ذكر من الفضائل لا الفرائض، لأنا نعني بالواجب ما لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين، والمقام المحمود بين الصدِّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه، كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي

---

(١) ولفظ الحديث كما رواه مسلم: «إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر اللّه في اليوم مئة مرة» والمراد بالغين ـ كما قال القاضي عياض ـ فتران عن الذّكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر لامر ما، عدّ ذلك ذنباً فاستغفر منه [illegible]ـار.

لمن يريدها، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها.

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا، وليس معنى التوبة تركها فقط. بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صارت ريناً، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤) فإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه، غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده، وصار كالمطبوع من الخبث، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو، تلك الأريان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الاشارة بقوله عليه السلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[١] فإذاً لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها تلك السيئات.

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحترنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله، وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة، بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه، كان بكاؤه عليها أشد، وكل ساعة من العمر بل كل نفَس جوهرة نفيسة لا

---

(١) ران: غلب على قلوبهم فغشيها فعلاه الصدأ.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح وأوله اتق الله واتبع وهو كما قال (مم).

خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد، وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهر أنفس من هذا، فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة، ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته و «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى: ﴿وانفقوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون: ١٠ و ١١).

وقد قيل في معنى الآية إنه يقول حالتئذ يا ملك الموت أخرني يوماً أتوب فيه إلى ربي وأتزود صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم؛ فيقول فأخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتزهق نفسه ولمثل هذا يقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ (النساء: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ (النساء: ١٧) معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[1] ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: **(أحدهما)** أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو **(الثاني)** أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، فيأتي اللّه بقلب غير سليم. ولا ينجو إلا من أتى اللّه بقلب سليم.

## بيان أقسام الذنوب

إعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلى ما بين

---

(١) تقدم قبل قليل.

العبد وبين ربه.

فما يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفو فيه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شِرْكاً والعياذ بالله، فذلك الذي لا يُغفر.

واعلم أن الذنوب تنقسم أيضاً إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر.

والأحاديث الصحاح في ذكرها خمسة:

**الأول**: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات»[1].

**الثاني**: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، سئل أي الذنب أكبر! قال: أن تجعل لله نِداً وهو خلقك. قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يُطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك[2].

**الثالث**: حديث عبد الله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»[3].

**الرابع**: وفي حديث آخر: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور - أو قال - شهادة الزور»[4].

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والبيهقي وسنده صحيح (مج).

(٢) وتمام الحديث فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ الآية (الفرقان ٦٨ - ٧٠) رواه البخاري ومسلم وتمامه: «وقتل النفس، واليمين الغموس» رواه البخاري. واليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار (المرقاة).

(٣) و (٤) ولفظه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول=

الخامس: حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ، ذُكرت عنده الكبائر قال: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الابهام ليكون على الناس وجل من الذنوب.

## بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة.

قال بعضهم: «لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار».

واعلم أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجي من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال عليه السلام: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»[2].

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر، أن يُستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه. فقال به: هكذا[3]؟

---

= الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. رواه البخاري.

(١) راجع الحديث السابق.

(٢) متفق عليه (مم).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال اللّه تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري، من حديث أنس رضي اللّه عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعهدها على عهد رسول اللّه ﷺ من الموبقات.

وقال بلال بن سعد رضي اللّه عنه: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزّقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى أخجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر اللّه تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً.

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره. وفي حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه، أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي معافىً إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره اللّه عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستر اللّه عليه[1].

ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به؛ فإذا عُلم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاقه اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل،

---

(١) ولفظه: كل أمتي معافىً إلا المجاهرون، وإن من المجانة أن يعمل الرجل عملاً بالليل ثم يصبح، وقد ستره اللّه، فيقول: يا فلان، أعملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر اللّه عنه» والمجانة: أن لا يبالي الانسان بماصنع رواه البخاري ومسلم.

فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه!

وفي الحديث: «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب. والثانية: إخفاؤه إذا أتاه.

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتُّبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتُّبعوا على الخير.

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه.

وينبغي له الاحتراز مما يَقتدى به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام؛ فاقتدى به غيره؛ كان الاثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

وقد روينا أن ملكاً كان يُكره الناس على أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جدياً فكل منه، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدي. فقال: ومن أين يعلم حالي من يقتدي بي؟!

## ما يفعله التائب بعد الذنب

اعلم أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً. وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الانسان وبين محبوبه.

---

(١) رواه مسلم بلفظ: «من سنّ في الاسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سنّ في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب. وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول اللّه؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه، لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم من اللّه ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط اللّه، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة[1]، أو واقعة بغير شرطها؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها.

وكذلك إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حج، أو غير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش عن ذلك ويتداركه.

وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن كل معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين اللّه تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود: ١١٤) وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[2].

---

(١) بشروط الحديث «من نسي صلاة، أو نام عنها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» وفي رواية: «لا كفارة لها إلا ذلك» وكلاهما صحيح (مج).

(٢) وهو بلفظ: «اتق اللّه حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» رواه احمد والترمذي والحاكم عن أبي ذر وسنده حسن (مج).

مثال ما ذكرنا: أن يكفِّر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذِّكر ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإنما الأمراضُ تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين اللّه تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية اللّه تعالى، لأنه ينهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بمال الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق.

هذا فيما يتعلق بحق اللّه تعالى. فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يُخرج مظالم العباد.

ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

**أما الأول**: فإنه إذا قتل نفساً خطأ أوصل الدية - إلى مستحقها. إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه. ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد اللّه تعالى، فإنه لا يلزمه لصحة التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رُفع أمره إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه، وكانت توبته صحيحة مقبولة عند اللّه تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية.

وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات فيجب عليه رده إلى أصحابه والخروج عنه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم وليؤد إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن

كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات: لتُؤخذ منه في الاقتصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإن لم تكف بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

**الثالث**: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي. وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزنىً بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهِماً، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء، فإنه يفوت أمره؛ ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولاخلاص إلا برجحان الحسنات.

## تمام التوبة وشروطها

«ومن شروط التوبة الصحيحة، العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً.

مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضره في مرضه، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في تالي الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال.

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات، لتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان

والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، فالاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسي فاغفر لي.

وجاء في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر اللّه عز وجل، إلا غفر له»[1].

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات».

## دواء التوبة وطريق علاج حل عقدة الإصرار

اعلم أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا بمناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الاصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة، للشهوة، والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، كما يجمع في السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعها قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء: لأنه مرض القلوب، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:

**أحدها**: أن المريض لا يدري أنه مريض.

**الثاني**: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد. فقلت النفرة عن الذنوب وإن علم مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل اللّه في

---

(١) وتمامه، ثم قرأ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه، فاستغفروا لذنوبهم﴾ (آل عمران) ١٣٥) رواه الترمذي وابن ماجه، إلا أن ابن ماجه لم يذكر الآية وسنده حسن (مم).

مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير إتكال.

**الأمر الثالث**: وهو الداء العضال: فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار! لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا من تحذير الخلق استنكافاً أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فهذا السبب عمّ الداء وانقطع الدواء.

فإن قيل: فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه مع الخلق؟

فالجواب: أن ذلك يطول، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك، وهي أربعة أنواع.

**الأول**: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد في الأخبار والآيات من ذلك، ويمزج ذلك بمدح التائبين.

**النوع الثاني**: حكايات الأنبياء عليهم السلام، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم عليه السلام، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود عليه السلام، ويوسف عليه السلام، ولم يذكر القرآن والأخبار هذه الأشياء إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يُمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغي أن يكثر من هذا على سماع المصرّين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

**النوع الثالث**: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو بسبب جناياته (غالباً)، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة، يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1]؟.

---

(١) رواه أحمد والنسائي وغيرهما بأطول من هذا، وإسناده ضعيف (مج).

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب وفزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي ذكر اللَّه تعالى في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1] (المطففين: ١٤).

وقال الحسن رحمه اللَّه: الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظُلمة في القلب، ووهن في البدن.

وقال بعض الصوفية: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه، فوقفت أنظر إليه، فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي، فأخذ بيدي فاستحييت منه، فقلت: يا أبا عبد اللَّه، سبحان اللَّه! تعجبت من هذه الصورة الحسنة، وهذه الصفة المحكمة، كيف خُلقت للنار.

فغمز يدي، وقال: لتجدّن عقوبتها بعد حين. فقال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة.

**النوع الرابع**: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب: كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكِبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: أوصني. قال: لا تغضب[2].

وقال آخر: أوصني فقال: عليك باليأس مما في أيدي الناس[3].

فكأنه تخايل من الأول مخايل الغضب.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو حسن (مم).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه بلفظ: جاء رجل، فقال: يا رسول اللَّه! دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني اللَّه، وأحبني الناس. قال: «ازهد في الدنيا يحبك اللَّه، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» وهو صحيح لغيره (مم).

وفي الثاني مخايل الطمع، فإن قلت: فإن كان الواعظ في جميع، أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه، فكيف يفعل؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه، إما على العموم، وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية للكافة، والأدوية لأرباب العلل، ومثاله ما جاء أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري، أوصني. قال: عليك بتقوى اللّٰه عز وجل، فإنها رأس كل خير. وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الاسلام، وعليك بالقرآن، فإنه نور لك في أهل الأرض، وذِكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان.

«وهذا الذي ذكرنا هو العلاج، فيبقى علاج الشهوة، وعلاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب رياضة النفس، ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته، أو غفلته عن مضرَّته، ولا بد من مرارة الصبر، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي (كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة فينبغي أن يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب اللّٰه تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة».

والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهى، والنظر إليه. وعلاجه الجوع والصوم الكثير، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذِّكر، والاستماع بقلب مجرد من الشواغل، ثم التفكر فيما قيل، فيبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتتيسر الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله.

فمن أُعطي من قلبه حسن الإصغاء، واستشعر الخوف، فاتقى، وانتظر الثواب، وصدّق بالحسنى، فسييسره اللّٰه تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذّب بالحسنى، فسييسره اللّٰه للعُسرى..

وإذ كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة، فلا بد من بيان الصبر، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء اللّٰه تعالى.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فمن ذلك أجوبة. منها أن العقاب الموعود ليس بحاضر، ومنها أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة، وقد وُعد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوّف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها أنه يرجو عفو اللّٰه عنه، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف. والمسوف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقي، وإن بقي فربما لا يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم، وهو عاجز في الحال لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً؟ بل تتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة، ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضَعف وقويت!

وأما انتظار عفو اللّٰه تعالى، فعفو اللّٰه سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالجزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء، ينتظر من اللّٰه تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن، إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق، واللّٰه سبحانه وتعالى أعلم.

## يا رب[1]

قُم في الدّجى يا أيها المتعبد ... حتى متى فوق الأسِرة ترقُدُ

قم وادعُ مولاك الذي خلق الدُّجى ... والصُبحَ وامضِ فقد دعاك المسجد

واستغفرِ اللَّهَ العظيم بذِلّةٍ ... واطلب رضاه فإنه لا يحقِد

واندَم على ما فات واندُب ما مضى ... بالأمسِ واذكُر ما يجيء به الغَد

واضرع وقُل: يارب عفوَك إنني ... من دون عفوك ليس لي ما يعضد

أسفاً على عمري الذي ضيعته ... تحت الذنوب، وأنت فوقي ترصُد

يا رب لم أحسَب مرارة مصدِر[2] ... عن زَلّةٍ قد طاب فيها المَوْرِد

يا رب قد ثَقُلت عليّ كبائر ... بإزاء عيني لم تزل تتردد

يا رب إن أبعدْتُ عنك، فإن لي ... طمعاً برحمتِك التي لا تَبْعُد

يا رب مالي غير لطفِك ملجأُ ... ولعلّني عن بابه لا أُطرد

يا رب هب لي توبةً أقضي بها ... دَيْناً عليّ، به جلالُك يَشهَد

أنت الخبير بحال عبدِك إنه ... بسلاسل الوِزْرِ[3] الثقيل مُقيدُ

أنت المُجيب لكل داع يلتجي ... أنت المُجير لكل من يَستنجد

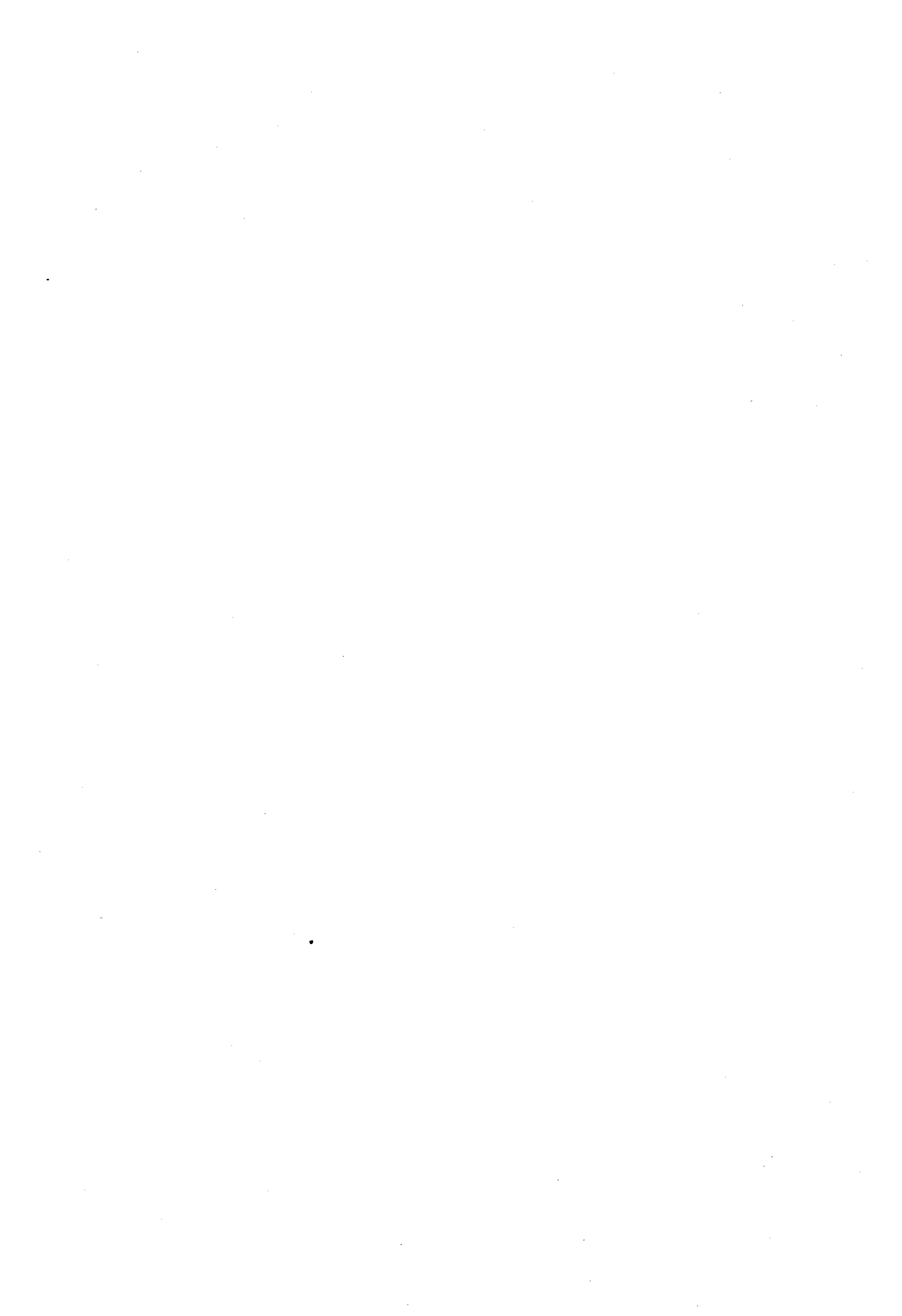
من أي بحر غيرِ بحرك نستقي ... ولأي باب غيرِ بابك نَقصِدُ!

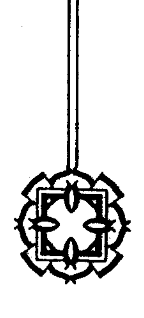
---

(١) من اختيارنا.

(٢) أي عاقبة.

(٣) الإثم.





# كتاب الصبر والشكر

## فضيلة الصبر

وصف اللّه تعالى الصابرين بأوصاف كثيرة، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ (السجدة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٦) وقال تعالى ﴿أُوْلَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ (القصص: ٥٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) فما من قُربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ووعد الصابرين بأنه معهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦) وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم. فقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧).

عن خباب بن الأرتّ قال: أتينا رسول اللّه ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة، فشكونا إليه، فقلنا: يا رسول اللّه! ألا تدعو اللّه تستنصره لنا، فجلس، محمراً لونه، ثم قال: «إن من كان قبلكم ليُؤتى بالرجل، فيُحفر له في الأرض حُفرة، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه!!».

## حقيقة الصبر وأقسامه

اعلم أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدِّين في مقابلة باعث الهوى،

وباعث الدين هو ما هُدي إليه الإنسان من معرفة اللّٰه ورسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وهي الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات. وباعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضياتها. فمن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة التحق بالصابرين. وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

ثم إن باعث الدِّين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

وقد قيل: الصبر باللّٰه غناء، والصبر للّٰه بقاء، والصبر مع اللّٰه وفاء، والصبر عن اللّٰه جفاء، وقد قيل في معناه.

الصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضاً:

الصبرُ يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل

**(أحدها)**: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال «من صبر ظفر» والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصِّديقون المقربون الذين قالوا ربنا اللّٰه ثم استقاموا.

**(الحالة الثانية)**: أن تَغلِب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، فيسلم الإنسان نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء اللّٰه في قلوبهم، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم.

**(الحالة الثالثة)**: أن تكون الحرب سِجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا يُعد من المجاهدين لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين **﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾**.

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق له ذلك وعطّله فهو الناقص حقاً، وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسّر الصبر[1].

## بيان مظان الحاجة إلى الصبر
## وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال

إعلم أن جميع ما يَلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: ما يوافق هواه وما لا يوافقه بل يكرهه، وهو يحتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن هذين النوعين، فإذاً لا يستغنى قط عن الصبر.

---

(١) هناك أحاديث عديدة ذكرها صاحب الإحياء عن الصبر، وهي غير صحيحة، ونذكر فيما يلي بعض الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع:

عن صهيب، قال: قال رسول الله (ﷺ): «عجباً لأمر المؤمن! إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر، فكان خيراً له»[1] وعن ابن مسعود، قال: كأني أنظر إلى رسول الله (ﷺ) يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[3].

عن عروة قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله (ﷺ) قال: رأيت عقبة بن معيط جاء إلى النبي (ﷺ)، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه[4] وعن أنس قال: لقد ضربوا رسول الله (ﷺ) حتى غشي عليه: فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله[5].

---

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم، وقد اشتهر ذلك عن نبينا محمد (ﷺ) ذلك (ولم يصح) (مم).

(٤) رواه البخاري ومسلم، والصرعة: البطل المصارع.

(٥) رواه البزاز وأبو نعيم ولم أجده في كتب السنن.

(**النوع الأول**): ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتّساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، ولذلك حذّر اللَّه عباده من فِتنة المال والزوج والولد، فقال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ (المنافقون: ٩) وقال عز وجل: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ**﴾ (التغابن: ١٤) فالرجل كل الرجل مَن يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، وأن يرعى حقوق اللَّه في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم اللَّه به عليه، وهذا الصبر متصل بالشكر، وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظُمت فِتنة السراء.

(**النوع الثاني**): ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أولا لا يرتبط باختياره كالمصائب، أو لا يرتبط باختياره، ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه، فهذه ثلاثة أقسام:

(**القسم الأول**): ما يرتبط باختياره، وهو ضربان:

(**الضرب الأول**): الطاعة. والعبد يحتاج إلى الصبر عليها لأن منها ما تنفر منه النفس بسبب الكسل كالصلاة، أو بسبب البُخل كالزكاة، أو بسببهما جميعاً كالحج والجهاد، وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

(**الضرب الثاني**): المعاصي. وقد جمع اللَّه تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿**وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ**﴾ فما أحوج العبد إلى الصبر عنها سيما ما لا يثقل منها على النفس كالغيبة والكذب والمِراء، والثناء على النفس

تعريضاً وتصريحاً، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات التي يقصد بها الازدراء والاستحقار والقدح في الموتى، ولمصير ذلك معتاداً في المحاورات، بُطل استقباحها من القلوب لعموم الأنس بها، وهي من أكبر الموبقات.

(القسم الثاني): ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أُذي بفعل أو قول، وجُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة. قال تعالى: **﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾** (المزمل: ١٠) وقال تعالى: **﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾** (آل عمران: ١٨٦) أي تصبروا على المكافأة. ولذلك مدح اللّه تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره، فقال تعالى: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾** (النحل: ١٢٦).

قال أبو حامد الغزالي: رأيت في الانجيل ـ وهو ما ينسب إلى عيسى عليه السلام: «لا تقاوم الشر بالشر، بل من ضربك على خدك الأيمن، فحوّل إليه الأيسر، ومن أخذ رداءك، فأعطه إزارك، ومن سخرك ميلاً فسر معه ميلين»[1].

(القسم الثالث): ما لا يدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب، مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض وعمي العينين وفساد الأعضاء وسائر أنواع البلاء. فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر، وإنما تُنال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادات في الملبس والفرش

---

(١) سامح اللّه أبا حامد الغزالي على هذا الاستدلال، فإن العفو المرغوب فيه شرعاً هو ما كان عند المقدرة، وإلا كان ضعفاً غير مشروع قال سبحانه: **﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾** (الشورى: ٣٩).

والمطعم، لأن هذه الأمور داخلة تحت اختياره. فينبغي أن يجتنبها جميعها، ويُظهر الرضاء بقضاء اللّه تعالى، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك وديعة فاستُرجعت. كما جاء أن أم سليم رحمها اللّه قالت: توفي ابن لي، وزوجي أبو طلحة غائب، فقمت فسجيته في ناحية البيت، ثم حضر أبوه، فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ فقلت: بحمد اللّه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنَّعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك، حتى أصاب مني حاجته. ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: مالهم؟ قلت: أُعيروا عارية فلما طُلبت منهم واسترجعوا جزعوا: فقال بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كان عارية من اللّه تعالى وإن اللّه قَبضه إليه. فحمد اللّه واسترجع، ثم غدا على رسول اللّه ﷺ فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما» قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة، كلهم قد قرؤوا القرآن»[1].

ولا يخرجه عن حد الصابرين توجُع القلب، ولا فيضان العين بالدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه، فقيل له في ذلك، فقال: «هذه رحمة، وإنما يرحم اللّه من عباده الرحماء»[2] بل ذلك لا يخرج أيضاً عنْ مقام الرضاء.

وقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، حتى من اعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على وساوس الشيطان باطناً، فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، ولا يزال في شغل دائم بسببها يضيع به الزمان، وقد يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، ولا تظنن أن الشيطان يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح، فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من

(١) رواه البخاري بنحوه.

(٢) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم، وهو بلفظ: «هذه رحمة جعلها اللّه في قلوب عباده الرحماء» فإنما يرحم اللّه من عبادة الرحماء.

غير أن تشغله بالماء وبغيره، فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل ولو في لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦).

وقال بعض الحكماء: «إن اللّه تعالى يبغض الشاب الفارغ» وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه، كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضاً وهكذا. قال أحدهم: «هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك» فإذاً حقيقة الصبر وكماله، الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل اللّه حسن التوفيق بمنه وكرمه.

## جزاء الصبر

قد قال عليه الصلاة والسلام: «من يرد اللّه به خيراً يصب منه»[1].

وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذي يُؤذى بقول، أو فعل، وجناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦). وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر: ٩٧). وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

ومن أنواع الصبر: الصبر على المصائب، عن عائشة قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم، إلا كفَّر اللّه عز وجل بها عنه، حتى

---

(١) رواه احمد والبخاري.

الشوكة يشاكها»[1] وقال (ﷺ): «ما يصيب المسلم، من وصب، ولا نصب، ولا وهم، ولا حزن، ولا أذىً، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر اللَّه له من خطاياه»[2].

وقال (ﷺ): «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتى يلقي اللَّه وما عليه خطيئة»[3]. وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال: قلت: يارسول اللَّه: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلباً، أشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»[4].

## آداب الصبر

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله عليه السلام: «الصبر عند الصدمة الأولى»[5].

ومن الآداب. الاسترجاع[6] عند المصيبة، لحديث أم سلمة رضي اللَّه عنها، (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: (إنا للَّه وإنا إليه راجعون) اللهم الأجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره اللَّه في مصيبته وأخلف له خيراً منها»[7].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ورواه أحمد وسنده حسن (مم).

(٤) أحمد والبخاري والنسائي.

(٥) رواه البزار وأبو يعلى ورواه البزار بلفظ «الصبر عند أول صدمة» وكلاهما صحيح (مج).

(٦) الاسترجاع: هو أن يقول: ﴿إنا للَّه وإنا إليه راجعون﴾.

(٧) رواه مسلم.

ومن الأدب، سكون الجوارح واللسان. فأما البكاء فجائز. قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر، أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور.

وقال ثابت البناني: مات عبد اللّه بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة، وقد ادهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبد اللّه، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟ قال: أفأستكين لها؟ وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إليَّ من الدنيا وما فيها:

قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ، أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦).

وكان صلة بن أشيم في غزوة له ومعه ابنه، فقال: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئتي، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن!.

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم اللّه عزّ وجل الخفية.

**(الآثار)**: قال علي رضي اللّه عنه: «من إجلال اللّه ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك».

وقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد.

وقال رجل للامام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبد اللّه؟ قال: بخير في عافية. فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية، فحسبك، لا تحرجني إلى ما أكره.

وقال الحكماء: من كنوز البِر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها، وقد جاء في الحديث: «من يُرد اللَّه به خيراً يُصب منه»[1]، وحكاياتهم مشهورة في ذلك.

منها ما جاء أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، لما مات دفنه عمر، وسوّى عليه، ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك اللَّه، يا بني! قد كنت براً بأبيك، واللَّه ما زلت مذ وهبك اللَّه لي مسروراً بك، ولا واللَّه ما كنت قط أشد بك سروراً، ولا أرجي بحظي من اللَّه تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيَّرك اللَّه إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم، فهو أبعد وأبعد.

والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهي عما لا يدخل تحت الكسب، وهو ارتجاع الباطن، وإنما ينهي عن المكتَسب، كشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعي، لا طبعي، إذ الطبع لا بد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا، مثال رجل مريض وصف له شربة لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالاً، فلما تمت فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً، ولو أن ملكاً قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة، أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف طلبوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

والصبر أقسام، وقد جمع اللَّه تعالى ذلك في قوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ (أي المصيبة) وَٱلضَّرَّآءِ (أي الفقر) وَحِينَ ٱلْبَأْسِ (أي المحاربة)أُوْلَـٰٓئِكَ

---

(1) رواه البخاري.

﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ، وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

## بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

إعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مضادة العلة.

ونضرب لك مثالاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

**أحدها**: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

**الثاني**: قطع أسبابه المهيجة له، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر بالقلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذه الاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.

**الثالث**: تسلية النفس بالمباح من حبس المشتهي، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام، ففي المباحات غنية عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يقمع الشهوة، بخلاف هذا.

وينبغي للانسان أن يعوِّد نفسه المجاهدة، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

واعلم أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة: كف الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فان الوساوس لا تزال تحادثه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم هماً واحداً، وصرف

الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع اللّه تعالى، وجميع أبواب معرفة اللّه تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور.

## بيان فضيلة الشكر

إعلم أن اللّه تعالى قرن الشكر بالذِّكر في كتابه، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢) وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧) وقال تعالى: ﴿سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٥) وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر فقال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧) وفي الحديث «الطاعم الشاكر بمنزله الصائم الصابر»[١].

## حقيقة الشكر

إعلم أن الشكر ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح واللسان: أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، وأما باللسان فإظهار الشكر للّه تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح فباستعمال نعم اللّه تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته.

ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب! فسبحان اللّه كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا اللّه كلمة تدل على التوحيد، والحمد للّه كلمة تدل على معرفة النعمة من

---

(١) رواه مسلم.

الـواحد الحق، فـالحسنات بـإزاء هـذه المعـارف التي هي من أبـواب الإيمـان واليقين.

وإعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشـرك عن الأفعال، فمن أنعم عليـه ملك من الملوك بشيء، فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وايصاله إليه، فهو إشراك في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه. بل منه بوجه، ومن غيـره بوجـه، فيتوزع فـرحه عليهـما، فلا يكـون موحـداً في حق الملك. . .

فكل من وصل إليك نعمة من نعم اللّه تعالى على يده، فهو مضطر! إذ سلط اللّه عليـه الإرادة، وهيج عليـه الدّواعي، وألقى في نفسـه أن خيـره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك. . وبعد أن خلق اللّه له هذا الاعتقـاد، لا يجد سبيلاً إلى تركه. . وإنما الذي أنعم عليـك هو الـذي سخره لـك. . . فـإذا عرفت الأمـور كـذلـك فقـد عـرفت اللّه تعـالى، وعـرفت فعله، وكنت موحداً، وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكراً.

قال رسول اللّه ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمـد للّه تملأ الميـزان، وسبحان اللّه والحمد للّه تملأان ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض»[1].

## بيان الشكر في حق اللّه تعالى

إعلم أن العبد لا يكون شاكراً لمـولاه إلا إذا استعمل نعمتـه في محبته، أي فيـما أحبه لعبـده لا لنفسه، وأمـا إذا استعمل نعمتـه فيما كـرهه فقـد كفر نعمته، كما إذا أهملها وعطّلها، وإن كان هذا دون الأول إلا أنه كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خُلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادته.

ثم إن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة مـا يحبه اللّه تعـالى عما يكرهه، ولتمييز ذلك مدركان: (أحدهما) السمع ومستنده الآيات والأخبار.

---

(١) رواه مسلم.

(الثاني) بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار لإدراك حكمة اللّه تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وبالجملة فمن فهم حكمة اللّه تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر.

## السبب الصارف للخلق عن الشكر

واعلم أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم مُنعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة بدون معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد للّه، والشكر للّه، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكم التي أريدت بها، وهي طاعة اللّه تعالى.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

منها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به، فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون اللّه على رَوْحِ الهواء، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبسوا في حمام أو بئر ماتوا غماً، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا، قدَّر ذلك نعمة يشكر اللّه عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر، إلا أن يعمى، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها وعدها نعمة، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك منّة، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم اللّه تعالى عليهم.

كما روي أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا. قال: أما تستحي أن لا تشكر مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً؟

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا. قال: فسورة يوسف؟ قال: لا. قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو؟! فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة، فبكى ثم دعا بماء في قدح، فقال: يا أمير المؤمنين!ـ لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفديها؟ قال: نعم. قال: فاشرب رياً، بارك اللّه فيك. فلما شرب. قال له: يا أمير المؤمنين: أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك؟ قال: نعم.

قال: فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه؟ وهذا يبين أن نعمة اللّه تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه»[1].

وقد رواه الترمذي[2] بلفظ آخر: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) بل مسلم.

تنظروا إلى من فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة اللّه عليكم».

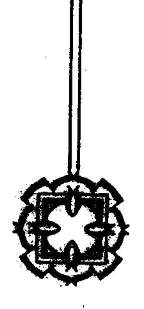
فإن من اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خص به، وجد للّه تعالى عليه نعماً كثيرة، لا سيما من خص بالإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن، وغير ذلك.

قال الشاعر بهذا المعنى:

من شاء عيشاً رحيباً يستطيل به ... في دينه ثم في دنياه إقبالاً
فلينظرن إلى من فوقه وَرَعاً ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال بعضهم:

إذا ما القوت يأتيك ... كذاك الصحو والأمن
وأصبحت أخا حزن ... فلا فارقك الحزن!



# كتاب الرجاء والخوف

إعلم أن الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولا بدّ من بيان حقيقتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك. ونحن نذكرهما في شطرين:

**الأول**: في الرجاء. والثاني: في الخوف.

إعلم أن الرجاء هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع، لا بدّ له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سُمي تمنياً، لأنه انتظار من غير سبب، ولا يُطلق اسم الرّجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يُقال: أرجو طلوع الشمس، وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يُقال: أرجو نزول المطر، وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها. وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلّ أن ينفع إيمان مع خُبث القلب وسوء أخلاقه،

كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيّبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل اللّه تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يُسمى انتظاره رجاءً.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء، ولم يتعاهدها أصلاً ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً، لا رجاءً.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر المياه سمي انتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبقَ إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل اللّه سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بثّ بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهّر القلوب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل اللّه تعالى ثباته على ذلك إلى الموت، وحُسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً، باعثاً على المواظبة على الطاعات، والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ (الأعراف: ١٦٩) وذم القائل: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ (الكهف: ٣٦).

وقد أحسنَ من قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني». وقال معروف الكرخي: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحُمق. ولذلك قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢١٨). المعنى أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك.

واعلم أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

وحال الرجاء يُورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على اللّه عز وجل، والتنعم بمناجاته، والتلطف في الثناء عليه، فإن هذه الأحوال لا بدّ أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق اللّه سبحانه وتعالى؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من هذه العلامات، فهو مغرور.

## فضيلة الرجاء

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «قال اللّه عزّ وجل: أنا عند ظن عبدي بي»[1]. وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ قال: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه»[2]. وأوحى اللّه تعالى إلى داود عليه

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

السلام: أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خَلقي. قال: يا رب: كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني. وعن مجاهد رحمة الله قال: يُؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النّار، فيقول: ما كان هذا ظني؟ فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي. فيقول: خلوا سبيله.

## دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به

اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة. وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يُستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء يُقلب في حقه سُموماً، ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلى موضع العلل، معالجاً كلّ علة بما يليق بها! وهذا الزمان لا ينبغي أن يُستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف! وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرض.

وأخبر تعالى أنه أعدّ النّار لأعدائه، وإنما خوّف بها أولياءه، فقال: **﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾** (الزمر: ١٦). وقال تعالى: **﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾** (آل عمران: ١٣١). وقال: **﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ، لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾** (الليل: ١٤ ـ ١٦). وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾** (الرعد: ٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»(١). ومن حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال:

---

(١) رواه مسلم.

«سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخل أحداً الجنة عملهُ. قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه بمغفرة ورحمة»[١].

ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول اللَّه عز وجل يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك. يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ يشيب المولود، وتضع كلّ ذات حمل حملها»[٢] الحديث.

## حقيقة الخوف ودرجاته

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جناية، ثم وقع في يده، فهو يخاف القتل، ويرجو العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية الى قلته، وتفاحُش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوِّف وعظمته وجلاله، إذ قد عُلم أنّ اللَّه سبحانه، لو أهلك العالَمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال اللَّه تعالى واستغنائه، وأنه لا يُسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي ﷺ: «أنا أخوفكم للَّه»[٣]. وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾** (فاطر: ٢٨) وإذا كملُت المعرفة، آثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر

---

(١) رواه أحمد وغيره وسنده صحيح (مج).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) حديث «أنا أخوفكم»: في البخاري من حديث أنس: وللبخاري ومسلم من حديث عائشة: «واللَّه إني لاعلمكم باللَّه وأشدكم له خشية».

على الجوارح والصفات بالنّحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يَصعد إلى الدِّماغ فيُفسد العقل.

وأما ظهور أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرّط، واستعداداً للمستقبل.

وقال بعضهم: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: «من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف اللَّه هرب إليه!».

ومن ثمرات الخوف، أن يقمع الشّهوات، ويكدّر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سُماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويخضع القلب ويستكين، ويفارقه الكِبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والفِطنة، بالأنفاس واللحظات، ومُؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالِب سبع ضارٍ، لا يدري أيغفلا عنه فيُفلت، أو يهجم عليه فيُهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقُوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال اللَّه تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع من المحظورات. فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سُمي ورَعاً، وإن انضم إليه التّجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصّدق.

## أقسام الخوف

اعلم أن الخوف سَوط اللَّه تعالى، يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بها رتبة القرب من اللَّه تعالى.

والخوف له إفراط، وله اعتدال، وله قصور.

والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السَوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليست المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محموداً، وهو كالذي يخطر بالبال عند سَماع آية، أو سبب هائل، فيُورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوْف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يُضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مُبرّحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عزّ وجودهم. وأما المرتسمون برسوم العلم فإنه أبعد الناس عن الخوف!

وأما القسم الأول، وهو الخوف المُفرط، فهو كالذي يقوي ويُجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يُؤدي إلى المرض والوَله والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر، والوَرع، والتقوى، والمجاهدة، والفكر، والذِّكر، والتعبُّد، وسائر الأسباب التي تُوصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذموماً.

## فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضل كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦). وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة: ٨). وقال النبي ﷺ: قال الله عزَّ وجل: «وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن أمنني في

الدنيا، أخفته يوم أجمع عبادي، وإن خافني في الدنيا، أمنته يوم أجمع عبادي»[1].

وقال النبي ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[3].

## أيهما أفضل الخوف أو الرجاء

اعلم أن قول القائل: أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يُقال: الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نُظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء تداوي بهما القلوب، ففضلهما حسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية. وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل. ويجوز أن يُقال: مطلقاً الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة الى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء، فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يُستقى من بحر الرحمة، والخوف يُستقى من بحر الغضب.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية وسنده حسن (مج).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الضياء وغيره وسنده صحيح (مم).

وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال مكحول الدمشقي: من عبد اللّه بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

قال بعض السلف: لو نُودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نُودي. ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للانسان الرجاء، لأن الخوف كالسَّوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، لأن المشرف على الموت لا يقدر عليه، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نشاط قلبه، والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا، إلا محباً للّه تعالى، محباً للقائه، حَسَن الظن به لقوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[1].

قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: حدثني بالرُّخص، لعلي ألقي اللّه وأنا أُحسن الظن به.

## بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين:

**أحدهما**: أعلى من الآخر. مثاله: إن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أوْ حيَّة، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب

---

(١) رواه مسلم.

بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

ومن قصر عن الخوف، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾**(طه: ٨٢)، فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوِّفات قوله تعالى: **﴿وَٱلْعَصْرِ، إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾** (العصر: ١ ـ ٢)، ثم ذكر أبعة[1] شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** (السجدة: ١٣).

ولما حضرت سفيانَ الثوري الوفاة، جعل يبكي. فقال له رجل: يا أبا عبد اللّٰه: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: واللّٰه لذنوبي أهون عندي من هذا، ولكن أخاف أن أسلب التوحيد قبل الموت.

---

(١) الشرط الأول: العلم، وهو معرفة اللّٰه تعالى، ومعرفة نبيه (ﷺ) ومعرفة دين الاسلام بالادلة وهذا معنى قوله تعالى **﴿الذين آمنوا﴾** والشرط الثاني: العمل بهذا العلم: **﴿وعملوا الصالحات﴾** والشرط الثالث: **﴿والدعوة إلى اللّٰه﴾** وهذا معنى **﴿وتواصوا بالحق﴾**، والشرط الرابع (الصبر على الاذى في سبيل هذه الدعوة الى اللّٰه) وهذا معنى قوله: **﴿وتواصوا بالصبر﴾** فأين المسلمون اليوم من فهم وتدبر هذه السورة الصغيرة؟!

## أسباب سوء الخاتمة ومعناه

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة[1]، والنفاق والكِبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النِّفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما جاء في الحديث الصحيح: «أربع من كنّ فيه، فهو منافق خالص، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منهن، ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر» وفي لفظ آخر: «وإذا عاهد غدر»[2].

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة، فما معنى الخاتمة، فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين:

**إحداهما** أعظم، وهي أن يغلب على القلب والعياذ باللَّه شك، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم.

**والثانية** دونها، وهي أن يسخط من الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور في وصيته، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

قال الخطابي: وذلك أن يستولي على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج عن مظلمة؛ أو يُؤيسه من رحمة اللَّه، ويكره إليه

---

(١) لقوله (ﷺ): «إن اللّه احتجر التوبة على كل صاحب بدعة» رواه الطبراني وغيره وسنده صحيح (مج).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الموت، فلا يرضي بقضاء اللَّه عز وجل.

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك، أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات اللَّه تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بان له بطلان ما اعتقد، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

وينبغي أن ننشد مع هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ومن اعتقد في اللَّه سبحانه وفي صفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة[1] السلف من غير بحث[2]، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء اللَّه تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك

---

(١) راجع مبحث «عقيدة أهل السنة» في الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ١٧ ـ ٢٠.

(٢) هذه العبارة من «مختصر منهاج القاصدين» ولا معنى لها وطريقة السلف في صفات اللَّه تعالى فهمها من غير تأويل وتعطيل، ومن غير تشبيه وتجسيم. فإن من أول فقد عبد عدماً، ومن شبه فقد عبد صنماً.

وقد في جاء أصل الاحياء ما ملخصه: «وكل من اعتقد في اللَّه تعالى، وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به، إما تقليداً، وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر. بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق. والبله فمعزل عن هذا الخطر واستدل بحديث: «أكثر أهل الجنة البله» وهو حديث منكر كما قال ابن عدي (ق ١٦٦/٢).

وقد رد شارح العقيدة الطحاوية (٥١٤) على هذا الحديث: الذي أورده بلفظ: «اطلعت على أهل الجنة، فرأيت أكثر أهلها البله» فقال: فهذا لا يصح عن رسول اللَّه (ﷺ)، ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الالباب الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم الى الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقد ذكر اللَّه سبحانه ـ أهل الجنة بأوصافهم في كتابه فلم يذكر في أوصافهم: البله الذي هو ضعف العقل...

يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مُطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب اللَّه تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، هو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب اللَّه، فمن وجد في قلبه حب اللَّه أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة اللَّه تعالى، قدم به قدوم البعيد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً عما ما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها الإنكار على اللَّه سبحانه في فعله، أو كان مصرّاً على مخالفته، قدم على اللَّه قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نَفس من أنفاسك بمنزل خاتمتك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

واعلم أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

## ذكر خوف الملائكة والأنبياء عليهم السلام

قال اللَّه تعالى في صفة الملائكة: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ (النحل: ٥٠).

وقال سبحانه في وصف أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وقال أبو الدرداء رضي اللّه عنه: كان يُسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة، أزيز من بُعدٍ خوفاً من اللّه عزَّ وجل.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الخوف من اللّه عزّ وجل.

وقال المسيح عليه السلام: يا معاشر الحواريين! خشية اللّه وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان عن الدنيا.

## ذكر خوف نبينا صلى اللّه عليه وآله وسلم

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: «ما رأيت قط رسول اللّه ﷺ مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى لهواته[1] إنما كان يبتسم»[2] وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول اللّه: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رآى قوم فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[3].

## ذكر خوف أصحابه رضي اللّه عنه

روينا عن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه: أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل. وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي اللّه عنهم.

---

(١) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم. جمعها: لهوات، ولهيات.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وكان عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه يسمع آية فيمـرض فيعاد أيـاماً. وأخذ يوماً تبنة مـن الأرض فقـال: يا ليتني كنت هـذه التبنة. يـا ليتني لم أك شيئـاً مذكـوراً. يـا ليت أمي لم تلدني. وكـان في وجهـه خـطان أسـودان من البكاء.

وقال عثمان رضي اللَّه عنه: وددت أني إذا مت لا أبعث.

وقـال أبـو عبيـدة بن الجـراح رضي اللَّه عنـه: وددت أني كنت كبشـاً فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي.

وقال عمران بن حصين: يا ليتني كنت رماداً تذروه الرياح.

وكان مجرى الدموع في خد ابن عباس رضي اللَّه عنه كالشراك البالي.

وقالت عائشة رضي اللَّه عنها: يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وقـال علي رضي اللَّه عنـه: واللَّه لقد رأيت أصحـاب محمد ﷺ، فـما أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانـوا يصبحون شعثـاً غبراً، بـين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا سجداً وقياماً، يتلون كتاب اللَّه تعـالى، يراوحـون بين جباههم وأقدامهم، فـإذا أصبحوا ذكـروا اللَّه عزّ وجـل، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، واللَّه لكأن القوم باتوا غافلين.

## ذكر خوف التابعين ومَن بعدهم

قـال هرم بن حيـان: وددت واللَّه أني شجرة أكلتني نـاقـة، ثم قـذفتني بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة. إني أخاف الداهية الكبرى.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغـيَّر، فيقال: مـالك؟ فيقـول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

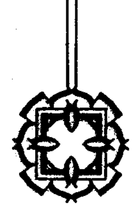
وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكي

حتى تجري دموعه على لحيته. وبكي ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين. لمَ بكيت؟ فقال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي اللَّه تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه.

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول: واللَّه لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد توعدني أن يسجنني في النار إن أنا عصيته؟!

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعبَّاد والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الدموع ولكن بصفاء القلوب، وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.



# كتاب الفقر والزهد

## فضيلة الفقر

قال ﷺ: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون» وذكر تمام الحديث[1] ومن حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً[2]. ومن حديث عائشة رضي اللّه عنها قالت: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُر ثلاث ليال تباعاً حتى قُبض»[3].

وروي أبو هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»[4].

وقال ﷺ: «ربّ أشعث مدفوع بالابواب، لو أقسم على اللّه لأبره»[5].

## آداب الفقير في فقره

ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه اللّه به من الفقر.

---

(١) و (٢) و (٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه الترمذي وسنده حسن (مم) وليس معنى هذا أن الفقراء أفضل من الاغنياء فان من هؤلاء من يكون أفضل من الفقراء وأعلى درجة منهم في الجنة وإنما يسبقون بسبب كثرة أموالهم لتقديم الحساب، وكل ذلك بحاجة الى وقت وما ورد في فضل الفقر، فهو من أجل تقربة نفوس الفقراء بعد بذلهم الجهد.

(٥) رواه مسلم.

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً، ويكون متوكلاً على اللّٰه سبحانه، واثقاً به. ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكر اللّٰه تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال اللّٰه تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته.

وينبغي له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. روى أبو ذر رضي اللّٰه عنه قال: قلت: يا رسول اللّٰه: أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل وابدأ بمن تعول[١].

## آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه مال بغير سؤال، ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال، فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة، فليحذر من أخذه.

وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب.

وأما غرض المعطي، فلا يخلو، إما أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

**الثاني**: أن يكون غرض المعطي الثواب، وهو الزكاة والصدقة، فعلى الفقير أن ينظر في صفات نفسه، هل مستحق أم لا؟ فان اشتبه عليه، فهو محل شبهة، وإن كان صدقة، فإن كان المعطي إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى

---

(١) رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه والحكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لو علم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى اللّٰه تعالى بالصدقة عليه، لم يأخذه، كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد. وأما غرضه في الأخذ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه، فان كان مستغنياً عنه لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما ورد عن عمر رضي اللّٰه عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما آتاك اللّٰه من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك»[١].

## تحريم السؤال من غير ضرورة

اعلم أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه، وفي الترخيص فيه.

أما الترخيص: فكقوله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[٢]: وفي بعض الأحاديث: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»[٣]. ولو كان السؤال حراماً، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه والإعطاء إعانة.

وأما أحاديث النهي عن السؤال: فروي ابن عمر رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللّٰه عز وجل وليس في وجهه مزعة لحم»[٤]! وفيهما أيضاً: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى. واليد العليا هي المنفقة، والسفلى السائلة»[٥] وفي حديث ابن مسعود رضي اللّٰه عنه: أنه ﷺ قال: «من سأل

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) هذا الحديث ضعيف، يبطله حديث: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة (قوة) سوي» الحديث رواه الترمذي وغيره وسنده حسن «مم».

(٣) رواه أحمد والنسائي وسنده صحيح «مج» والظلف حافر الدابة.

(٤) رواه البخاري ومسلم والبخاري. (٥) رواه البخاري ومسلم.

وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته خدوش أو كدوح»[1]. وفي المعنى أحاديث كثيرة.

## حقيقة الزهد وفضيلته

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين. والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه. وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه، ولا مطلوباً في نفسه، لم يسم زهداً، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً.

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك التكالب على الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(النساء: ٧٧) وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦).

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (طه: ١٣١).

وكان بعض السلف يقول: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن.

اضرع إلى اللّه لا تضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإن العز في اليأس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... ان الغنيَّ من استغنى عن الناس

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وسنده صحيح والكدوح: الخدوش والجروح.

## درجات الزهد أو قسامه

من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ، لكنه يجاهد نفسه، وهذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

**الدرجة الثانية**: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه. كما يترك درهماً لأخذ درهمين، وهذا أيضاً نقصان.

**الدرجة الثالثة**: وهي العليا أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئاً، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة، ولا يرى ذلك معاوضة، فإن ترك الدنيا إلى نعيم الآخرة، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة. فهذا هو الكمال في الزهد.

واعلم أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك. أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب على باب اللّه عز وجل، يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسبتها، أعني ما سلم لكل شخص منها ولو عمَّر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي. كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة؟

## تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

**فأما الأول**: وهو المطعم، فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع،

مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ. وفي الحديث: «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[1]. وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال قلت: يا خالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين، الماء والتمر. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم، وكان فيهم من لا يطيق ذلك. فكان الثوري حسن المطعم، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج.

وفي الجملة، فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته، فلا يخرجه من الزهد.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة، وكان أكثر لباس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد جاء عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذين[2].

وعن الحسن قال: خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

الثالث: المسكن.

---

(١) رواه أحمد والبيهقي عن معاذ بلفظ: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» وسنده حسن «مج».

(٢) رواه البخاري ومسلم.

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول اللّه رسول اللّه، ﷺ، نلت السقف. وفي الحديث: إن الرجل يؤجر في نفقته كلها إلا في التراب[1].

وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

**الرابع**: أثاث البيت. فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الضروري، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول اللّه ﷺ، فمن حديث عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: «دخلت على رسول اللّه ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول اللّه ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع[2]. وفي رواية البخاري: فواللّه ما رأيت شيئاً يرد البصر.

وقال علي رضي اللّه عنه: تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش إلا جلد كبش. كنا ننام عليه الليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، ومالي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قبضتها لتضرب جرف الجفنة من الجهد الذي بها.

ودخل رجل على أبي ذر رضي اللّه عنه، فجعل يقلب بصره في بيته. فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً. فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا! فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

**الخامس**: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته.

قال سهل بن عبد اللّه: حُبب إلى رسول اللّه ﷺ النساء[3].

وكان علي رضي اللّه عنه من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

---

(١) رواه البخاري بنحوه بلفظ إن المسلم...

(٢) رواه مسلم.

(٣) ولفظ الحديث «حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». رواه أحمد والنسائي وسواهما وسنده حسن.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم[1].

**السادس**: المال: وهو ضروري في المعيشة. فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت. وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.

وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام.

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلّف أربعمائة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

**السابع**: الجاه، ولا بد للانسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلوب، فينبغي أن يحذر من شر ذلك.

## بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد. فكم من عابد قد لازم معبده وقلل المطعم، وقوّاه على ذلك حب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس. فأول معرفة الزهد مُشكل.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن تعوّل في هذا على ثلاث علامات:

**الأولى**: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (الحديد: ٢٣). وهذا علامة الزهد في المال.

**الثاني**: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

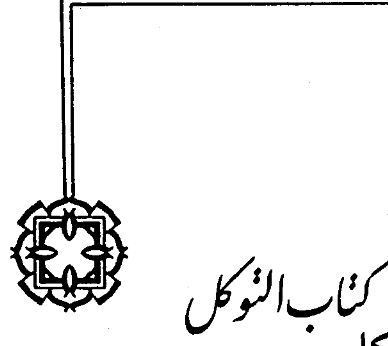
---

(١) ما أحسن هذا التعريف للزهد!

**الثالث**: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.



# كتاب التوكل

## فضيلة التوكل

قال اللّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢).
وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ (الطلاق: ٣).

وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(٢).

## معنى التوكل

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض، كالخرقة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

وكذلك لو لم تزرع، وطمعت أن يخلق اللّه تعالى نباتاً من غير بذر، أو

---

(١) رواه البخاري ومسلم، ومعنى لا يسترقون لا يطلبون الرقية من غيرهم كيلا يعتادوا التواكل، فإن الفاظ الرقية معروفة فلا داعي لطلبها من الآخرين.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وسنده حسن «مم» والخماص: الجياع، والبطان: الشباع.

تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون. وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال. أما العلم: فهو أن تعلم أن اللّه تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل اللّه تعالى، لا على الغير والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط اللّه عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

ومن يفارق الأمصار، ويخرج مسافراً إلى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد، فهذا كالمجرب على اللّه تعالى، وفعله منهي عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول اللّه ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة.

ومن يستقص في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر رضي اللّه عنه: المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على اللّه.

وفي التعرض للأسباب بالادخار، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم[1].

---

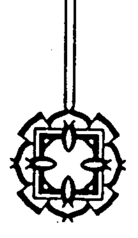
(١) رواه البخاري ومسلم.

وكذلك لا ينقص التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشدّ البعير بالعقال. قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢). وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّٰه أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: أعقلها وتوكل[1]. ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب ويكون راضياً بكل ما يقضي اللّٰه عليه.

---

(١) رواه الترمذي عن انس وسنده حسن «مج».





# كتاب محبة الله

## والشوق لرؤيته والرضا بقضائه

اعلم أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى. ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها.

واعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض. ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾ وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب وأنت مع من أحببت». فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها[1].

## بيان أن أجلَّ اللذات معرفة الله والنظر إلى وجهه الكريم

اعلم أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا. وقد اقتضت

(١) رواه البخاري ومسلم.

سنة اللّه تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنتهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار.

والقول في سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا من الأكدار تجلّى لهم الحق سبحانه وتعالى.

قال بشر: إن معروفاً الكرخي لم يعبد اللّه حباً في جنته، ولا خوفاً من ناره وإنما عبده شوقاً إليه[1].

## بيان الاسباب المقوية لحب اللّه تعالى وتفاوت الناس في الحب

اعلم أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حباً للّه تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على اللّه تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب، إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة..

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون.

**ومما يسبب قوة المحبة:** معرفة اللّه تعالى، وإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا

---

(١) إن هذا الكلام فيه مبالغة، وهو مخالف لسلوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين وصفهم اللّه سبحانه بقوله: ﴿انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويعبدوننا رغباً ورهباً﴾ (الأنبياء: ٩٠) كما وصف الملائكة بقوله: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (النحل: ٥٠).

الفكر الصافي والذّكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه. وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات[1].

أما السبب في تفاوت الناس في الحب.

فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة فكثير من الناس ليس لهم من معرفة اللّه تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم. والعالم البصير يطالع في تفصيل صنع اللّه تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة اللّه في قلبه، فيزداد حباً له، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع اللّه تعالى إلى بحر لا ساحل له.

## بيان محبة اللّه تعالى للعبد ومعناها

وأما محبة اللّه تعالى للعبد، فاعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ (الصف: ٤) الآية ونبّه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ (المائدة: ١٨) وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١).

ومن أقوى علامات محبة اللّه للعبد، حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام ويكتب الايمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذُل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هماً واحداً، فإذا زادت المحبة شغله به عن كل شيء.

---

(١) راجع كتاب التفكر في هذا الجزء لمعرفة كيفية التفكر في خلق اللّه تعالى.

## بيان علامات محبة العبد للّٰه تعالى

وأما محبة العبد للّٰه تعالى، فاعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى!

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت محبة اللّٰه تعالى، ما لم لأمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات، حب لقاء اللّٰه تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء اللّٰه بعد الموت.

وفي السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء اللّٰه تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه: فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة. وعلامة هذا: الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه اللّٰه تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة اللّٰه تعالى متقرباً إليه بالنوافل.

ومن أحب اللّٰه فلا يعصيه ولذلك قال ابن المبارك:

تعصي الإلـه وأنت تـظهـر حبـه ... هـذا لعمري في القيـاس بـديـع
لـو كـان حبـك صـادقـاً لأطعتَـه ... إن المـحـب لمـن يحـب مـطيـع

إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من

إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف، والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعمان أنه كان يؤتي به إلى رسول اللّه ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوماً، فحده، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتي به! فقال: رسول اللّه ﷺ: «لا تلعنه، فإنه يحب اللّه ورسوله»[1]. فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون محباً لذكر اللّه تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب اللّه حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول اللّه ﷺ.

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١).

وقال بعض السلف: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إن كنت تزعم حبي … فلمّ هجرت كتابي
أما تدبرت ما فيـ … ـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة اللّه تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

وقد قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقة … فاستجمعت مذ رأتك العين[2] أهوائي

---

(١) رواه البخاري ومعنى يحده: يقيم عليه الحد.

(٢) أي رأت نعم اللّه وعنايته بعباده وأنه مصدر الخير كله.

فصـــار يحسـدني من كنت أحســده     وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

ومنها أن يكون شفيقاً على المسلمين، رحيماً بهم، شديداً عـلى أعدائـه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩) ولا تأخذه في اللّه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لـه صارف، فهـذه علامـات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غـير اللّه، ينعم في الآخرة بقـدر حبه، فيمـزج شرابـه بشيء من شراب المقـربين، كـما قال عـز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣) إلى قـوله تعـالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ، خِتَـٰمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ، وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٥ ـ ٢٨) فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧ ـ ٨).

ومنهـا أن يكون في حبـه خائفـاً تحت الهيبة والتعـظيم، فـإن الخـوف لا يضـاد المحبة، ولخصـوص المحبـين مخـاوف في مقـام المحبـة ليست لغيـرهـم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الإبعاد.

## (١) بيان الرضي بقضاء اللّه

قال بعض الصالحين في علامات المحبة أبياتاً:

لا تخـدعـن فـللحبـيـب دلائـل     ولـديـه من تحف الحبيب وسـائـل
مـنـهـا تـنـعـمـه بمـرّ بـلائـه     وسـروره في كـل مـا هـو فـاعـل
ومن الـدلائـل أن يُـرى متبسـماً     والقلب فيـه من الحبيب بـلابـل
ومن الـدلائـل أن يـرى متفهـماً     لكـلام من يحظى لـديـه السـائـل

وقال غيره:

ومن الـدلائـل حـزنـه ونحيبـه     خـوف الكـلام فـما لـه من عـاذل
ومن الـدلائـل أن تـراه مسافـراً     نحـو الجهـاد وكـل فعـل فـاضـل

| | |
|---|---|
| ومن الدلائل زهده فيما يرى | من دار ذلك والنعيم الزائل |
| ومن الدلائل أن تراه باكياً | أن قد رآه على قبيح فعائل |
| ومن الدلائل أن تراه مسلِّماً | كل الأمور إلى المليك العادل |
| ومن الدلائل أن تراه راضياً | بمليكه في كل حكم نازل |

وقد قيل:

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود! إنك لن تلقاني بعمق هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي.

ونظر علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه إلى عدي بن حاتم كئيباً، فقال: يا عدي: مالي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعني وقد قُتل ابناي، وفقئت عيني. فقال: يا عدي: من رضي بقضاء اللّه جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء اللّه جرى عليه وحبط عمله.

ودخل أبو الدرداء رضي اللّه عنه على رجل يموت وهو يحمد اللّه. فقال أبو الدرداء: أصبت، إن اللّه عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يُرضي به.

وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه: أن اللّه تعالى بقسطه وعلمه جعل الرّوْح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال علقمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن: ١١) قال: هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند اللّه، فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧) قال: الرضي والقناعة.

وفي «زبور داود» عليه السلام: هل تدري من أسرع الناس مراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري.

وقال داود عليه السلام: يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي اللّٰه عز وجل.

وقال الحسن: من رضي بما قُسم له، وسعه، وبارك اللّٰه له فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضى باب اللّٰه الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين.

وقال بعضهم: لن يرى في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن اللّٰه تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات.
وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إحن[1]
ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئاً قضاه اللّٰه لم يكن

واعلم أن الدعاء لا يناقض الرضى، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا اللّٰه تعالى به، وقد أثنى اللّٰه تعالى على بعض عباده بقوله ﴿يَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ (الأنبياء: ٩٠) ودعاء رسول اللّٰه ﷺ وغيره من الأنبياء معلوم.

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضى بها، فقد تعبدنا اللّٰه تعالى بها، وذم الراضي بها، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً.

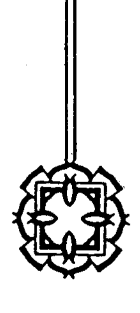
---

(١) الاحن الاحقاد.

وواجب على كل عبد محب للّه أن يبغض من أبغضه اللّه عز وجل، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطر بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين، موافقة لمحبوبهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في اللّه والحب في اللّه، والتشديد على الكفار، والتغليظ عليهم. مع الرضا بقضاء اللّه تعالى.

ومما يتعلق بالمحبة، قيل: أوحى اللّه سبحانه إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إليَّ، ومحبة لي!

يا داود! هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين عليّ؟!



# كتاب النية والإخلاص والصدق

## فضيلة النية

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الكهف: ٢٨) والمراد بتلك الإرادة هي النية، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٣) وقال ﷺ: ««إنما الأعمال بالنيات، ولكل امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١]. وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول اللّه ﷺ في غزوة تبوك. قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً، ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة إلا شَرَكونا في ذلك، وهم بالمدينة» قالوا: وكيف ذلك يا رسول اللّه وليسوا معنا؟ قال: «حبسهم العذر»[٢] فشركوا بحسن النية، وقال ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[٣] وفي حديث أبي هريرة: «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق»[٤].

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري مختصراً وأبو داود.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد وابن ماجه. وبمناسبة الكلام على النية فان مصنف الاحياء، كثيراً ما يذكر حديث «نية المؤمن خير من عمله ويبني عليه الاحكام، وهو حديث ضعيف كما قال الحافظ العراقي».

## تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: طاعات ومعاصٍ ومباحات.

**(فأما المعاصي)** فلا تتغير عن موضعها بالنية، أعني أن المعصية لا تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع، شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم. والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً؟! هيهات، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وهو كما قال، لأن الجهل بالجهل يسدُّ بالكلية باب التعلم. فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم، وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل، وقد قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

نعم للنية دخل في المعاصي، وهو إذا انضاف إليها قصود خبيثة، تضاعف وزرها، وعُظم وبالها.

**(القسم الثاني الطاعات)**: وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة حسنة تضاعف كل حسنة بعشر أمثالها كما ورد، ومثاله القعود[1] في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من

(١) إذا كان غير مكلف بعمل... ومعنى تعلق القلب بالمسجد التفكر بالجماعة وصلاتها، وليس معناه السكنى فيها وترك العمل.

فضائل أعمال المتقين:

**(أولها)**: أن يعتقد أنه بيت اللّه وأن داخله زائر اللّه.

**(ثانيها)**: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في صلاة.

**(ثالثها)**: الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء، عن الحركات والترددات.

**(رابعها)**: عكوف الهم على اللّه، ولزوم السر للفكر في الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

**(خامسها)**: التجرد لذكر اللّه أو لاستماع ذكره والتذكر به.

**(سادساً)**: أن يقصد إفادة العلم بأمر بالمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل، فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه، فتتضاعف خيراته.

**(سابعاً)**: أن يستفيد أخاً في اللّه، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخره، والمسجد معشش أهل الدين المحبين للّه وفي اللّه.

**(ثامنها)**: أن يترك الذنوب حياء من اللّه تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت اللّه ما يقتضي هتك الحرمة، فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له، فهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

**(القسم الثالث المباحات)**: وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلاً، فإنه بقصد التلذذ والتنعم مباح، وأما إذا نوى به اتباع سنة رسول اللّه ﷺ وترويح جيرانه ليستروحوا

بروائحه، ودفع الرائحة الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وزيادة فطنته وذكائه، ليسهل عليه درك مهمات دلأنه بالفكر، فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التي لا يعجز عنها من غلب طلب الخير على قلبه مما ينال بها معالي الدرجات، وأما من قصد بالطيب إظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق للذكر بذلك أو ليتودد إلى قلوب النساء الأجنبيات أو لغير ذلك، فهذا يجعل الطيب معصية ويكون في القيامة أنتن من الجيفة، والمباحات كثيرة لا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه. ولهذا قال بعض السلف: «إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي للخلاء».

وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى اللّه تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن، فهو معين على الدين، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى ولد صالح يعبد اللّه تعالى بعده كان مطيعاً بأكله ونكاحه.

## فضيلة الاخلاص وحقيقته

قال اللّه تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين**﴾ (الحج: ٣٧) وقال: ﴿**أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ**﴾ (الزمر: ٢) وقال تعالى: ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ**﴾ (النساء: ١٤٦) وقال تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً**﴾ (الكهف: ١١٠) وعن علي رضي اللّه تعالى عنه «لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول وجاء في الحكم: «أخلص العمل يجزك منه القليل» وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سُمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفي المخلص إخلاصاً،

والإخلاص يضاده الإشراك فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، وقد جرى العرف على تخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى اللّه تعالى عن جميع الشوائب، فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص، ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدوٍ له[1]، أو يصلي بالليل لغرض دنيوي، أو يتعلم للعمل، أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة لتشيع جنازة أهله، أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به، وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه التقرب إلى اللّه تعالى ولكن انضاف إليه خطوة من هذه الحظوات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه اللّه تعالى وتطرق إليه الشرك.

## فضيلة الصدق ودرجاته

قال اللّه تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) وقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند اللّه صديقاً، وإن الكذب يهدي الى الفجور، والفجور يهدي الى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللّه كذاباً»[2].

والصدق درجات (**الأولى صدق اللسان**) وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وكمال صدق القول الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب[3]، ويجوز الكذب في التحذير

---

(١) بخلاف من نوى على المناسك التجارة والتشاور مع المسلمين في شؤون سياسية واقتصادية وغيرها، فهو واجب لقوله تعالى: ﴿**ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللّه**..﴾ الآية.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) لقد نسب هذا الكلام الى رسول اللّه وهو غير صحيح وقد حدد صلى اللّه عليه وآله وسلم المواقف التي باح فيها الكذب، فلا يجوز تجاوزها والتوسع فيها وإلا وقع في الاثم.

من الظلمة، وفي قتال الأعداء، والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار، فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق، والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد اليه سبيلا، كان رسول الله ﷺ إذا توجه الى سفر ورّى بغيره[1]، وذلك كي لا ينتهي الخبر الى الأعداء فتفسد خطته، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً»[2] ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان[3]، ومن كان في مصالح الحرب؛ والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقاً وصديقاً كيفما كان لفظه، ومن الصدق أت تراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله (وجهت وجي للذي فطر السموات والأرض) فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى، مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب، وكقوله: (إياك نعبد) وكقوله (أنا عبد الله) فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه، فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنياه أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله، وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له، كما قال ﷺ: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم وعبد الخميصة»[4]، سمي كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له، وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق من غير الله تعالى، واشتغل بالله وبمحبته وتقيد ظاهره

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) كأن يدعي حب من لا يحبها.

(٤) رواه البخاري.

وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلا اللّه تعالى.

**(الدرجة الثانية)**: الصدق في النية والإرادة. ويرجع ذلك الى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا اللّه تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية.

**(الثالثة)**: صدق العزم: وهو الحزم فيه بقوة. والصادق فيه هو الذي تصادق عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات، كمن يقول: إن رزقني اللّه مالاً تصدقت بشطره، وإن أعطاني اللّه ولاية عدلت فيها، ولم أعص اللّه تعالى بظلم وميل إلى خلق. فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى.

**(الرابعة)** في الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال اللّه تعالى: **﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾** (الأحزاب: ٢٣) عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول اللّه ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول اللّه ﷺ غبت عنه! أما واللّه لئن أراني اللّه مشهداً مع رسول اللّه ﷺ ليرين ما أصنع، قال فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته: ما عرفت أخي إلا بثيابه[1]، فنزل هذه الآية: **﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾** (الأحزاب: ٢٣).

وقال مجاهد[2]: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود، فقالا: لئن

---

(١) وهو عند البخاري مختصر ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

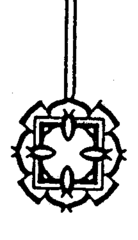
(٢) رواه مجاهد والحسن بدون سند.

رزقنا اللّه تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَـدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَـٰنَـا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّـدَّقَنَّ وَلَنَكُـونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ، فَلَمَّآ ءَاتَـٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَـهُ بِمَا أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾(التوبة: ٧٥-٧٧) فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذباً والوفاء به صدقاً.

(الخامسة) الصدق في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لأن يرائي غيره، ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه، فالصدق هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره.

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سراً فماله ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجمع فهو الصدِّيق حقاً.



# كتاب المحاسبة والمراقبة

## بيان لزوم المراقبة

قال الله تعالى: ﴿ونضع ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧) وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف: ٤٩) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا احْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزال: ٦ - ٨) وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًاۢ بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٣٠) وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾. (البقرة: ٢٣٥).

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، فتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات،

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته، وطالت في عَرصات القيامة وقفاته، إلى الخزي والمقت سيئاته، فحتم على كل ذي حزم آمن باللَّه واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشرتى بها كنز من كنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك، خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل.

## بيان مشارطة النفس

إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها: مالي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني اللَّه فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم رددت فإياكِ أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا عوض لها، فلا تميلي إلى الكسل والدّعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق، وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين، وأشار به إلى الغبن والحسرة، وقال اللَّه تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ**﴾ (التغابن: ٩) فهذه وصيته لنفسه في أوقاته، ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة، وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

(أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار. ثم إذا صرفها عن هذا لم يقنع به

حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خُلقت لـه من النظر إلى عجائب صنع اللَّه بين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنـظر في كتاب اللَّه وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكـذا ينبغي أن يفصِّل الأمر عليها في عضـو عضو، لا سيـما اللسان والبطن.

**(أما اللسان)** فلأنه منطلق بالـطبع ولا مؤنـة عليه في الحـركة، وجنـايته عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس، ومذمة الخلق والأطعمـة والطعن، والدعاء على الأعداء، والمماراة في الكلام، وغير ذلك مما ذكـرناه في كتـاب آفات اللســان، فهو بصـدد ذلك كله مـع أنه خلق للذكـر والتذكـير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد اللَّه الى طريق اللَّه، وإصلاح ذات البين وسائر خيراته.

**(أما البطن)** فيكلفـه ترك الشـره، وتقليل الأكـل من الحلال واجتنـاب الشبهـات، ويمنعـه من الشهــوات، وهكـذا يشتــرط عـلى النَّفس في جميــع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول. ولا تخفى معاصي الأعضاء وطـاعاتهـا، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تكرر عليـه في اليوم والليلة وكيفيـة الاستعداد لها بأسبابها، وكذا فيمن يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس، وقلما يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جـديدة تحتـاج إلى أن يقتضي حق اللَّه فيها، فعليه أن يشتـرط على نفسـه الاستقامـة فيها والانقيـاد للحق في مجـاريها ويحـذرها مغبـة الإهمـال، ويعـظهـا كـما يـوعظ العبـد الآبق المتمرد، فإن النفس بـالطبـع متمردة عن الـطاعات مستعصيـة عن العبوديـة، ولكن الـوعظ والتأديب يؤثـر فيهـا ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

## فضيلة المراقبة

روى أن جبــريـل عليــه السـلام ســأل النبي صلوات اللَّه عليـه عن

الإحسان فقال: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣) وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (العلق: ١٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ﴾(المعارج :٣٢و٣٣)وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة: ٨) فقال معناه لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده.

وسئل بعض الصالحين: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة اللّه في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

| | |
|---|---|
| اذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل | خلوت ولكن قل علّي رقيب |
| ولا تحسبن اللّه يغفل ساعة | ولا أن ما تخفيه عنه يغيب |
| ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب | وأن غداً للناظرين قريب |

## حقيقة المراقبة

المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه. ويعني بها حالة القلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه، وأما المعرفة فهو العلم بأن اللّه مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف. ثم للمراقب في أعماله نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل، أما قبل العمل فلينظر إلى همه وحركته، أهي للّه خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان للّه تعالى أمضاه، وإن كان لغير اللّه استحيا من اللّه وانكف عنه ثم لام

(١) رواه البخاري ومسلم.

نفسه على رغبته فيه وهمه به، وميله إليه، وعرَّفها سوء فعلها وأنها عدوة نفسها، وأما إلنظر الثاني للمراقبة منذ الشروع في العمل، فذلك يتقديم كيفية العمل ليقضي حق اللّٰه فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه.

وهذا ملازم له في جميع أحواله، لأنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو في معصية، أو في مباح، فمراقبته في الطاعات بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراسة النفس عن الآفات، وإن كان في معصية، فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بد له من الشكر عليها. وكل ذلك من المراقبة.

## بيان محاسبة النفس بعد العمل

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: ١٨) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١) وقال النبي ﷺ: «إني لأستغفر اللّٰه تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة[١]» وقال عمر رضي اللّٰه عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا. وقال مالك بن دينار: رحم اللّٰه عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها قائداً: كتاب اللّٰه تعالى فكان قائداً له. إذا علمت هذا فينبغي أن يكون للمرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع

---

(١) ذكره الترمذي في اليوم سبعين مرة وهو صحيح (مج).

حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة، أو شهر، أو يوم، حرصاً منهم على الدنيا، وكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة وقلة التوفيق، ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه: الفرائض وربحه النوافل وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر اللّه تعالى عليها ورغّبها في مثلها، وإن فوتها[1] من أصلها طالبها بالقضاء. وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه، وليتكفل بنفسه من الحساب ما يتولاه غيره في صعيد القيامة.

## توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وهي غالباً أمارة بالسوء ميالة إلى الشر، فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة، رجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد اللّه راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، قال اللّه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥) وسبيلك أن تُقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها أنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق، فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك! تدّعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً؟ أما

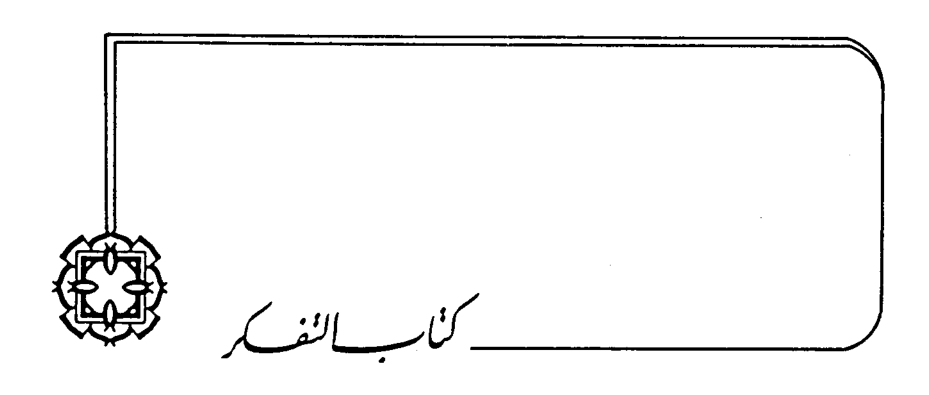
(١) بسبب عذر: نوم أو نسيان.

تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما على القـرب، فمالك تشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿**ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ (الأنبياء: ١ ـ ٣).

ويحك يا نفس، إن كانت جراءتك على معصية اللّه الاعتقاد أن اللّه لا يـراك، فما أعـظم كفرك، وإن كـان مع علمـك باطـلاعه عليـك، فـما أشـد وقاحتك وأقل حياءك!.

ويحـك يا نفس، لـو واجهك عبـد من عبيدك بـل أخ من إخوانـك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له، فبأي جسارة تتعرضـين لمقت اللّه وغضبه وشديد عقابه؟ أفتظنين أنك تطيقين عـذابه: هيهـات هيهات! جـربي نفسك إن أهلهاك البـطر عن أليم عذابـه، فاحتبسي سـاعة في الشمس أو في بيت الحمام، أو قربي أصبعك من النار، ليتبين لك قـدر طاقتـك، أم تغترين بكرم اللّه وفضله، فمالك لا تعوِّلين على كرم اللّه تعالى في مهمات دنياك فإذا أرهقتـك حـاجـة إلى شهـوة من شهـوات الـدنيـا مما لا يقضي إلا بـالـدينـار والدرهم، فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجـوه الحيل، فلم لا تعولين على كرم اللّه تعالى حتى يعثر بك على كنـز، أو يسخر عبـداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب، أفتحسبين أن اللّه كريم في الآخرة دون الدنيا. وقد عرفت أن سنة اللّه لا تبديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للانسان إلا ما سعى!






قد أمر اللّه سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ (آل عمران: ١٩١) وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣). وعن عمر رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «تفكروا في آلاء اللّه ولا تفكروا في اللّه»[١]. وقال أبو الدرداء رضي اللّه عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال وهب ابن منبه: ما طالت فكرة امريء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل. وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة اللّه لما عصوه. وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦) قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم! وقال أبو بكر الكتاني: روعة عند انتباهه من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين[٢].

## بيان مجاري الفكر وثمرته

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدِّين، وقد يجري في أمر يتعلق

---

(١) رواه ابن عمر وسنده حسن «مج».

(٢) لعله يريد النفل منها!

بغيره وإنما غرضنا ما يتعلق بالـدين، وشرح ذلـك يطول. فلينـظر الانسان في أربعـة أنـواع: الـطاعـات، والمعـاصي، والصفـات المهلكـات، والصفـات المنجيات، فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن اللّه، والمقـربة إليـه، فينبغي لكـل مـريـد أن تكـون لـه صحيفـة يثبت فيهـا جملة الصفـات المهلكـات، وجملة الصفات المنجيـات، وجملة المعاصي والـطاعات، ويعـرض ذلك على نفسه كل يوم. ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنـه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعُجب، والريـاء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخـوف والرجـاء، والزهـد في الدنيـا، والإخـلاص في الأعمـال، وحسن الخُلق مـع الخَلق، وحب اللّه تعـالى، والخشوع. فهذه عشرون خصلة، عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كُفي من المذمومات واحدة، خطّ عليها في صحيفة، وترك الفكر فيهـا، وشكر اللّه تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلـك لم يتم إلا بتوفيق اللّه تعـالى وعونـه، ثم يقبل على التسعة الباقيـة. وهكذا يفعـل حتى يخط على الجميـع، وكذلـك يـطالب نفسه بـالاتصاف بـالصفات المنجيـات، فإذا اتصف بـواحـدة منهـا، كالتوبة والندم مثلاً، خطّ عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المشمّر.

فـأما أكـثر النـاس من المعـدودين في الصـالحـين، فينبغي أن يثبتـوا في صحفهم المعـاصي الـظاهـرة، كـأكـل الشبهـات، وإطـلاق اللسـان بـالغيبـة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفـراط في موالاة الأوليـاء، ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعـروف، والنهي عن المنكر، فـإن أكثر من يعـد نفسـه من وجـوه الصـالحـين لا ينفـك عن جملة من هــذه المعـاصي في جوارحه. وما لم تطهُر الجوارح من الآثـام، لا يمكن الاشتغال بعمـارة القلب وتطهيره.

وكـل فريق من النـاس يغلب عليهم نوع من هـذه الأمور، فينبغي أن

يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمور من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتصار الصيت إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومن فعل ذلك فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصدّيقون، وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء. وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحسّ من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة[1]، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى. فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغي أن ينفي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لا ندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي. فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل اللّه أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «تفكروا في آلاء اللّه ولا تفكروا في اللّه»[2] فالتفكير في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحيّر في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكير، أو تتوهمه القلوب التصوير:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

فأما التفكر في مخلوقات اللّه تعالى، فقد ورد القرآن بالحثّ على ذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ١٩٠) الآيات. وقوله: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

ومن آيات اللّه تعالى: الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الانسان في

---

(١) على أن يكون ذلك وقتياً ريثما ينجو ويشفى من الغرور والرياء، ثم يترك الانفراد والعزلة.
(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

نفسه فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة اللّه تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك. وقد أمر اللّه تعالى الانسان بالتدبر في نفسه فقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١). وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليُطلب هناك.

ومن آياته: الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها. ومن آياته: البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم، المحيط بجميع البر. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة في بحر عظيم. وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر!

وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوّره في صدفه تحت الماء. وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها اللّه تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء. ومنع منها، لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها. ولو ملك ذلك، ثم شربها ومُنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها. للا يغفل العبد عن هذه النعمة.

ومن آياته: الهواء وهو جسم لطيف لا يُرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبَرد والشُهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب. وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء. ثم انظر إلى السماء

---

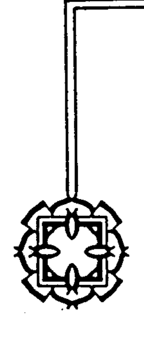
(١) بل (٣٣٣) الف مرة تقريباً كما يقول علم الفلك الحديث!

وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله تعالى فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه. وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض بمرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموَّه بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك! فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك! فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه!

فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك. فهذا بيان معاقد الجُمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقلُّ عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم، فتفكر فيما أشرنا إليه ههنا مع ما قدمناه من الإشارة إلى كتاب الشكر. فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل اللّه وصنعه، استفاد المعرفة بجلال اللّه تعالى وعظمته. ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب شقي. نعوذ باللّه من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال. ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن، فلذلك عدلنا عنه الى ما نراه واللّه أعلم.





# كتاب ذكر الموت وما بعده

## فضل ذكر الموت

ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[1].

وعن عبد الله بن مطرف قال: إن هذا الموت قد نغَّص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

واعلم أن المنهمك في الدنيا المكبّ على غرورها المحب لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الجمعة:٨) ثم الناس، إما منهمك وإما تائب مبتديء، وإما عارف منته أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً، وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه بحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب.

ثم إن أنجع طريق في ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله. فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن غريب: بل هو حديث صحيح وله شواهد كثيرة «مم» وقد ورد بلفظ هاذم أي قاطع ومعنى هاذم أي كاسرٌ.

مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وخلت منهم ماسجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم، وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم، فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى[1] عن دار الغرور، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا، ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حُسنها ثم بكى فقال: واللّه لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور، لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى رحمه اللّه تعالى.

## فضيلة قصر الأمل

قال رسول اللّه ﷺ لعبد اللّه بن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2] وكان ابن عمر يقول: «إذا أصبحت فلا تنظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك».
وعن علي رضي اللّه عنه رفعه[3]: إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا، وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، فإن الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة، ومن صيف وشتاء وخريف وربيع، ومن ليل ونهار، فلا يُقدر نزول الموت به مع رؤياه من مات بين يديه، ولا يُقدّر أن تشيع جنازته وهو لا يزال يشيع الجنائز، فما أغفله وما أجهله! فسبيله أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بد وأن تُحمل جنازته ويُدفن في قبره، ولا علاج لذلك إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب. فمهما حصل له

(١) يبتعد.
(٢) رواه البخاري.
(٣) لا اظن يصح رفعه الى النبي ﷺ.

اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير.

## المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير

عن النبي ﷺ أنه قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(١) وقال ﷺ: «نُعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(٢) أي إنه لا يغتنمهما، ثم لا يعرف قدرهما الا عند زوالهما. وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرةَ فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى اللّه عز وجل. رحم اللّه امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه. ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (مريم: ٨٤) يعني الأنفاس. آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك.

وسبب التأخير هو الأنس بالدنيا وشهواتها والتسويف، فلا يزال يسوِّف ويُؤخر ولا يخوض في شغل إلاّ ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى. وهكذا على التدريج يُؤخر يوماً بعد يوم ويُفضي به شغل إل شغل بل إلى أشغال إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف! يقولون واحزناه من سوف، والمُسوِّف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في النديا فراغ قط، وهيهات فما يفرغ منها إلا من اطرحها:

فما قضى أحد منها لُبانته ... وما انتهى أرب إلا إلى أرب

نسأله تعالى أن لا يجعل لنا بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي وهو صحيح الاسناد (مج).

(٢) رواه البخاري.

## بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفَس بصدده ـ كما قال بعض الحكماء: «كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك». واعلم أن الجنائز عبرة للبصيرة، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قسوة، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يُحملون أو يحسبون ذلك، ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطُل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويُقدِّر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمول عليها على القرب وكأن قد.. ولعله في غد أو بعد غد. قال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً، فهكذا كان خوفهم من الموت.

والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه، إلا في الحيلة التي يتناول بها بعض ما خلّفه، ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء اللَّه في جنازة نفسه، وفي حاله إذا حُمل عليها، ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا اللَّه تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين يدينا، فصرنا نغفل ونلهو بما لا يعنينا فنسأل اللَّه تعالى اليقظة من هذه الغفلة.

**(فمن آداب حضور الجنازة)** التفكر والتنبه والاستعداد[1].

**(وأما زيارة القبور)** فهي مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وقد

---

(١) وكذلك الصمت وعدم رفع الصوت بذكر أو قراءة أو غير ذكل مما يفعله كثير من العامة وقد صح هذا القول بهذا عن بعضالصحابة وله حكم المرفوع.

كـان رسول اللّه ﷺ نهى عن زيـارة القبور، ثم أذن في ذلـك بعـد[١]، وأمـا النسـاء فلا يفي خـير زيارتهن بشـرها، يكثـرن الهجر عـلى رؤوس المقابـر ولا يخلون في الـطريق عن كشف وتبرج، وهـذه عـظائم؛ والـزيـارة سنـة فكيف يُحتمل ذلك من أجلها، نعم لا بأس بخـروج المرأة في ثيـاب بذلـة ترد أعـين الرجال عنها، وذلك بشرط الاقتصار[١] على السلام والدعاء، وترك اللغو.

والمستحب في زيـارة القبور أن يقف مستـدبر[٢] القبلة مستقبـلاً لـوجـه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى! قـال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السـلام عـلى أبي بكـر، السـلام عـلى أبي، وينصـرف، وكـان بعض السلف إذا وقف على باب المقابر يقـول: آنس اللّه وحشتكم ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيئاتكم وقبل حسناتكم. فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء للميت ولا عن الاعتبـار به، وإنمـا يحصل هـل الاعتبار بـأن يتصـور في قلبـه الميت كيف تفرقت أجزاؤه، وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به، ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكره إلا بالجميل. قال ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنـه قد أفضوا إلى ما قَدَّموا»[٣].

## ذكر ما بعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة

كـما أن للموت شـدة في أحوالـه وسكراتـه وخطراً في خـوف العاقبـة، كذلك الخـطر في مقاسـاة ظلمة القبـر وديدانـه، ثم لمنكر ونكـير وسؤالهما، ثم

---

(١) لفظ الحديث كما رواه أنس (كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فـزوروها، فـانها ترقق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجراً) اخرجـه الحاكم بسنـد حسن، وهو صحيـح (مج) حسن.

(٢) هذا عند السلام، أما عند الدعاء للميت، فان الزائر يقف مستقبـلا القبلة لا القبر اتفق عـلى ذلك الأئمة الاربعة رحمهم اللّه تعالى.

(٣) رواه البخاري.

لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور، والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء: إما بالاسعاد وإما بالإشقاء.

فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، وبدل على ذلك شدة تشميرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سُئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم وقال لصاحبه الذي أخبره: صدقت، ثم مد يده لتناوله كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله.

وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان، فمثل نفسك وقد بُعثت من قبرك مبهوتاً من شدة الصاعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد أزعجهم الرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** (الزمر: ٦٨) وتفكّر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكالتهم انتظاراً لما يُقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم، فكيف حالك وحال قلبك هنالك، وقد بُدّلت الأرض غير الأرض والسموات، وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس، وهم حفاة عراة مشاة، وازدحموا في الموقف شاخصة أبصارهم، منفطرة قلوبهم.

فتأمل يا مسكين! في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه، والخجل

والحياء من الافتضاح عند العرْض على الجبار تعالى، وأنت عار مكشوف ذليل، متحير مبهوت منتظر ما يجري عليك القضاء بالسعادة أو الشقاوة، وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة، واستعد لهذا اليوم العظيم شأنه، القاهر سلطانه، القريب أوانه ﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢) يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كُوِّرت، والجبال قد سيِّرت، والعشار قد عُطلت، والوحوش قد حُشرت، والبحار قد سُجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زُوِّجت، والجحيم قد سُعِّرت، والجنة قد أزلفت.

وقد وصف اللّه بعض دواهي يوم القيامة. وأكثر من أساميه، لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانيه، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب، بل الغرض تنبيه أولى الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة[1]، سر، وفي كل نعت من نعوتها معنى. فاحرص على معرفة معانيها.

فالويل كل الويل للغافلين، يُرسل اللّه لنا سيد المرسلين، ويُنزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بالصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرف غفلتنا ويقول: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ، مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنبياء: ١-٣) ثم يعرِّفنا قرب القيامة فيقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَىٰهُ قَرِيباً﴾ (المعارج: ٦ و٧) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (الأحزاب: ٦٣) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً، فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه، ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ باللّه من هذه الغفلة إن لم يتداركنا اللّه بواسع رحمته.

---

(١) راجع كتاب «مشاهد القيامة في القرآن».

## صفة السؤال

ثم تفكر يا مسكين! بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهاً من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير، فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء إلى موقف العرض على الجبار فيقومون صفاً صفاً، محدقين بالخلائق من الجوانب، وينادون واحداً بعد واحد، فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار، ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر: ٦٩) وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(المائدة: ١٠٩) فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء من شدة الهيبة، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله اللّه تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره. وعن سره وعلانيته، وعن جميع جوارحه وأعضائه.

فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك، وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك، وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرها، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها، فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه. وبأي لسان تجيب، وبأي قلب تعقل ما تقول، وفي الحديث: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم»[1]. فأعظم يا مسكين إبحياتك عند ذلك وبخطرك. ثم لا تغفل عن الفكر في

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا سنده غريب. واسناده صحيح (مم).

الميزان وتطاير الكتب إلى الشمائل والايمان ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة: ٦ ـ ١١).

## صفة الخصماء ورد الظالم

اعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، وخطراته ولحظاته، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أن يموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض اللّه تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يقول: ظلمتني، وهذا يقول: شتمتني وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: أخفيت عيب سعلتك عني، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجاً وأنت غني فما أكرمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عني فما راعيتني.

فبينما أنت كذلك، وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٧) فعند ذلك ينخلع قلبك وتتذكر ما أنذرك اللّه على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ (إبراهيم: ٤٢ و٤٣) فما أشد ترحك[1] اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم، وما أشد حسراتك في ذلك اليوم، إذا وُقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك،

(١) حزنك.

فـاحـذر من التعـرض لسخط اللّه وعقـابــه الأليم. واستقم عـلى صــراطـه المستقيم. فمن استقام في هذا العالم على الصـراط المستقيم خف على صـراط الآخـرة ونجا، ومن عـدل عن الاستقامـة في الدنيـا، وأثقـل ظهـره بـالأوزار وعصى، تعثّر في أول قدم من الصراط وتردى.

## القول في أهوال جهنم وقانا اللّه عذابها

يا أيها الغـافل عن نفسـه! المغرور بمـا هو فيـه من شواغـل هذه الـدنيا المشرفة عـلى الانقضاء والـزوال، دع التفكر فيـها أنت مرتحـل عنه. واصـرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قال سبحانه: **﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَـا كَانَ عَـلَىٰ رَبِّكَ حَتْـماً مَّقْضِيـاً ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّـذِينَ ٱتَّقَـواْ وَّنَـذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾** (مـريم: ٦٩ ـ ٧٠) فأنت من المـورد على يقـين، ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد، فعسـاك تستعد للنجـاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من داهي القيامة ما قاسـوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبـائها وتشفيـع شفعائهـا، إذ أحاطت بـالمجرمـين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نـار ذات لهب، وسمعوا لهـا زفيراً يُفضح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعـطب، وجثت الأمم على الركب. حتى أشفق البريء من سوء المنقلب.

فهنـاك تسوق الـزبانيـة المجرم إلى العـذاب الشديـد وينكّسونـه في قعر الجحيم، ويقـولون لـه: **﴿ذُقْ إِنَّـكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَـرِيمُ﴾** (الدخـان: ٤٩) فأسكن داراً يخلد فيها الكافرون، ويوقد فيهـا السعير: شـرابهم فيها الحميم، ومستقـرهم الجحيم. شدّت أقـدامهم إلى النواصي، واسـودت وجـوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك! قد نضجت منا الجلود، يا مالك! أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الـزبانيـة: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهـوان، فاخسؤوا فيهـا ولا تكلمون. فعند ذلـك يقنطون، وعـلى ما فـرطوا في جنب اللّه يتـأسفون. ولا

ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، يدعون بالويل والثبور[1]، وتغلي بهم النار كغلي القدور، وتهشم بمقامع الحديد جباههم، فينفجر الصديد من أفواههم، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

فكيف لو نظرت إليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم، وكُسرت عظامهم، ومُزقت جلودهم، ولهيب النار سار في بواطن أجزائهم، وحيّات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم. هذا بعض جملة أحوالهم، وانظر إلى تفاوت الدركات، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت، فمنهم منهمك مستكثر كالفريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت، فإن اللَّه لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا لافتدى بها من شدة ما هو فيه. فياالحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من الدنيا ولذاتها.

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال. والعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمفرحات الدنيا، ولست تدري بماذا سبق القضاء في حقك. (فإن قلت): فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي، وما الذي سبق به القضاء في حقي، فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها، وهو أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كلاً ميسر لما خُلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخيرات فأشر فإنك مُبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعك ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات، ودلالة الدخان على النار، فقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣ و١٤) فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين.

---

(١) الهلاك.

# صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى، فتأمل في نعيمها وسرورها، فإن من بُعد من إحداهما استقر لا محالة في الأخرى، فسق نفسك بسَوط التقوى لتنال المُلك العظيم، وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرةُ النعيم يُسقَون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار، مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالولدان[1] مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن[2] إنس قبلهم ولا جان، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، وهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون، ومن رَيْب المنون آمنون.

فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها، واللّه لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضروراته كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرور مُمتَّعون، لهم فيها كل ما يشتهون وإلى وجه اللّه الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من اللّه مالا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان، ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان اللّه تعالى بيان، واقرأ قوله تعالى: **﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾** (الرحمن: ٤٦) إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وسورة الإنسان وغيرها من السور، ففيها ما يدلك على أن ثمة ما لا عين

---

(١) يشير إلى قوله تعالى **﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾** لا يؤثر عليهم الزمن، فيبقون على حالتهم لخدمة أهل الجنة فان الخادم إذا كان مسناً يستحي منه في تكليفه بالخدمة. وهذا من تمام نعيم الجنة.

(٢) هن أبكار.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر كما ورد في الأثر، ويكفي من الاطلاع على جملتها ما بينا، وقد ورد في تفصيل صفتها كثير من الأخبار المدونة في الأسفار الكبار.

واعلم أن درجة الآخرة متفاوتة، ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٢١) وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة، والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة اللّه تعالى، فقد أمرك اللّه بالمسابقة والمنافسة فيها، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٢ ـ ٢٨).

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، ونستغفرك من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين.

انتهى الجزء الثاني والأخير بحمد اللّه وفضله، والحمد اللّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

# كلمة شكر

لا بـد، «وقد انتهى كتـاب»: «تهـذيب مـوعـظة المؤمنـين» بعـون اللّه وتوفيقه، من نقدم جزيل الشكر إلى الأخ الفاضل، والكاتب المجاهـد الأستاذ محمد عيد العباسي (أبو عمار) لما بذله من جهد في المشاركة في تحقيق أحاديث هذا الكتاب، والتعاون في تصحيح تجاربه، فجـزاه اللّه تعالى خيـراً، أجر مـا يبذل لنصرة الإسلام والدعوة إليه.

كما نشكر في الوقت نفسه الأخ الغيور الصيدلي محمد ياسـين الآغا (أبـو ياسر) لمشاركتـه في تصحيح هـذه التجارب أيضـاً، ونسألـه سبحانـه أن يتولى مكافأته، ويكتب له الأجر والثواب.





## فهرس الجزء الثاني

### من كتاب تهذيب موعظة المؤمنين